محاضرات
الموسم الثقافي
لعام ١٤٠٥/١٤٠٦هـ - ١٩٨٥/١٩٨٦م
Bibliotheca Alexandrina
0170027
دولة الإمارات العربية المتحدة - وزارة الإعلام والثقافة - الإدارة الثقافية

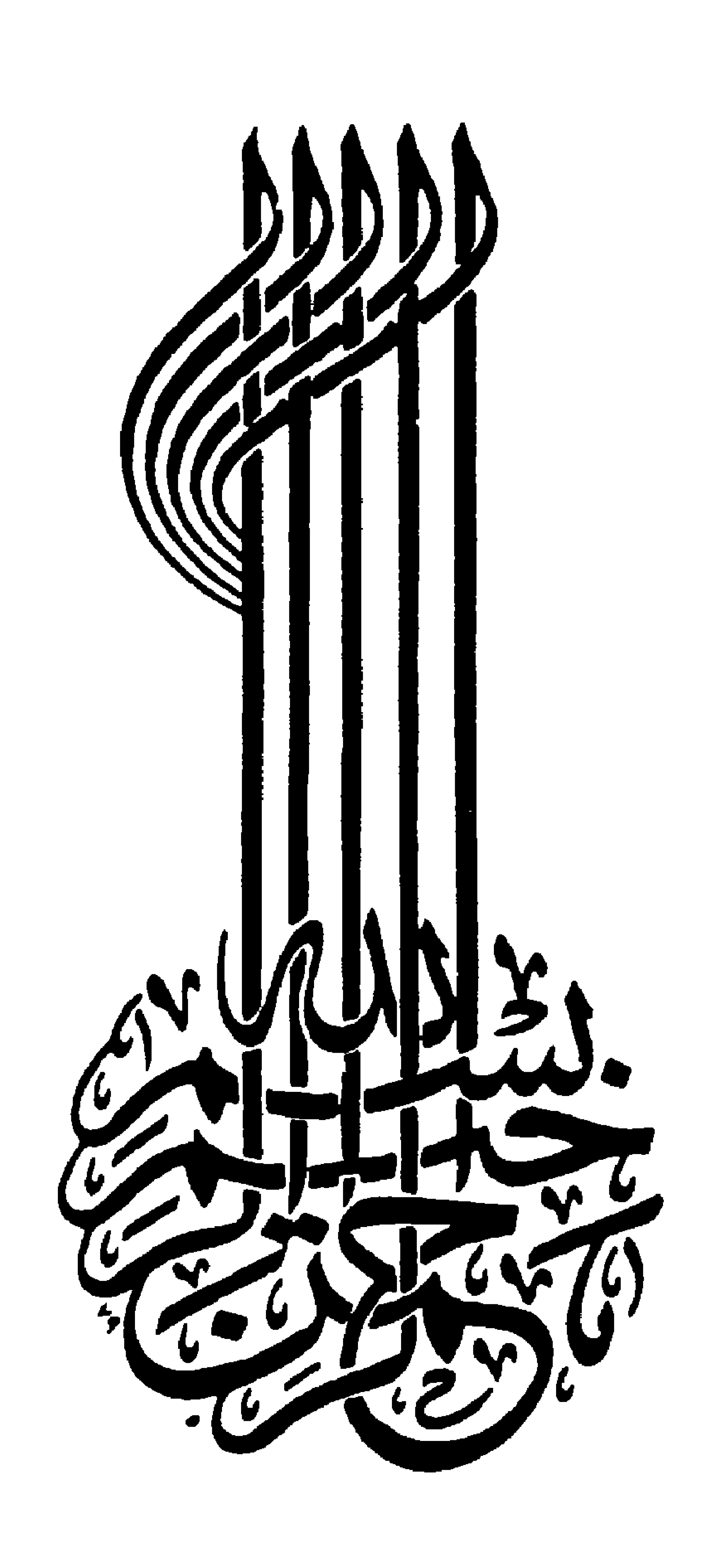


محاضرات الموسم الثقافي

لعام ١٤٠٥/١٤٠٦هـ - ١٩٨٥/١٩٨٦م

الادارة الثقافية - وزارة الاعلام والثقافة

دولة الامارات العربية المتحدة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد خير المرسلين وبعد ،،،

فهذه وحدة أخرى في سلسلة كتب الموسم الثقافي للادارة الثقافية بوزارة الاعلام والثقافة ، وسيجد فيها القارىء الكريم ـ كما اعتاد ان يجد في اخواتها السابقات ، وجبة دسمة متكاملة من ثمار المعرفة الشهية التي تغذي العقول المتطلعة الى المعرفة ، وتلامس شغاف القلوب التواقة الى الابداع الانساني الرفيع .

سيجد القارىء الكريم بين يديه موضوعات تتنقل به من مجالات العلم الى الاعلام الى القانون الى التاريخ والأدب ، وتطير به على أجنحة الشعر الى الآفاق الانسانية الرحبة .

أما منار الروح واشعاعات الهدى فان لها مساحة واسعة في هذه المجموعة من المحاضرات ، حيث هناك فيض من معجزات كتاب الله الكريم التي مازالت تستخرج من مكنون أياته العظيمة ، فتنهبر لها العقول وتحار أمامها الألباب ، ويسجد لادراكها أرباب العلم ، وتداخل أنفسهم الخشية ، ويتغلغل في نفوسهم الايمان ، وهم يصعدون في علومهم ويرتقون بها ويحلقون في آفاق المعرفة والاستكشاف والتجريب ، ولكنهم في نهاية كل مطاف يجدون أنفسهم مازالوا يطرقون أبواب العلم ولم يلجوه ، ومازالوا يتلمسون دروبهم للوصول الى بعض ما أودع الله في أياته المحكمات من علوم وأسرار .

هذا بعض ما في هذه المجموعة من ثمار المعرفة ، ولنترك للقارىء الكريم فرصة الغوص وسبر الاغوار .

وتحية لمن اودعوا هذا الكتاب ثمار عقولهم وقلوبهم من العلماء والأدباء .

والله ولي التوفيق

الادارة الثقافية

وزارة الاعلام والثقافة



صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

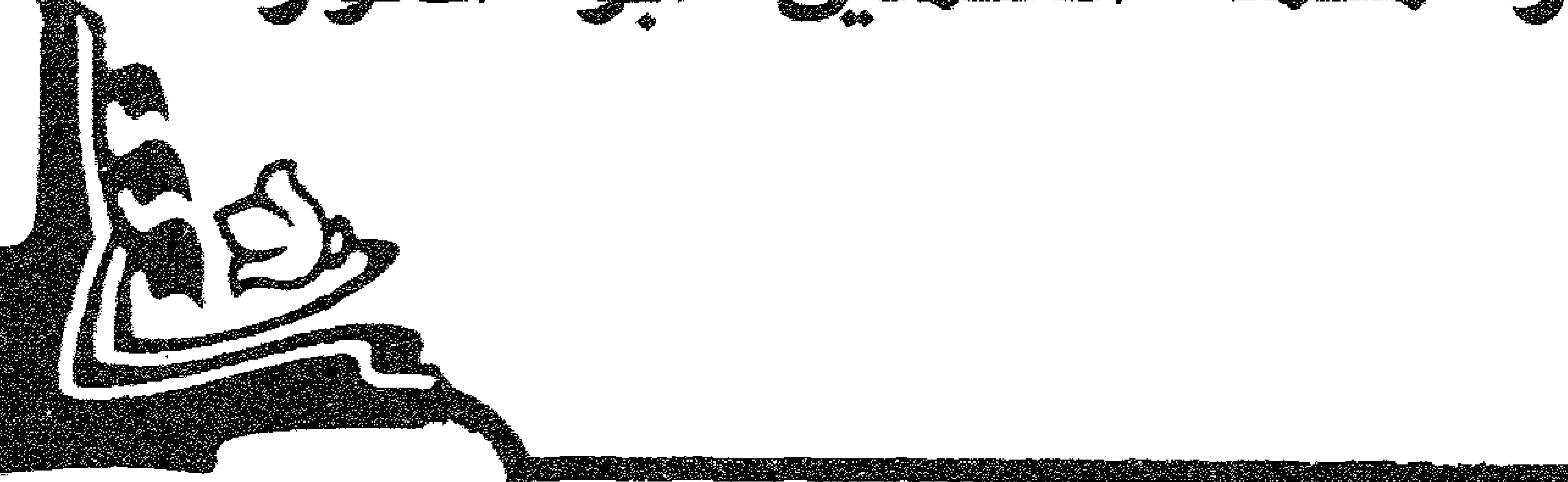
المحتويـــــات

المحاضرة الأولى

مع القرآن الكريم في بناء شخصية النبي ﷺ وتأثير ذلك على تعليم الفرد وتنمية المجتمع



للدكتور محمد الأحمدي أبو النور



معالي الدكتور/ محمد الأحمدي أبو النور

* من مواليد جمهورية مصر العربية في ١/١١/١٩٣٠ .
* تخرج من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام ١٩٥٦ .
— درجة العالمية مع اجازة التدريس عام ١٩٥٧ .
— دبلوم الدراسات العليا في العقيدة والفلسفة عام ١٩٦٢ .
— درجة الماجستير في الحديث وعلومه عام ١٩٦٧ .
— درجة الدكتوراة في الحديث وعلومه عام ١٩٧٠ .
* عين معيدا في قسم الحديث النبوي وعلومه بكلية أصول الدين عام ١٩٦٣ .
— مدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٧٠ .
— رئيس قسم الحديث والتفسير بكلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر ١٩٧١ .
— أعير إلى جامعة أم درمان الاسلامية بالسودان ٧٦ ـ ١٩٧٨ .
— أعير إلى جامعة الكويت ٧٨ ـ ١٩٨٠ .
— وكيل لكلية البنات الاسلامية ثم عميدا لها اعتبارا من ٨١ ـ ١٩٨٤ .
— عضو مجلس الشورى المصري .
— عضو المجالس القومية المخصصة .
— رئيس هيئة الأوقاف المصرية .
— رئيس المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
* أهم وأبرز المؤلفات :
— منهج السنة في الزواج .
— قبسات من السنة .
— في ضوء القرآن .
— من هدى السنة .
— من علوم السنة .
— الديباج المذهب في حلقات المالكية لابن فرحون (تحقيق) .
— ذيل وفيات الأعيان لابن القاضي (تحقيق) .
* أهم المؤتمـــرات :
— شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والسياسية والاقتصادية في القاهرة وبغداد والنجف الاشراف وكربلاء والكويت .

مع القرآن الكريم في بناء شخصية النبي ﷺ وتأثير ذلك على تعليم الفرد وتنمية المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم .. يجب أن يكون لنا حديث على هامش الاحداث التي تجري في الساحة العربية والاسلامية ، فنحن أحوج ما نكون الى وحدة الصف وجمع الكلمة ، وفي صدر الاسلام عالج الاسلام هذه المسائل ، وكلكم تعرفون ان الاسلام دائما يعنى بالوقاية أكثر مما يعنى بالعلاج . ومن وقاية الاسلام من اختلاف الكلمة أو الصراع على السلطة ، ما حدث من تنزيلات للوحي السماوي ، ومن تتبيعات نبوية للمؤمنين ، أن يحرص كل منهم على صلح الآخرين وأن تحب للناس ما تحب لنفسك . ولم يؤت مجتمع يصغر أو يكبر الا من قبل النزاع على الرياسة والسلطة .

كلكم تعرفون عنصرا هاما وجوهريا من عناصر الايمان هو أن يؤمن المرء منا بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، حلوه ومره ، وهذا يراد منه الرضاء عن الله ، لانك اذا رضيت عن الله ، فقد أمنت بأن له حكمة في تقسيمه وعطائه . قد يكون عطاء الله تبارك لغيرك اختبارا لا رضاء عن هذا الغير ، وقد يكون رضاء ، فلنصنع ما يصل بنا الى رضاء الله حتى يعطينا ما أعطى غيرنا ، ولنكف عن حسد الناس ، فان عطاء الله لهم ليس تكريما ، إنما قد يكون اختبارا كما قلت ، ومفتاح هذه المسألة قوله تعالى : (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه يعني ضيق عليه رزقه فيقول ربي أهانن) الآيتان تشيران الى تصور خاطىء من الانسان ، يأتيني المال فأتصور ان هذا رضا وتكريم من الله . ويمنع العطاء فأتصور ان هذا إهانة من الله لي ، الله تبارك وتعالى يقول عقب هاتين الايتين (كلا) يعنى ليس الامر على ما تزعمون ، اذن ما الحقيقة ؟ وما السر ؟

تقرأ آية أخرى في سورة الانبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) وحين نرجع الى الله فالناجح هو من نجح في الاختبار ، والناجح هو من رضى على الله في عطائه ،

والناجح هو من لم يحسد غيره على نوال أعطاه الله إياه .

ولهذا حين كانت أول معصية ناشئة عن الحقد والحسد حذر المولى من هذه المعصية ، وكلكم تعرفون قصة الاخوين قابيل وهابيل ، قبل من أحدهم ولم يتقبل من الآخر ، قال من لم يقبل منه وهو قابيل ، لأقتلنك ، فلفت أخوه نظره اليه فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ، فاتق الله ، يتقبل منك .

حتى أحصل على ما عند غيري إن كان عن طريق مشروع ، أعمل أنا هذا الطريق المشروع ، وان كان عن طريق غير مشروع ؟ فكيف أبتئس بشيء جاء عن طريق غير مشروع والمرء محاسب عليه في دنياه أو في آخرته . فقتل الذي تقبل الله منه ، وفضح الله أمر هذا القتل ، لانه نشأ عن حقد وكره ، فقال سبحانه : (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) فلماذا كانت الاشارة الى بني اسرائيل بينما كان ذلك في أول الأمر ؟ وهاذان إبنا آدم ، قال العلماء لأن الحقد والحسد هما اللذان دفعا ابني آدم الى أن يقتل أحدهما الآخر . ولا يتمثل الحقد والحسد كما تمثل في بني اسرائيل ، ومن هنا ضرب المثل بهم . ثم نهينا أشد النهي عن أن يقتل الواحد منا غيره .

وجاءت توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره) حتى الأحتقار ، مجرد الاحتقار ، ليس للمسلم أن يتخذه أسلوبا مع أخيه المسلم ، لان كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ولهذا ورد عن نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، حديث جامع : (أمران لا يجتمعان في قلب مسلم : الايمان والحسد) لا يجتمعان لان الايمان رضاء عن الله ، والحسد سخط على الله ، لان الانسان يقول لماذا أعطى فلاناً ولم يعطني حتى في الذرية ، في البنين وفي البنات ، في المنصب وفي الجاه ، وفي المال . ليس للمسلم مطلقا أن يقول هذا ، لان نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، حين نصح ابن عمه عبدالله بن عباس قال له : (واعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) يعني ما جاء لك لم يكن لغيرك وجاءك خطأ ، وما جاء لغيرك لمن يكن خطأ يعني على أساس انه قد يكون لك . واقرأوا ان شئتم قوله تعالى : (انا كل شيء خلقناه بقدر) وما تنزيل الماء أو الرزق إلا بقدر معلوم ، اذن هذا الكون

منسق ومنظم ، وهناك المقدر الاعظم ، والواهب الاعظم والرزاق الاعظم وهو الله عز وجل . فينبغي ان تكون قلوبنا راضية عن الله لان الايمان بالله يقتضي ان نكون راضين بقضائه وقدره ، خيره وشره ، حلوه ومره .

فمتى يقي الانسان نفسه من هذا الداء الذي يمكن ان يدفع الى القتل ، والى الصراع على السلطة والى كل شيء ؟ متى ينجي الانسان نفسه من هذا ؟ بمعنى أن تبدأ أولا بالرضاء عن الله والايمان بقضائه ، ثم ينبغي ان تعرف انه مهما كان الواحد منا في مستوى ، فهناك أقل منه ، واحد يقبض ١٠٠ درهم ، أو ١٠٠ دينار ، أو ١٠٠٠ درهم ، أو ١٠٠٠ دينار ، هناك غيره يقبض ٩٠ أو ٩٠٠ أو ٨٠٠ . لو نظرنا الى من هو دوننا في المستوى المادي للمسنا نعمة الله علينا ، وانطلقنا الى شكره وحمده ، فزادنا من نعمه .

وأعظم شيء ان الاسلام لما يخبرنا عن شيء يصل بنا الى نوع من الاستثمار ، لا يقدر عليه بشر ، لان الله تعالى يقول : (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) الحبة تجيب ١٠٠×٧٠٠ أي ٧٠ ألفا . هل هناك مصرف يعطي بهذه الصورة من صور الاستثمار الالهي ؟ أبدا ليس هناك . وأحسن استثمار أيضا نوع من الاستثمار لا يكلفك شيئا .

مر بعض الصحابة بمجلس النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فاذا به ، صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا رجل من أهل الجنة ، وأراد عبدالله بن عمر أن يعرف على أي أساس كان هذا الرجل من أهل الجنة ، فتبعه الى بيته ، وتحايل عليه حتى استضافه مرة ، فلم يجده يزيد عن الناس العاديين شيئا ، وإنما وجده يأتي بعد أن يصلي العشاء في جماعة ، ويكون مع أهله فيتعشى ، ثم ينام، ثم يقوم قبل صلاة الفجر. كان يتصور انه يقوم الليل كله مثلا، ويسأل عبدالله بن عمر الرجل: ما الذي بلغ بك هذه المنزلة ، لقد أعلمنا النبي، صلى الله عليه وسلم، انك من أهل الجنة. قال: ما عندي شيء غير ما رأيت، وانطلق عبدالله بن عمر كئيبا بعض الشيء، لانه لم يحصل على ما يريد، واذا بالرجل يقول له: تعال، عرفت الان ان النبي، صلى الله عليه وسلم، عرف انني لا أبيت على شيء من حقد ومن حسد لعطاء أعطي لاحد، أبات وقلبي مسرور بعطاء الله، لاني انسان لا

أحقد ولا أحسد. فقال عبدالله بن عمر: هذه هي المنزلة، أو هذا المستوى هو الذي وصل بك. ولكننا لم نصل اليه بعد. هذا تواضع من عبدالله بن عمر، لكنه يريكم كيف ان الاستثمار مع الله قد يكون بدون أن ندفع شيئا.

هذا امرؤ يبيت قلبه راضيا عن الله، سعيداً بعطاء الله للناس، لا يمتلىء قلبه، أو ليس في قلبه مثقال ذرة غل أو حقد أو حسد، اترون بعد هذا استثمار؟ هذا يريد الواحد منا الى الجنة، بل هذا يريدنا الى جنة الدنيا، لماذا؟ لان الانسان أحيانا يبقى قلقا متوترا لا ينام، متضايقا مكدرا لماذا؟ لمجرد ان فلانا نجح وهو لم ينجح، وفلانا ربح وهو لم يربح، وفلانا حصل على شيء وهو لم يحصل عليه، وفلانا جاءت له علاوة ولم تأته ، أو فلانا زاد راتبه وهو لم يزد وكل هذا ليس مسلك الايمان في شيء. وكما قلت لكم، وكما ذكرتكم، لا يجتمعان في قلب عبد مسلم: الايمان والحسد، لان الحسد سخط واعتراض، أما الايمان فرضاء وايمان وقناعة وثقة في حكمة الله .

هذه هي الكلمة التي أردت بايجاز أن أحدثكم بها، ويستطيع الواحد منكم أن يحصن نفسه من أن يكون حاسدا، ومن أن يكون محسودا، فأما تحصينه نفسه من أن يكون حاسدا فحين ترى على غيرك نعمة، قل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. والقرآن يعلمنا هذا في نحو قوله تعالى : (ولولا ان دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) لان الانسان منا قد يحسد ماله دون أن يدري، وأنتم تعرفون المثل الذي يقول: لا يحسد المال الا صاحبه، اذن ينبغي أن تذكر اسم الله في كل حين. ادخل بيتك وقل بسم الله، ترى أولادك: صحة وجمال ، وترى ديكور البيت شيئا منسقا منظما مرتبا. ولا تقل ما هذا الجمال، قل : بسم الله . ما شاء الله.ارجع ذلك الى احداث الله له، والى انعام الله به. واذا رأيت صحة على ابنك أو غيره فقل بسم الله، ما شاء الله، لان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (العين حق تدخل الرجل القبر والجمل القدر) العين حق، يعني ما ينشأ عن العين حقيقة ان شاء الله، حتى لا يرتبط بين كل عين وكل أثر ينشأ عن هذه العين ، العين حق، وما ينشأ عنها اذا أراد الله فهو حق، يعني انتم تعرفون قد يكون هناك عيون خاصة لها تطلعات من نفس خبيثة ساخطة على الدنيا وعلى الناس وعلى الله، ومشكلة الحاسد والحاقد انه لا يرضيه شيء، حتى اذا وصل مستوى تطلعه الى مستوى آخر . فمشكلة الحاسد نفسية

قبل ان تكون أي شيء آخر ولهذا فان الحسد كما نبه النبي، صلى الله عليه وسلم، يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب، لانه يغري من الداخل. كل ما تسخط على الله كل ما ينقص من رصيدك في الخير، انما كل ما ترضى عن الله، كل ما يزداد رصيدك وقيمتك عند الله ويعطيك كما أعطى غيرك.

المشكلة اننا نحسد مع ملك الملوك الذي اذا اجتمع أهل الأرض أنسهم وجنهم، وبرهم وفاجرهم، واجتمعوا في صعيد، وان سأل كل واحد مسألته من الله، لم ينقص من ملكه الا كما ينقص الدبوس اذا القي في البحر. ونحن يحسد بعضنا بعضا ، لماذا لا نتجه الى الله؟ الذي وهب، الذي أعطىٰ، والذي يرزق، والذي يُنيل نوالا لا حد له، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ونحن نكتب كلمات الله وعطاء الله، ما نفدت كلمات الله، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ما نفدت كلمات الله وعطاء الله، لماذا ؟ لا تجعل الصلة قائمة بينك وبين الله، وقل يا رب؟ أصلح ما بينك وبين الله، يصلح ما بينك وبين الحياة . أصلح أولا سريرتك مع الله، يصلح لك هذا كله، ويرزقك من حيث لا تحتسب.

لماذا تنظر الى ما في يد الناس وتضيع رصيدك ومكانتك عند الله ، وقد يدعوك هذا الى السرقة ، أو الى القتل ، أو الى العنف في الكلمة أو الى الكذب والى التزوير ، كل هذه الأمور يدفع اليها الحسد. فاذا رأيت على غيرك شيئا مما أعطاه الله، فارجع الى المؤثر الوحيد في العالم، وقل بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا ما علمَنا اياه ربنا ، حين ندخل البيت أو السيارة أو الحديقة (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله) لكان خيرا لك. واذا أردت ان تصون نفسك وتحصن نفسك من الحاسدين فاقرأ (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد اذا حسد) وتصدق بما تستطيع ، لماذا ؟ لان الحسد قد يكون تسليطا من الله عليك بذنب اقترفته، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار. فكلما كنت معقود الصلة بينك وبين الله، تتصدق لله، كلما كنت محصنا أيضا من أن ينالك سوء من الحاسدين.

فلنعد الأمر الى الله، ولنصفّ قلوبنا من أي حقد أو حسد. لأن هذه عملية تبعد بينك

وبين الله، وتضيع كل الرصيد الذي عملته، وهل هذا من العقل أو الحكمة؟ كلا، فالعاقل الحصيف هو الذي يؤمن بقضاء الله وقدره، وما من مستوى الا وهناك أعلى منه، فلو كان الواحد منا شأنه ان يتطلع الى غيره اذن لا أحد سيرضى أو يقنع، ولا يصمد. انما نحن نقول كما علمنا النبي، صلى الله عليه وسلم، اذا كان ولابد ان ننظر الى غيرنا فلننظر الى من هو دوننا في العطاء المادي. ولننظر الى من هو أحسن منا في العلم أو في التقرب الى الله، مما يجعلنا نحاكيه ونصنع صنعه. أما نظرنا الى من هو دوننا في المال والعطاء فسيجعلنا نحس بمدى نعمة الله علينا، وهو أجدر كما نوه النبي، صلى الله عليه وسلم، ألا تزدروا نعم الله عليكم. ومن رضي عن الله، رضي الله عنه، (رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون) وأحسن طاقة تنفذ منها الى الحياة الجميلة في الدنيا والآخرة هو الرضاء عن الله، وهذه مسألة صعبة لكننا يجب أن ننجح فيها. وربنا سبحانه وتعالى يقول: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) لا تظنوا الحياة الطيبة يعني حرام، لا، فهي على أساس من الايمان ومن الرضاء ومن العمل الصالح (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) في الاخرة وفي الدنيا.

لقد كانت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، تقول: (ما تمتع الاشرار بشيء الا تمتع الاخيار به وزادوا عليه تقوى الله ورضوانه) لا تظنوا ان الاسلام عزل عن العمل، ورفض للسعي والانتاج اعملوا كل ما تستطيعون، وابذلوا من الجهود ما تستطيعون، وطوروا مجتمعاتكم وحياتكم، ونموا دخولكم، ثم كونوا مع الله بقلب موصول. نحن مأمورون بأن نكون خير الامم في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي القوة العسكرية، وفي الدخول. وفي كل شيء، لكن على أن يكون هذا بأيدينا لا بقلوبنا، نسيطر على الدنيا ولا تسيطر علينا، فنحن مأمورون بأن نطور مجتمعاتنا ونعيش أحسن حياة، لكن مع تقوى الله ورضوانه، كما قالت أم المؤمنين عائشة (ما تمتع الاشرار بشيء الا تمتع الاخيار به وزادوا عليه تقوى الله ورضوانه).

أسأل الله ان يجعلني واياكم ممن يتقون الله حق تقواه.

المحاضرة الثانية

الشباب العربي وتأثير المخدرات



للأستاذ الدكتور أحمد عكاشة

الدكتور أحمد عكاشة

* أستاذ الطب النفسي ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بجامعة عين شمس .
* مستشار وزير العدل للطب النفسي والشرعي .
* رئيس تحرير المجلة المصرية للطب النفسي .
* خبير ومستشار بهيئة الصحة العالمية في الصحة النفسية .
* عضو اللجنة التنفيذية للجمعية العالمية للطب النفسي .
* رئيس الجمعية المصرية الفرنسية للطب النفسي .
* حصل على الدكتوراة الفخرية أو الزمالة من كل من :
كلية الاطباء الباطنية الملكية بأدنبره .
كلية الاطباء النفسية الملكية بلندن .
الجمعية الفرنسية للطب النفسي .
الجمعية الامريكية للطب النفسي .
* حضر عددا من المؤتمرات الطبية من أهمها :
- رئاسة مؤتمر القلق العالمي بالقاهرة ١٩٨٣ .
- رئاسة مؤتمر العقاقير النفسية بالقاهرة عام ١٩٨٥ .
- رئاسة المؤتمر الدولي لقانون الطب النفسي في القاهرة ١٩٨٦ .
- مؤتمر الكونجرس العالمي للطب النفسي في مدريد ١٩٦٦ .
- مؤتمر الطب النفسي البيولوجي في فيلادلفيا .
- كما حضر العديد من الندوات الخاصة بالطب النفسي في كل من أسبانيا والمكسيك وفيينا والولايات المتحدة الأمريكية .
* له العديد من المؤلفات أهمها باللغة العربية والانجليزية
- الادمـــان
- يوناردو دافنشي من الجانب الفني والجانب النفسي .
- العقاقير النفسية .
- الطب النفسي المعاصر .
- المرشد الى الصحة النفسية .
- أساسيات في الصحة النفسية.

الشباب العربي وتأثير المخدرات

إن ظاهرة المخدرات هي ظاهرة سياسية واجتماعية، نفسية وطبية، وبالتالي يجب أن نتكلم عن هذه الظواهر ، حتى يتسنى لنا ايجاد الحل المناسب .

ان الشباب مرحلة هامة للنضوج الاجتماعي للفرد ، وكذلك للمستقبل الاقتصادي والصناعي لاي أمة . لقد وضع الشباب في السنوات الاخيرة في حالة وحدة وعزلة ودون ارشاد أو أمن في هذا العالم المعاصر ، وبالتالي فحياتهم في ضياع ، والكثير منهم يعاني من أزمة الهوية ، مما يقلل من انجازاتهم ، ويجعلهم في حالة من اليأس والاغتراب ، فالكثير محرومون من التوجيه والنظام ومن الحب ، وبالتالي فإن الهروب الى المخدرات له جاذبيته الاجتماعية ، لانه ممنوع. فالفرد المدمن يعبر عن ثورته على السلطة، ورغبته في الاستقلال الاجتماعي، لانه يجد في ذلك مجالا للتنفيس عن كثير من رغباته ، ولكن بطريقة غير صحية .

تتأثر حضارة وثقافة الشباب الى حد كبير بأجهزة الاعلام المختلفة، سواء بالتليفزيون أو الاذاعة أو الصحافة، خاصة وان كل القيود قد حطمت بين الدول، وأصبح الشباب في جميع انحاء العالم ينتمون، الى حد ما، الى أفكار متشابهة. ولا تستطيع ان تغفل انه في القرن التاسع عشر كان الشباب من النضوج والمسئولية الاجتماعية والمادية في سن أصغر بكثير مما هو واضح في القرن العشرين. فالكثير من الشباب يستمرون في الاعتماد الاقتصادي والاجتماعي والنفسي على أسرهم إلى أواخر العشرين، بينما في القرن التاسع عشر كان الشباب من النضوج بحيث كان البعض يستقل الاستقلال التام، ويقود حروبا، ويتزعم شعوبا في هذا السن الصغير.

يقال ان عالمنا المعاصر هو عصر القلق والاكتئاب والقلق، وهي أمراض ثانوية لصراعات نفسية، واحباطات اجتماعية، وتوقعات مستقبلية لا يمكن الحصول عليها. واذا أوردنا بعض البحوث في مدى انتشار ظاهرتي القلق والاكتئاب، وجدنا في عالمنا العربي مثلا ما لا يقل عن خمسة ملايين مكتئب، نسبة حصتها هيئه الصحة العالمية. أي أن ٥٪

من مجموع الشعب يعاني من مرض الاكتئاب، واذا كان واحد في المائة يعاني من مرض الفصام فان عندنا في العالم العربي مليون فصام. كذلك يقال ان حوالي ١٠ الى ١٥٪ من مجموع أي مجتمع يعانون في فترة من فترات حياتهم من القلق النفسي، وهذا يعني ان منهم ١٥ الى ٢٠ مليون عربي. ناهيك عن الأمراض الأخرى من الأمراض الوسواسية والتحولية والأمراض العضوية النفسية الجسمية، والاضطرابات الشخصية، وما يلحقها من الالتجاء الى المخدرات أو السلوك غير الاجتماعي.

دائما ننتقد العالم الغربي في شبابه، بأنه يتميز بثلاث ظواهر : الأولى السلوك العدواني، والثانية سوء استعمال المخدرات، والثالثة الاباحية الجنسية. والحق انه في عالمنا العربي نواجه بصورة أكثر، الظاهرة الأولى والثانية، أعني بذلك الميول العدوانية، وسوء استعمال المواد أو المخدرات.

وقبل الاسترسال في شرح مشكلة المخدرات، والتأثير النفسي والجسدي والعقلي، أود أن ألخص الصراعات التي يمر بها الشباب العربي في عالمنا المعاصر. ونبدأ بمشكلة قد نسميها تحرير المرأة، لان ذلك يعكس أنواعا كثيرة من الصراعات بين الشاب والشابة . تمكنت المرأة في معظم البلاد العربية من أخذ بعض الحقوق المواكبة لحقوق الرجل، مثل التعليم والعمل، وفي بعض البلاد حقوق الانتخاب. ومن ثم تغيرت بعض الشيء، العلاقة بين الرجل والمرأة، لقد حصلت المرأة في بعض البلاد النامية والعربية على حقيقة التحرير، ولكن للاسف، لم يتحرر عقل الرجل، فهو يتوقع الا يخل ذلك بمسؤولياتها الأخرى، فهي يجب ان تستمر في عملها كربة منزل، وكمدرسة للاطفال، وكطاهية للاسرة، وكخادمة للمنزل ، وكمضيفة للضيوف، مع الطاعة العمياء لتعليمات الزوج، وبالاضافة الى ذلك فلا مانع أن تعمل . لقد خلق ذلك موقفا أليما بالنسبة للانثى، لقد أصبحت محبطة ومشوشة الفكر، مطالبة ان تعمل في عدة مجالات، ولكن الرجل مازال هو المسيطر، ليس بذكائه أو بقوة جسده أو بتفوقه عليها، ولكن بأنه ذكر.

لقد أنتج ذلك نوعا من الثورة الداخلية ضد هذه التقاليد في بعض الشخصيات التي تميل الى السيطرة، وبدأوا في تشيين الحركات الانثوية، مما أثر على العلاقات الزوجية، والعلاقة الموجودة بين الشاب والشابة العربية. وهؤلاء الاناث المستأنسات، واللاتي لا يستطعن الاحتجاج قد بدأن المعاناة من صراعات نفسية شديدة، لعدم قدرتهن على حلها.

وقد تحولت الى أعراض جسدية، وتلاحظ ذلك في شابات كثيرات يعانين من صداع، دوار، دوخة، آلام في الجسد، صعوبة في التركيز، فقد الشهية، والأرق أحيانا، ورفض الزواج، ولذا نجد الشابة في حالة من الصراع الشديد، بين الخضوع للتقاليد، والاستسلام لتفوق الذكر، والمعارضة والرغبة في التحرك، طبعا ذلك يؤثر تماما على الصحة النفسية للشباب والشابات.

يحتمل انه لا يوجد مشكلة مخدرات بين الشابات، أو بين الفتيات العربيات، ولكن هذا غير صحيح. بدأنا في السنة الاخيرة نرى اناثاً في سن الشباب، ومتعلمات وجامعيات، ويلجان الى المخدرات بكافة أنواعها، لاننا كما سنذكر في باقي الكلمة، نعني بالمخدرات اشياء كثيرة غير الافيون أو الهيروين، أشياء مثل الصراع بين التقليد والتكيف مع الثقافة الغربية، انه صراع شديد جدا، في شباب عالمنا المعاصر يجد الشاب نفسه أمام أنماط مختلفة من السلوك، تبث عليه من خلال أجهزة الاعلام المختلفة، وخاصة التليفزيون، وهنا يكون الصراع بين التوحد مع هذه الانماط، والامتثال لتقاليد الاسرة المحافظة، ونظرا للمجتمع الابوي، وللمحرمات الدينية، يجد نفسه أمام عمل صعب، عليه أن يشق طريقه بالتكيف والتأقلم بين هذه المثيرات والمنبهات المختلفة. وبالطبع تثير هذه المنبهات التحدي في قدرته على التكيف، مما يجعله في حالة من الشد والاجهاد والقلق.

ثاني شيء التوقعات المحددة للشباب في هذه الايام، فمعظم الشباب في البلاد العربية ينهون التعليم الثانوي أو الجامعي حتى يحصلوا على وظيفة حكومية، وفي كثير من البلاد العربية، أو بعضها، يشجع القطاع العام على القطاع الخاص، وبالتالي يجد الشباب انه على الرغم من قدراته الكبيرة، فتطلعاته محدودة، ولا يستطيع ان يبدع، أو يخلق من قدراته ما يتطلع اليه في المستقبل، مما يجعله في حالة مستمرة من الاحباط والقلق والعدوان، وبعضهم يلجأ الى الهجرة من البلاد النامية للبلاد المتقدمة، التي تشجع نزيف المخ المستمر، بجلب المتعلمين من البلاد النامية اليها.

ورابع ظاهرة في صراعات الشباب، وسائل التعبير عن الميول العدوانية، ان القنوات التي تستطيع ان تمتص العدوان الموجود في كل شاب تختلف، ولكن، يمكن ان نلخصها في أن الميول العدوانية تجد الاحلال في الدين، والثقافة، والعقائد السياسية والرياضية، وأحيانا في الانضمام الى جمعيات ذات أقلية تطرفية، وأحيانا في مسائل عاطفية، وان لم

تجد هذه القنوات، فالانتماء الى سلوك ضد اجتماعي من المخدرات.

ويختلف الوضع في البلاد العربية، فالشاب في خلال مسيرته في الحصول على الصورة الذاتية، يثور في سن معين على التقاليد الاجتماعية، وضد المحرمات الدينية، وضد الاسرة الابوية. ويبدأ في التوحد بعض الشيء مع ما يراه في أجهزة الاعلام من الثقافة الغربية. وبالرغم من ان الشاب يحاول ان يتوحد مع الثقافة العربية، الا انه يجد ان القنوات التي تستطيع ان تمتص ميوله العدوانية في بلادنا، مغلقة تماما أمامه، وهنا يحاول العثور على الاحساس بالانتماء، ولا يجد الا الاقليات المتطرفة، أو قرناء السوء، أو الانضمام الى عمليات العنف والتخريب والابتزاز. واعتقد ان الحماس الشديد في البلاد العربية، ولو انه موجود في بلاد متقدمة، لكرة القدم ما هو الا احدى القنوات للتعبير عن احساس الفرد بأنه ينتمي الى شيء ما، انه بهذا الانتماء يعبر عن ميوله العدوانية، التي تظهر أحيانا في المشاجرات وأحداث الشغب والعنف، التي تحدث في مباريات كرة القدم بين مواطنين في نفس البلد ودرجة الحماس ودرجة العنف تتواجد مع قلة الحرية السياسية. وكذلك الحياة الجنسية في البلاد العربية، تضيف بعض الشيء الى الصراعات النفسية. وبالطبع فان مجتمعنا الديني يمنع العلاقات الجنسية قبل الزواج، ولا يشجع الاختلاط بالجنس الآخر، وينكر على الشاب استعمال العادة السرية الجنسية، وكذلك الجنسية المثلية المحرمة دينيا، علاوة على أن الزواج أصبح متأخرا حتى أواخر العشرينات، أو أواخر الثلاثينات، لاسباب اجتماعية واقتصادية، فالبيت الكبير حيث كان يتزوج الابن والحفيد، اصبح غير وارد الآن الا في أسر قليلة، وأزمة السكن موجودة في بلاد عربية كثيرة، وفي مصر نسمع الكثير عن بعض الشباب فسخوا الخطوبة لعدم وجود سكن، كذلك المهر اصبح الآن في غير متناول الكثير من الشباب، مما يؤخر زواجهم، ويزيد من احباطهم، ويكثر من كبتهم.

الشباب دائما في حماس في محاولاتهم لتغيير المجتمع، لتنظيم التقاليد، للثورة ضد الفساد، محاولة للمثول للمثل العليا، فهو في صراع مستمر بين قيمه الاخلاقية، وتقاليده الدينية. مع التوحد احيانا مع اسلوب الحياة الراقي، وهذا بالطبع احد المشاكل الرديئة الموجودة.

الجديد في ظاهرة الشباب والمخدرات، انه منذ السبعينات بدأت تنتشر هذه الظاهرة

بين الشباب بين سن ١٥ الى ٢٥، بعد ان كانت هذه الظاهرة تنتشر اكثر في سن النضوج ،أو متوسط العمر، وقد لوحظ ان الكثير من هؤلاء الشباب الذين يدمنون المخدرات يشعرون بالنبذ من أبويهم، وهم كذلك ينبذون أباءهم، كما لوحظ انهم في حالة من حالات الضياع، بالنسبة الى ماذا يريدون من الحياة. هؤلاء الشباب ينقصهم الانتماء الى أي عقيدة، أو لأي انتماء أسري، أو لأي توقعات مستقبلية، وهم غير قادرين على تحمل الاحباط أو اقامة علاقة قوية مستمرة دافئة مع أي احد فعدم الثقة في النفس، وعدم القدرة على الاستقلال، تدفع الشاب احيانا للمخدرات. وفي احد الابحاث التي قمنا بها بين طلبة جامعة عين شمس، وعددهم حوالي ٧٢ ألف طالب، أخذنا فئة منتقاة من كل الكليات، وسألنا سؤالاً واحداً هل سبق ان جربت؟ هم ليسوا مدمنين، سبق ان جربت احد هذه المواد وذكرنا عدة أشياء منها التدخين ، الحشيش ، الخمر ، الأفيون الهيروين، المنومات، المسكنات، المنبهات. وكانت النتيجة غريبة : جرب مرة واحدة بين الناجحين في الجامعة ٣٤٪ قد جربوا مرة واحدة هذه المواد وبين الراسبين ٤٢٪. وقد وجد ان نسبة استعمال الحشيش كانت اكثر بين الراسبين. أما في الناجحين فقد كان استعمال العقاقير المنشطة أكثر منه في الراسبين، وكذلك وجد ان طلبة الكليات النظرية تستعمل العقاقير اكثر من الكليات العملية مثل الطب والهندسة. وفي احد الابحاث الاخرى بين طلبة المدارس الثانوية، كان العدد ٥٥٣٠ طالباً أقل من ١٨ سنة، طرح نفس السؤال : هل سبق ان جربتم هذا ليس بادمان ١٨٪ كانوا يدخنون السجائر، ٥٪ جربوا المطمئنات ٥٪ منبهات، ٤٪ منومات، ١٠٪ بعض المخدرات مثل الحشيش والافيون، وفي نفس النسبة في المدارس الثانوية، العينة كانوا ٣٦٨٦ طالبا، ووجد ان ٢٤٪ منهم يدخنون، ٥٪ مطمئنات، ٦٪ منبهات، ١١٪ مخدرات، ٩٠٪ من ١١٪ كان حشيش والباقي من المخدرات الأخرى.

نستطيع ان نلخص عشر ظواهر يمكن تحسينها أو تجنبها لكي تمنع مسألة التعود على المخدرات ان شاء الله. أولها البعد والجفاء في العلاقات الاسرية، الذي نسميه الطلاق العاطفي، يعني هم متزوجون بورقة، ومتزوجون أمام الله، ولكن عاطفيا في طلاق هم متعايشون مع بعض، ولكن غير متزوجين. وهذا الوضع الذي يتزعزع فيه الجو الأسري الذي يمكن أن يحصل فيه الادمان ـ الاجهاد النفسي، مرض القلق والاكتئاب،

عرضة للشعور بالنقص من قيمة الذات، قلة الانجاز والحوافز، وعدم النجاح الدراسي، عدم احترام النظام والقوانين، قلة الايمان والتدين، البحث المستمر عن اللذة، سوء استعمال المواد من المخدرات، قهوة ، شاي ، منومات ، مطمئنات ، حشيش بين الأسر، كثرة استعمال المواد بينهم، الاستعمال المبكر للتدخين والكحول . عشر ظواهر موجودة في الغالبية عندما درسنا دراسة استرجاعية لكل الناس المدمنين .

أريد أن أحكي قصة بسيطة جدا في مسألة المخدرات، كانت هناك شركة اسمها شركة الهند الشرقية، وهي شركة بريطانية، وكانت حاصلة على حق احتكار انتاج الافيون في الهند، واتفقت هذه الشركة مع الشركات الاخرى على شراء المحصول وتصديره الى الصين، وبدأت العملية بتصدير ٢٠٠ صندوق من الافيون عام ١٧٢٩، وارتفع هذا الرقم الى ٢٥ الف صندوق من الأفيون عام ١٧٣٠، وارتفع هذا الرقم . قصة قديمة توضح استغلال الاستعمار لسلاح مدمر هو الافيون في البلاد، وبالتالي واجه امبراطور الصين هذا الموقف، وأرسل قواته الى مقاطعة اسمها كانتون للوقوف أمام دخول الافيون لبلاده، وحاكم تجار الافيون على تجارتهم المدمرة، وأحرق كميات هائلة من الافيون. وبدأت الضغوط البريطانية، وانتهى الموقف باطلاق سراح التجار، ولكن قامت مشادة بين التجار الانجليز وبعض الاهالي في الصين، فانتهزت الحكومة البريطانية الفرصة وبعثت عشرة آلاف جندي، واستولت على جزء من الصين، واخذت ستة ملايين دولار تعويضاً عن حرق الافيون. وسنة ١٨٥٠ كان تصدير الافيون الى الصين قد أعطى أرباحاً هائلة لبريطانيا، مع اذلال واستعمار لاجزاء من الصين. وفي هذا الوقت بدأت الأصوات الشريفة في البرلمان البريطاني معركة، كما قالوا، تقوم على أسس اخلاقية، ضد معركة غير شريفة، سلاحها الافيون، وتزايد هذا التيار الى أن انتصر، وتقرر في عام ١٩١٣ منع تصدير الافيون الى الصين.

أنا قلت هذه القصة لأبرهن على أن وراء استخدام الافيون أهدافا واطماعا معروفة، وهي اذلال الشعب الذي يدمن المخدرات أو الأفيون، بحيث يسهل استغلاله، وهذا يجعلنا حريصين على التفكير في الايدي التي تحرك تجارة الافيون، والاهداف المدمرة التي تهدد كيان الشعب العربي، ولكن هل يكفي ان نطالب بسياج حديدي حول البلاد لمنع دخول الافيون والمخدرات الاخرى؟ أن هذا الطلب لا يمكن ان يؤدي الى نتيجة

مؤكدة، فالمعروف ان مافيا المخدرات أقوى من حكومات عديدة، انهم يمتلكون المطارات الخاصة، والسفن والطائرات، ويقال ان بعضهم يستخدم حوالي ٢ مليار دولار كل عام في تجارة المخدرات. كما يقال ان اكثر شيء مربح هو تجارة الاسلحة تليها تجارة المخدرات. وفي العالم المعاصر نستطيع ان نعرف حجم الخطر القادم وقوته اذا عرفنا ان مجموع ما تضبطه قوات الشرطة في بلاد مثل الولايات المتحدة وأوروبا هو حوالي ٥ الى ١٠٪ فقط، أي أن ٩٠٪ من الكميات تهرب وتمر ، مهما كان السياج الحديدي الموجود في البلد. فهل معنى ذلك ان معركة الافيون معركة خاسرة بالنسبة للمواطنين؟ وهل من المؤكد ان تجارة الافيون هي المنتصرة دائما؟ الرد لا ؟ من الممكن ان ينهزم تجار الافيون بكل ملايينهم أمام خط الدفاع عن البيت ، والأسرة . قوات البوليس تقوم، مشكورة، بدورها، ولكنها مهما فعلت، لن تنجح والبيت قلعة مفتوحة، يعيش أبناؤها بلا رعاية ولا رقابة. وهنا تظهر أهمية أجهزة الاعلام، انها يجب ان تتولى توعية الأهل بأهمية رعاية الابناء، انها يجب ان تحذر الاب الذي ينصرف الى جمع المال ناسيا رسالته كأب عليه ان يحيط أولاده بالرعاية والحنان. على أجهزة الاعلام ان تنبه الاب الى انه قدوة، يقلده، أولاده، وعلى هذا يجب ان يكون قدوة حسنة. ان الانسان ينجز مسؤولية كبيرة جدا اذا كان يريد ان يكون أبناؤه في صحة نفسية وجسدية سوية.

ان الاسلام والمسيحية يعتبران تعاطي المخدرات حراماً، فالاعتقاد الخاطىء بأن الخمر وحدها حرام، اما المخدرات فهي حلال، يتناسى اصحاب هذا الرأي الحديث الشريف الذي يقول : (كل مسكر خمر وكل خمر حرام). والمخدرات تسكر، والسكر هو حالة فقدان وظيفة أو أكثر من وظائف المخ. وينعكس ذلك على قدرات الانسان النفسية والجسدية ، وتظهر في سلوكه، حيث تختل قدراته، ويتدنى مستواها عند تعاطي هذه المخدرات، أو كما نقول أن المخدرات والخمر تذيب الضمير، فيصبح الانسان غير اخلاقي ويمكن ان يسلك أي سلوك ضد اجتماعي، لا يوجد أي تثبيط، أي احباط في سلوكه، في هذه الحالة يجب ان تحيط الشباب بالامل، فليس من المعقول ان تخرج الصحف والاذاعة والتليفزيون لتصور له الحياة كأنها غابة مليئة بالقتل، عنف، سرقة، اختلاس، اغتصاب، ادمان. إن هذا الواقع المظلم يدفع الشباب للهروب من المجتمع، وعندما يهرب الشباب لا يجد امامه الا التطرف الديني أو السياسي أو الادمان، أو سلوكا غير اجتماعي

ويجب ان نفرق بين ادمان وتعود، فكلنا متعودون على أشياء كثيرة، والتعود معناه ان الانسان لا يزيد الجرعة، ولكنه يحتمل ان يأخذها بدون نصيحة الطبيب، انسان يأخذ قرصا منوما له ٢٠ سنة، أو قرصا مهدئا له ١٠ سنين، يشرب ثلاث فناجين قهوة في اليوم، يشرب عشرين سيجارة في اليوم، يشرب سيجارتي حشيش في اليوم، اذا فرض على فرض انه لم يزد الجرعة، ويستطيع ان يوقفها في أي وقت، دون اعراض جسدية . هذا هو المتعود.

اما المدمن فعنده رغبة ملحة قوية قهرية، في أن يأخذ المادة ويزيد ، فالذي كان يأخذ سيجارتين في خلال ستة شهور يأخذ علبتين، والذي كان يشرب ربع زجاجة، يشرب بعد سنة زجاجة. وعند توقفه عن أخذ هذه المادة يصاب بأعراض نفسية وجسدية كثيرة جدا آلام جسدية مبرحة ، هبوط في ضغط الدم، زيادة في ضربات القلب، اسهال شديد جدا، آلام شديدة جدا، بحيث انه لا يوجد أمل، فيرجع مرة أخرى للعادة، وهذا سبب الانتكاسة التي تحدث للمدمنين على بعض المواد التي تعمل ادماناً نفسياً، وبعض المواد تعمل ادمانا جسديا مثل الخمر الهيروين والافيون النقي، مثل الكوكايين، والاقراص المنشطة، والاقراص المهدئة، الى حد ما، ولكن يختلف طبعا، فكلما كان التأثير نفسياً وجسدياً كلما كان أقوى جدا ويصيب بآلام شديدة.

هيئة الصحة العالمية قسمت كل المواد التي يمكن ان تصيبنا بالتعود الى ثماني مواد: الادمان الكحولي وهذا معروف ويدخل فيه الخمر والمنومات مثل الفاليوم ومثل الكلورال، كل هذه الادوية، تسبب ادماناً اذا كانت من غير نصيحة الطبيب. ادمان المنشطات يسمونه الادمان الانفيتمامين لان فيه عقاراً اسمه الانفيتامين .. هذا ينبه الانسان ، وبالطبع يستعمل احيانا للسيدات اللواتي فيهن بدانة لكي يفقدهن الشهية، فيأخذن هذه الحبوب، واحيانا بعض الطلبة لكي يسهروا ويذاكروا، يمكن أن يأخذوا هذه الحبوب الادمان القنابي أي ادمان منتجات نبات القنب الذي هو الحشيش أو المارجوانا، ثم ادمان الكوكائين الذي كما سنقول بعد هذا أنه يعمل بنسبة ليست مثل الافيون والهيروين الذي يعمل على التنشيط وأيضا ادمان هلوسي، عقاقير الهلوسة ، الادمان التالي الذي يحزن هو نبات القات كما هو موجود في اليمن. والادمان الافيوني والذي يدخل فيه الافيون ، برتيتين ، هيروين ، كودائين سوجيدين ألدفان ، جولكسين أشياء كثيرة جدا

موجودة، وللأسف فان الشركة تكتب عليها غير قابل للادمان. يعني عقاقير مثل اللجموين تستعمل للآلام الجسدية، يوجد مدمنون كثيرون بها لانه مكتوب عليها غير قابل للادمان، وهذا غير صحيح بل الشركة تريد ان تمول أو تسوق الشيء الذي تنتجه. ثم ادمان المذيبات المتطايرة وهذا شيء غريب جدا موجود الان، ليس منتشرا الا في شبابنا العربي، الذي هو ادمان وقوف الشباب في محطات البنزين يشمون البخار الذي يتطاير من البنزين. الذي هو الاسيتون للسيدات ، الشباب يشمون الاسيتون التربنتينا التي نمسح بها الأرض، ويشمون البخار. عندي مريض الآن كان يحضر (الاسبري) الذي ينظفون به الاحذية، ويضع كل ثلاثة سبري في منديل ويشمه حتى يصبح في حالة من السكر. وعندما تقول هذا للغرب يستغربون لماذا اسبري الاحذية؟ وهناك أيضا بعض الزملاء في بعض البلاد العربية يقولون ان النمل الكبير يحرقونه ويشمون رائحة النمل .. النمله بها حامض النمليك، وحامض النمليك البخار، يستعمل في نوع من أنواع التخدير، يعني الذي لا يجد الاشياء الغالية يمكن النمل يرخص له العملية. في هذه الموضوعات الحقيقة ان في مخ كل انسان فينا مصنع افيون، المخ الانساني الذي خلقه ربنا خلق لنا أفيونات، فحسب الخلية العصبية في المخ تفرز أفيون . الذي خُلِقَ بافيون كثير سيتحمل الآلام النفسية والجسدية، والواحد المتوسط سيتألم أحيانا ويتكيف أحيانا، والانسان الذي خلق بكميات أفيون قليلة هو باستمرار في حالة نهم، انه يأخذ أي شيء يخفف من الآلام النفسية والجسدية .. مخ الانسان يفرز مطمئنات وأفيون، فما الذي يحصل اذا أخذ انسان الأفيون. انه يعطب ويبطل الافيون المخي الالهي، فلما يبطل الافيون وليس عنده أي أفيونات داخلية، تظهر كل الاعراض والالام النفسية والجسدية، فهل يمكن أن نخترع دواء لا يكسر الافيونات المخية التي داخل مخنا؟ ويجعل الانسان باستمرار في حالة من التساوي النفسي؟ ياريت . لم يخترع الى الان هذا العقار، وسيبقى شيئا داخليا لنا، نحن محتاجون الى أي شيء، الخمرة تحتاج لاستعمال مستمر لمدة سنوات حتى يدمن الانسان، الاقراص المنومة تحتاج حوالي شهر، ولكي يصبح الواحد مدمنا للهيروين يحتاج الى اسبوع واحد أو عشرة أيام. والانسان يبقى مدمن الحقن في الوريد أسرع والفم أقل ، والاستنشاق مدته بين الوريد والفم. والمجتمع الغربي مثلا بنظر الى تعاطي الخمور نظرة عادية، وهكذا مثلا زاد عدد مدمني الخمور والتدخين المقبول اجتماعيا الى

حد كبير، والحشيش مقبول الى حد ما في مجتمعات، ومرفوض في مجتمعات أخرى، فنظرة المجتمع للادمان تجعل انتشاره أسرع. لا شك ان معظم المجتمعات تدين الافيون والهيروين والكوكائين، وبالتالي نظرة المجتمع تؤثر على مدى انتشار هذه المواد.

هل الادمان وراثي؟ هل الواحد يورث لابنه الادمان؟ اذا كان هو مدمن؟ أم أن عامل البيئة انه يقلد أباه ؟.. الأبحاث تقول ان التوائم المتشابهة التي هي بويضة، وحيوان منوي واحد. أي أن العامل الوراثي ١٠٠٪ يمكن أن يولد أحدهما مدمنا والثاني لا، مما يدل على ان العامل الوراثي تأثيره ليس قويا مثل العامل البيئي . ولكن اذا أخذت طفلا لابٍ مدمن، وتبناه اب غير مدمن، فاحتمال ان الابن البيلوجي يدمن أكثر من الابن الحقيقي الذي تبناه، مما يدل على ان الوراثة لها أثر ، ولكن البيئة أثرها أقوى، نلاحظ ان شخصية المدمنين أول شيء فيها عدم النضج العاطفي، وليس لهذا علاقة باسن ، وانما هو انسان متقلب هوائي متغير ، مثل الحبوب الفواره، يعني يفور بسرعة جدا، وسرعان ما يهدأ ، ولا يستطيع ان يقيم علاقة قوية وطيدة دافئة ثابتة مستمرة لمدة طويلة، لا تستطيع ان تفعلها الشخصية النرجسية الانسانية الذاتية، التي تريد ان تحقق كل شيء فورا ، وتتبع مذهب اللذة وليس مذهب الواقع، وطبعا هذا يأتي باكتساب الاسرة كيف تربي أولادها ، والشخصية المريضة جنسيا، هناك الانسان المصاب بضعف جنسي، أو الذي يخجل من الجنس الآخر، أو الذي يكون شاذا جنسيا، وهناك تفسير لاجتماع الذكور في جلسة واحدة لتعاطي الخمر أو الافيون أو الهيروين، هذا التفسير يقول ان عند هؤلاء ميولا كامنة غير واضحة للشذوذ الجنسي، ولأنهم يرفضون فكرة ممارسة الشذوذ، فانهم يجدون الافكار الشاذة بالخمر أو المواد المخدرة. ثم النظرية الرابعة يتمتعون بعقاب الذات، وفيهم نوع من الماسوكية، ويتلذذون من الايلام، وايلام الذين حولهم، وتبقى موجودة في كثير من أنظمة شخصيتهم. ونستطيع التلخيص فنقول : ان شخصية المدمن فيها السمات التالية : اللذة عن طريق الألم ، عدم النضج الانفعالي ، عدم النضج الجنسي، الشذوذ الجنسي الكامن، الميل الى تدمير الذات، وجود ميول عدوانية، والاصابة بالقلق والاكتئاب، واذا قلنا هل واحد فينا ممكن ان يدمن ، نعم يمكن للشخصية الناجحة السوية إذا أصيبت بصدمة انفعالية عاطفية أو مادية وفي حالة وفاة عزيز ، أو فقد شيء معين ، أو فقد كرامته ، أو اذا فصل من العمل فنصحه أحد

أصدقائه بأخذ حبة أو بأخذ سيجارة، أو بأخذ كأس، وهو عنده القابلية، وأفيون المخ قليل من الاول، هنا يمكن له ان يدمن خلال شهر أو شهرين، وهذا علاجه دائما يأتي بنتائج ناجحة، لانه اصلا شخصية سوية، ولكن ظروفا نفسية واجتماعية واقتصادية اصابته هكذا .

كذلك الشخصية التي نسميها أو المريض الذي يعاني من الاكتئاب، فمرض الاكتئاب منتشر ولا يأتي لوحده، والمكتئب تقل رغبته بالاستمرار، وتركيزه يقل، ويصاب بأرق، ويفقد الشهية للأكل، ويفقد القدرة الجنسية، اعراض جسدية كثيرة جدا بحيث يتمنى الموت عن الحياة . ويقول أنا ربنا اعطاني كل شيء فما الذي يحصل لي؟ ويبحث في الماضي لكي يجد سببا.

هؤلاء المرضى قد يدمنون، وعلاجهم علاج الاكتئاب، والنتائج ناجحة ومشجعة.

النوع الثالث مرض الفصام: يحس المريض انه باستمرار تحت مؤامرات لاضطهاده ومراقبته، وكأن اجهزة المخابرات الامريكية، والقمر الصناعي، يسلط عليه اشعاعات للتأثير على أفكاره، وسحبها واذاعتها في التلفزيون والراديو، ويعيش في حالة خوف ورعب شديد جدا، فيلجأ للادمان في سبيل ان يخفف من وطأتها. وعلاج انفصام الشخصية من علاج الادمان .

النوع الرابع هو الشخصية السيكوكاترية أو الشخصية ضد اجتماعية شخصية لا تتحمل المسؤولية، ولكن عنده نوع من الجاذبية الجماهيرية الشديدة جدا. ولكنه انسان لا يتعلم من التجربة، وليس عنده أي نوع من أنواع الضمير، اذ يمكن ان يقدم على أية جريمة منذ صغره، نصب، احتيال، كذب، تزويغ من المدرسة، الى جانب نجاح وقتي في بعض الأمور . وأحد السمات لهذه الشخصية الادمان.

وهنا العلاج يكون فاشلا في أشياء كثيرة، لان هذا جزء من نمط الشخصية. وعادة هؤلاء يعاقبون حسب القانون . فمرضى الاضطرابات الشخصية السيكوكاترية يحاسبهم القانون على أنهم طبيعيون . عندنا المرض النفسي يخفف العقوبة، والمرض العقلي يلغي العقوبة، أما الاضطرابات الشخصية فهي متروكة للقاضي، وأصحابها عادة ما ينتهون الى السجون .

في الحقيقة ان ٤٠٪ من أسرة المستشفيات في أوروبا لأناس أو مرضى عندهم

مضاعفات جسدية من الخمر، وهذا نفسه في المستشفيات العامة الشبيهة في فرنسا وايطاليا وبريطانيا. وهذا يرينا ان الموضوع خطر جدا فالخمر يعمل ضموراً في المخ ويسبب أعراضاً جسدية وعقلية، ويسبب أزمات كثيرة. وهناك بعض الناس أو بعض المرضى عندما أسألهم : هل تشرب الخمر؟ يقول : لا بيرة فقط . وكأن البيرة ليست خمراً لا أدري من أين جاءت هذه الفكرة. هل لانه توجد بيرة بدون كحول؟ ولكن فلتعرفوا ان الويسكي فيه حوالي ٤٥ الى ٥٥٪ كحول، والعرق فيه ٤٥٪ الى ٥٥٪ كحول، والنبيذ فيه ١٠ الى ١٨٪ والبيرة من ٤ الى ٨٪ . ولكن الذي يشرب بيرة، يشرب زجاجتين، والذي يشرب ويسكي يشرب كأسين، واذا حسبنا كمية الكحول وجدناها متماثلة .

في أوروبا وجد ان ٧٠٪ من حوادث قيادة السيارات تكون تحت تأثير المسكرات، كذلك وجد ان عدد الجرائم التي ترتكب أثناء شرب الخمر أو المخدرات لا يقل عن ٦٠٪ سواء اغتصاب أو جريمة قتل، ناهيك عن الأشياء الأخرى التي يمكن أن تحصل أيضا من شرب الخمر. ويكفي أن أقول لكم انها يمكن ان تسبب التهابا في المعدة، قرحة معدة، قرحة اثنى عشر، تليفا في الكبد، تلفا في عضلة القلب، ضمورا في المخ، التهابا في اطراف الاعصاب، رعشة في اليدين، ضعفا جنسيا، سلاً رئويا، أمراض العضلات، أمراض الدم، نقص السكر، العمى الكحولي. كما أن جنين الزوجة المدمنة على الكحول يولد بالتخلف العقلي. هذا جميعه يجعل الانسان يفكر كثيرا قبل تناول الخمرة .

الحشيش طبعا يزرع في الهند وتركيا وغرب آسيا وايران وجنوب أفريقيا والمكسيك، ويحتاج لجو بارد مشبع بالماء، المشكلة في الحشيش انه يعطي في البداية نشوة مصحوبة ببعض الضحك، وتزداد حدة الابصار والادراك وتذوق الاشياء المختلفة، وتختل احجام الشكل والرؤية، ويمر الزمن ببطء، وتبدو المسافات في غير طولها. ويعتبر الحشيش عقار هلوسة، والانسان الذي يجرب حشيش أول مرة قد يحدث له اضطراب نفسي، وعندما تزيد الكمية تحصل مضاعفات. وثبت ان استعمال الحشيش يسبب بعض الاضطرابات في وظائف المخ، وضموراً في الخصية، ونقصا في نسبة هرمون الذكورة، وهذا يدل على أن استعماله كعامل جنسي غير صحيح. فالمتعاطي يحس انه قوي جنسيا، أو أن المدة طالت، ولكنه احساس ناتج عن اضطراب في الادراك، وليس قوة في الجنس، فهي خداع ذاتي اكثر منه مفعول حقيقي.

الهيروين مشتق من الافيون، وأكثر العقاقير تأثيرا في الألم الجسدي هو المورفين، والمورفين مشتق من الافيون، ولكن الهيروين عندما عمل بواسطة احدى الشركات السويسرية لم يكن معروفا ان متعاطيه سيصبح مدمن هيروين خلال أسبوع .

الهيروين يؤخذ بعدة طرق ، فقد يستنشق أو يؤخذ في الوريد وبعض الشباب يستعملونه بطريقة غريبة جدا، اذ يأتوك بورقة سلفين. ويضعون فيها الهيروين ويحرقونه من تحت، وعندما يتصاعد البخار يستنشقونه، ولهذه العملية تأثير قريب جدا من الأخذ بالوريد وليس مثل الاستنشاق.

من الحاجات اللطيفة ان الكودائين علاج للكحة، ولكننا نرى اناسا يقولون : انا عندي كحة مستمرة، ويشتري عشر زجاجات كحة من الصيدلية، ويشربها في اليوم، وهذا ادمان أفيون ففي الكودائين أفيون وفي أدوية الكحة . واذا سحبوا الكودائين من أدوية الكحة، تصبح ماءً دافئا، والكودائين علاج فعال للكحة، ولذا يجب ان يبقى علاج الكحة تحت رقابة معينة.

الهيروين كما قلنا يعطي نوعاً من أنواع النشوة والغياب عن الوعي، والبعد عن الواقع وعدم الاحساس بالقلق، وهذا شعور لذيذ، ولكن وبعد خمس أو ست مرات تظهر له أعراض أليمة جدا، ويبحث متعاطيه عما يخفف الالم اكثر من انه يريد لذة الكوكائين . وعندما يرى متعاطي الهيروين أنه مسطول دائم ، ومخدر، وتجده يريد ان ينشط نفسه ويأخذ كوكائين لكي ينبه نفسه، والكوكائين منتشر، والذين يسوقونه يستعملونه في الشم باستمرار ، لأنه يعطي سرعة بديهة وقوة تحمل جسدية نفسية، ولذا ففي القرنين الثامن عشر والسابع عشر كان الكتاب والفنانون والمبدعون يشمون الكوكائين ، ولكن دون أن يدمنوا. وعلى العموم فان ادمان الكوكائين نفسي وليس جسديا. اذ عندما يتركونه يحس بعضهم بالتعب النفسي، ولكنه لا يحس بآلام جسدية مثل الهيروين. وهو غالٍ جدا ، فجرام الكوكائين بحوالي٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه مصري ، اذا ما قارناه بجرام الهيروين الذي الذي هو بـ ١٠٠ جنيه . الكوكائين يستعمله بعضهم في اليوم ٤ الى ٥ مرات ، أما الهيروين فيستعملون نصف جرام الى جرام في المرة .

في بلد مثل مصر تعدادها ٥٠ مليونا يقال انهم ينفقون ما لا يقل عن ١٠٠٠ مليون دولار في الهيروين والكوكائين فقط . وقد ضبطوا سنة ١٩٨٥ حوالي ٨٥ كيلو غراماً ، فاذا

حسبنا انهم ضبطوا ١٠٪ فقط مما يدخل البلاد ، يكون المبلغ ٧٠٠٠ مليون جنيه أي ٢ مليار دولار هيروين .

في نيويورك المافيا أقوى من قوات الأمن، أما الذي يأخذ البرشام يعني مجموعة من الحبوب المنومة والمنشطة والهلوسة، يقول لك أنا سوف آخذ رحلة. والان أصبحت البرشامة غالية، وتصنع في الهند وفي بعض البلاد، وتدخل بلادنا، وكثير منهم يأخذ هذا البرشام ، وتجد لسانهم ثقيلا ولا يعرفون التركيز ، ويسقطون في الامتحانات، ولا يعرفون ما يأخذون.

الشيء الذي أريد ان أقوله أخيرا هو ان القهوة والشاي فيهما شيء اسمه كافيين ومعظمنا مدمنون أو متعودون عليه. وكافيين القهوة يؤثر على ضربات القلب، ويسبب قلقا نفسيا، وارتجافاً في الأيدي، وافسادا للمهارات الحركية، اذا زادت عن حد معين. وأهم سبب للصداع في أوروبا يسمونه انسحاب الكافيين من الجسم، يعني اذا تعرضنا لصداع وأخذنا القهوة وذهب الصداع، فهذا معناه اننا متعودون. والكافيين ليس في القهوة والشاي فقط بل هو موجود في مشروبات الكولا، وكثير من أولادنا مدمنون للكوكا كولا والبيبسي كولا، وهذا معناه وجود اطفال يشربون لترا واذا لم يشرب يبقى متهيجا ومتوترا ويتشاجر مع ابيه وأمه .

وأخيرا التدخين، ومشكلة التدخين معروفة عندنا كلنا، ومكتوب على كل السجاير التدخين ضار بالصحة، وتجد الواحد منا يراها ويدخن السيجارة وقد يعود هذا الى ان مضاعفات التدخين والخمر تأخذ مدة طويلة جدا لكي تظهر، بعكس الهيروين والكوكائين، حيث تأخذ مدة بسيطة، والانسان بطبيعته يميل الى اللذة العاجلة ، والشيء الذي هو عاجل في مضاعفاته يمكن ان يمتنع عنه. هناك ثلاثة أمور في تدخين السجائر هي النيكوتين وأول أكسيد الكربون والقطران ، والقطران هو المادة المسؤولة عن سرطان الرئة. وأول أكسيد الكربون الذي هو مثل ما يخرج من عادم السيارات ونشمه عندما يدخن غيرنا ، وهذا يؤثر على الشرايين، والنيكوتين يعمل كل الاحساس النفسي والجسدي، فلو اننا عملنا اقراص نيكوتين، واعطيناها للشاب الذي يشرب السجاير لما انبسط فيها كما يفعل فيها مع النيكوتين الذي في السجائر، وسيقول : أنا أريد شيئا في يدي. وهذا يعني ان فيها بعض الطقوس الحركية، لانه يخرج السيجارة، ثم يضعها في

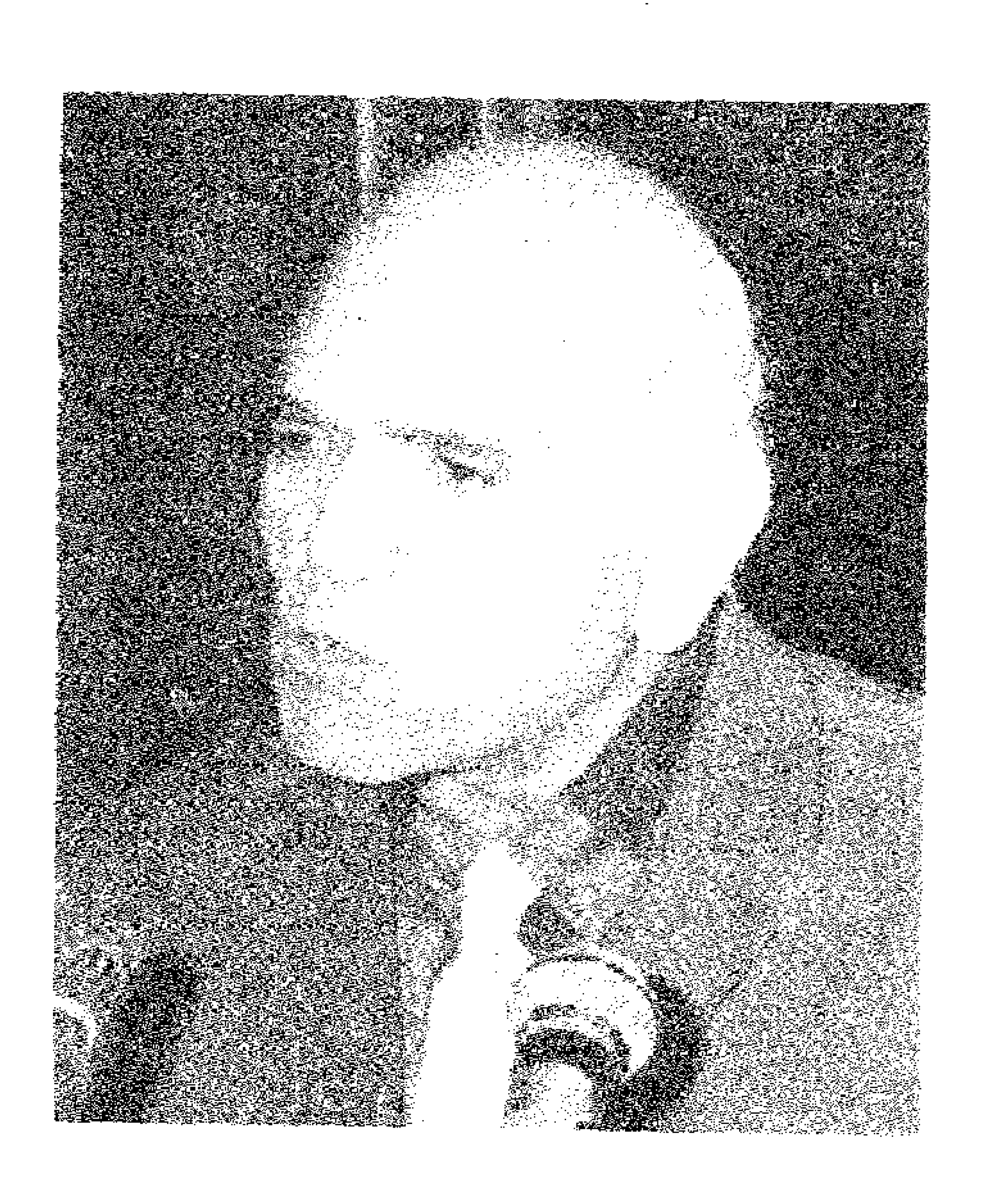
فمه، ثم يولعها، ثم ينفخ، ثم يضعها في الطفاية، كل هذه الحركات تزيل من التوتر، مثل ما أنا أتكلم الان وأحرك يدي، هذه حركة أيضا تزيل التوتر . كلنا نستعمل عضلات وجهنا وأيدينا لنزيل التوتر، فتدخين السجاير فيه عامل طقوس حركية، ولذلك فان السبحة مثلا يمكن ان تشيل بعض الطقوس الحركية .

ان الأمل في شبابنا العربي في التخلص من خطر المخدرات ، يتحدد في ايجاد القنوات البدنية والرياضية والعقائدية والسياسية والثقافية ، التي تمتص الطاقات المنبعثة منهم ، وفي اعطاء مسؤوليات اكثر للشباب ، وفي محاولات اعتمادهم نفسيا واقتصاديا مع آبائهم في تحسين فرص الزواج المبكر في النصف الثاني من العشرينات. يجب ان يشعر الشاب بانتمائه الى الأسرة والمجتمع، بتماسك الاسرة، وبالالتفاف حول القيم الدينية، وبالالتزام وبالتكيف مع الحضارة العربية ، واحترام التقاليد الاجتماعية، حتى لا يتعرض للصراعات المختلفة . ويجب ان تكون العقوبة شديدة على التجار ومهربي المخدرات ، وان ننشىء المراكز الخاصة بعلاج المدمنين. ويجب ان تشتد قبضة رجال الامن على تهريب هذه المخدرات في البلاد. ففي الصين مثلا اعطوا سنة فرصة للعلاج وبعد ذلك طالبوا باعدام المدمنين مع المهربين، واعدموا ٣٦ مدمنا. الصين تعدادها ١٢٠٠ مليون، ولا يوجد ادمان في الصين. وطبعا القضاء يقول لك كيف تعدم المدمن وهو مريض؟ ولكنهم اعطوهم فرصة للعلاج، وانتهت المشكلة .

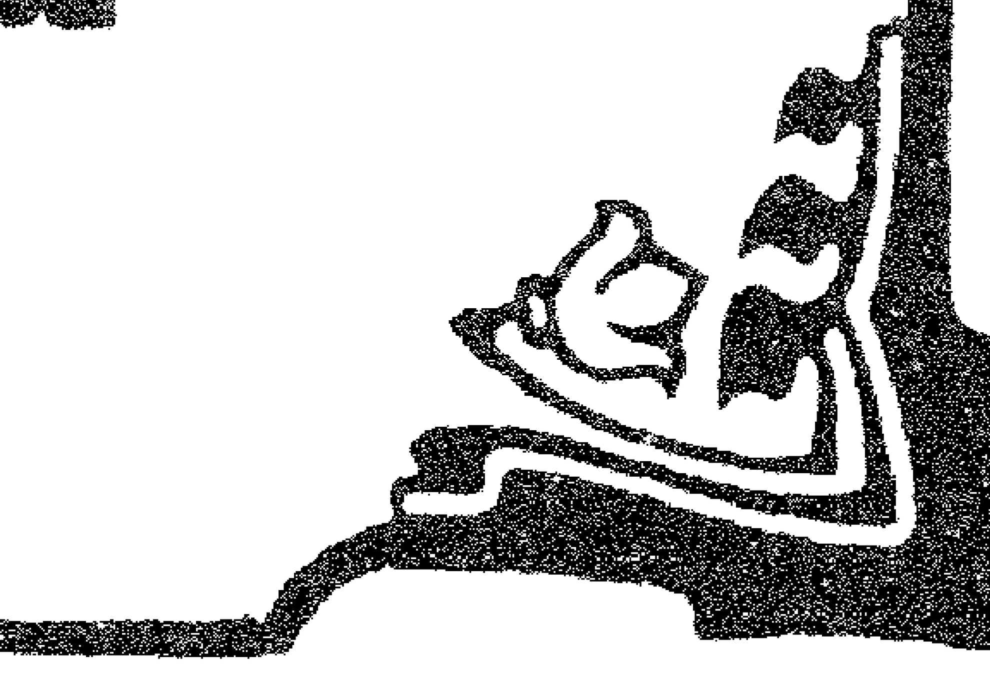
مازال شبابنا العربي بخير ، واذا قارنا القيم الاخلاقية والدينية والاجتماعية الموجودة بيننا بما هو منتشر بالحضارة الاوروبية، لعرفنا فورا ان المخدرات ظاهرة دفينة في عالمنا العربي، ولكنها ليست وباء خلقيا كما هو الحال في الغرب .

المحاضرة الثالثة

آفاق الاعلام الاسلامي لغير المسلمين



للأستاذ محمد فتحي



الأستاذ محمد فتحي

* تخرج من كلية الاداب بجامعة القاهرة مجازا في اللغة الانجليزية وادابها عام ١٩٣٢م .
* كان أول من عين عند افتتاح الاذاعة اللاسلكية المصرية كما كانت عام ١٩٤٣ وتدرج في الوظائف المختلفة بالاذاعة المصرية .
* في عام ١٩٥٠ عين بوزارة التربية والتعليم مديرا عاما للنشاط الاجتماعي والرياضي .
* شغل عدة مناصب كان في آخرها مديرا عاما للعلاقات الثقافية الخارجية .
* في عام ١٩٥٩ عمل في السلك الدبلوماسي في المانيا الغربية والمملكة المتحدة .
* في عام ١٩٦٩ تولى رئاسة قسم الاذاعة والتلفزيون بكلية الاعلام في جامعة القاهرة .
* عمل أستاذا للاعلام بجامعة كل من الرياض في السعودية وأم درمان في السودان ٧٦ ـ ٨٥ .
* أهم المؤلفـــات :

- عالم بلا حواجز .
- تاريخ الاذاعة المصرية في نصف قرن .
- الدولة والناس .
- مدخل لدراسات الاعلام (مترجم) .
- أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية (مترجم) .
- التطور الاجتماعي لاجهزة الاتصال الجماهيرية (مترجم) .
- الدراما في القرن العشرين (مترجم) .

آفاق الاعلام الاسلامي لغير المسلمين

عند اطلالة فجر القرن الهجري الخامس عشر ، ذلك الذي نعيش فيه، والذي انصرم منه خمسة أعوام، سرت في ربوع الامة الاسلامية هزة ، وحل مناخ رهيب اخذ يفرض نفسه فرضا منتظما متصاعدا ، واثق الخطى ، على كل دوائر المجتمع الواعية ، من معاهد وقوى ، سياسية ورئاسية وأكاديمية وأهلية .. في تناسق عجيب ، ودون أية مقدمات ، دون خطة موضوعة ، دون دفع من جهة بعينها ، أو تبنٍّ واضح ، انما في تلقائية مذهلة ، تلقائية الغيث حين ينهمر ، أو النهر العظيم تزخر مياهه وتتدافع عند الفيضان .. هذه الموجة المتعالية التي ارتفعت على حين غرة، وكأنما انصاعت لامر علوي، عندما دقت الساعة الكونية مؤذنة ببزوغ فجر القرن الجديد ، أحدثت رجفة في قرارة النفوس عند كهان الغرب وأوصيائه المتوجسين من الاسلام المتربصين به ، لعلها أثارت المخاوف الدفينة ، صليبية وغير صليبية ، خيفة قوم معهودة مؤثرة للمسلمين عند منعطف كل قرن ، بيد ان اطلالة هذا القرن الجديد هلت في ظروف جد مختلفة ، فأمة الاسلام تملك اليوم أمرها .. دولها مستقلة ، وحكمها في أيدي أبنائها، والمغلوبون على أمرهم من المسلمين في هذه القارة أو تلك ، لا يستسلمون ابدا .. يصارعون أعداءهم العتاة ، في شجاعة واستبسال ، دفاعا عن عقيدتهم وارضهم وأوطانهم .. ولم يعودوا أتباعا وذيولا ومستعمرات ..

قد يدخل في قلب الكهان والاوصياء شعور بالارتياح والغبطة، اذ يرون المسلمين يتقاتلون فيما بينهم، واذ يرون كلمتهم غير مجتمعة وغير موحدة، واذ يرونهم متفرقين شيعا واحزاباً. لكن هذا الشعور وهم زائف، لانه لا يكشف عن الحقيقة الثابتة، وهي ان قاعدة الامة الاسلامية نقية طاهرة متماسكة ، مستمسكة بقواعد دينها ، مؤمنة بأن المؤمنين اخوة وان المصير واحد والغاية واحدة .. مبدأ التوحيد والوحدانية في الله ركن مكين من أركان دينهم . فاذا ما تقاتل حكام المسلمين اليوم فيما بينهم واختلفوا وتفرقوا

فذهبت ريحهم .. فانما تلك مرحلة موقوتة مآلها الى زوال ، اذ لا راد لارادة الشعوب، لاسيما اذا كانت القضية هي كلمة الله .

تبصر المسلمين بأنهم على أبواب تحول كبير بلغ عندهم مرتبة اليقين، اليقين بأن القرن الهجري الحالي هو مشهد الصحوة الفكرية الكبرى المؤدية الى ان يصبح المسلمون كيانا قويا موحدا يستهدي بالكتاب والسنة ، ويرون تبعا لذلك ان تغييرا جذريا حري بأن يشمل الكون، وان آثار هذا التعديل الشامل، سوف يشمل الحدود الجغرافية، والعلاقات الدولية والمعالجات السياسية .

هل آن للحلم الذي حلم به المجدون طوال القرنين الماضيين ، من أمثال ابن عبدالوهاب وجمال الدين الافغاني في تحركاته بين الهند ومصر وايران وتركيا ، واقبال غيرهم .. هل آن للحلم العظيم ان يتحقق ؟

يقين المسلمين بانبعاث الاسلام ليس مستشفا من البصيرة، أو عن طريق الغيبيات، انما سبيلهم اليه دلالات ومؤشرات لا تتنكب المنطق وطبيعة الاشياء . دلالات تفجرت وسط ذلك التيار الزاخر، الذي ملأ الصحائف والكتب، ورددت نبضه ودقاته الاذاعات المسموعة والمرئية، والنابع من الضمائر والافئدة في شتى بلدان الامة الكبيرة المترامية الاطراف. من هذه الدلالات ذات المغزى، الداعية للاستبشار بالفجر الجديد، انه نبت في السنوات الأخيرة من القرن المنصرم نبت كثيف من شباب الامة، استيقظ لحقيقة هويته المؤمنة، هذا التيار الديني المتعاظم وسط الشباب ، ليس وحده مرد الخطورة في الأمر، فالملحوظ ان التحرك نحو النهج الاسلامي - باجماع ورضا - نابع من القاعدة ، متنزل من القمة هنا ، مبارك على الأقل هناك . أي أن تجاوب الوجدان تام بين السلطان والقاعدة . ما هي بفورة انقلاب بغيتها تبديل سطح الحياة العامة أو شكلها، بل انها قوة تاريخية جليلة، تدفع المسلمين مع دورة القرن حتى يسارعوا الخطى ، ويدوروا بواقعهم الحضاري نحو نهضة غلابة مباركة .

ارجعوا البصر الى المقابل، كثير من الرأي يلتقي في ان الحضارة الغربية تتداعى، وفي ان علائم الشيخوخة واضحة الظهور ، تدب في أوصالها، وان الخواء الروحي الجاد

المتمثل في انصراف اصحاب الحضارة السائدة عن أديانهم ومعتقداتهم ، وفي طغيان القيم المادية وتسيدها، قد ايقظ المسلمين وحركهم الى التفكر في جدوى ما استوردوه من نظم تشهر في أوطانهم افلاسها، وان عودتهم الى منابع قوتهم، أو التوطن من جديد، اصبحت أمرا حتميا لا محيد عنه. المسلمون يرون اليوم ان الدعامة الكبرى لكل نهضة حضارية هي العقيدة، والعقيدة هنا ليست مجرد الايمان الظاهري أو الشكلي، وانما هو الايمان المعني في قوله تعالى : «قالت الأعراب أمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم .. انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» .

أجل .. لقد دب الوهن والضعف في نفوس المسلمين، لان الارتياب في أمر عقيدتهم داخل نفوسهم، وظنوا ان حضارة الغرب المادية الطامسة للروحانية ، والساخرة من العقيده هي الأقوى والأعز ، وانها السبيل الذي لا سبيل سواه للرخاء والنعيم والطمأنينة .

لكنهم اليوم ، يتدبرون أمرهم ، وينقلب ارتيابهم بدينهم الى ارتياب فيما أوحى اليهم، وادخل عليهم من التدين صنو التخلف أو هو المسبب له !

الآن يجهرون بأن أمة الاسلام ليست في حاجة الى نظم مستوردة .

فاذا كان الأمر أمر حريات، فالحكم الاسلامي يكفل للمواطن الحريات والحماية في الفقر وفي الشرور الاجتماعية ، اضعاف ما يطالبه به من واجبات، وان النظام الاسلامي يعالج جميع مشاكل المجتمع العصري .

الخواء الروحي الذي يعاني منه الغرب والشرق السياسي ليس في حاجة الى بيان، حقيقة ثابتة لم تعد خافية على أحد ، وليست في حاجة الى تدليل . انصرف الناس في الغرب عن الدين ، واسقطوه كلية من حياتهم حتى في صورة مرسم شكلي .

اذا لم تكن الحضارة الغربية اشهرت افلاسها مؤذنة بالمغيب ، فطلائع موكب الافلاس بادية والتفجير تتذر به طليعة من وراء طليعة .. ما هذه الالوية الحمراء ، والجيش الأحمر ، وبادرماينهوف وغيرها مما قد تعلم أو لا تعلم ؟

ما القلق والاكتئاب والانهيار .. تلك التي تعتري نفوس الملايين في كل عطفة وكل سبيل ؟ لماذا بائح الصدر وسكنات القلوب لا للعجائز وانما لازاهير الشباب ؟!

ما أولئك الذين يلقون بأيديهم الى التهلكة، فيثبون من فوق قمم الابراج أو شاهق العمارات، ما ذلك الانتحار الجماعي؟ .. بالألف يقضون على أرواحهم ، شبابا وصبية وأطفالا ؟

ما تلك المغيبات التي تكتسح المجتمعات الراقية في شكل سموم بيضاء وغير بيضاء، تذوي بالشباب ومستقبل الأمم ؟

ما انقلاب الاشعاع النووي المنذر وما المطر المنزل من السماء حمضيا، يأتي على الحرث والزرع، ويسقم الضرع .

ما هذا العنف الذي يغمر الحي بالدهس والخوف الغضب والذبح وارتهان الرهائن والتقتيل . ما قهر البيض للسود ولبعضهم البعض ، ليس في جنوب القارات الافريقية وحدها، بل وفي القارتين المتقدمتين أوروبا وأمريكا ؟

فاذا لم يكن ذلك بالقدر الكافي فلتخليه الشاشات الكبيرة والصغيرة للناس . ولتسكبه في صدور الرضع والصغار والكبار في شكل صور متحركة ، طباعة تفرض نفسها في البيت بالليل وبالنهار ؟!

ما كل هذا .. اذا لم يكن بداية للنهاية، وفضاً للسامر، وايذاناً ببساط سوف يطوى ؟

لست هنا في مقام النعي لحضارة الغرب التي غزت المشارق حتى اليابان، وذهبت بعقائدها وقيمها أو تكاد، وقد تكون غزت مجتمعاتنا وظاهرنا ، ولكنها بفضل رب محمد، حمدا لله ! ـ لم تستطع بعد ان تغزو منا الارواح والافئدة .

يقينا ان رب المشرق والمغرب ، يريد بنا خيرا . فرغم صلتنا اللصيقة بالغرب ، وارتباطنا ـ الاقتصادي والاجتماعي الوثيق ، وقبسنا من مظاهر حضارية لما يقرب من قرنين من الزمان ، الا أننا ما نزال حفّاظا على ذخيرتنا الروحية، لا نسلم فيها ابدا، ولا نحكم عليها بالهوان . حتى ولو كان البديل كومبيوترات وطائرات ومدافع وصواريخ نذود

بها عن كياننا، فالعدو المتربص لا يبغي الارض بقدر ما يبغي القهر وتحطيم سلاحنا الروحي، الذي لا يريد ان ينثني، وما انثنى حقبة وراء حقبة منذ كان للاسلام دولة ووجود .

لا يظن احد انني وضعت فوق رأسي عمامة الوعاظ والائمة .. انما انا اتكلم من موقع تلك الادوات التي يطلقون عليها أجهزة الاعلام أو وسائط الاتصال الجماهيري، تلك التي تتصل بالناس مباشرة في كل لحظة وآن ، وطريقها نافذ لا يقف في سبيلها حاجز أو مانع ، نافذ الى العقول والافئدة ـ وقرارات النفوس .

من هذا الموقع اخاطب أولئك الذين يحملون في أعناقهم أمانة الدعوة للدين الحق ، دين التوحيد .

فاذا كانت الدعوة الى سبيل ربك فرضا علينا ، فرضا جليا سويا لا لبس فيه ، أي دون اكراه ، فلا اكراه في دين محمد ، فان الاوان فيما نرى قد آن ، لننشر على الملأ ونبصّر بأركان هذا الدين واصوله وحقيقة مراميه . يقول الحق سبحانه «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . وكيف يغيرون ما بأنفسهم ؟ اقول، هذه هي الادوات الفعالة المستحبة بين أيدينا، نعم انعمت بها قدرة الله على الانسان .. الراديو والتلفزيون الانسان .. والفيديو واتصال الفضاء .. ونحن المسلمين لا تنقصنا الخبرة بها ، بل نمارسها وننتفع بها ، ولعلنا نسرف على أنفسنا باستخدامها في أغراض الترفيه والتلهية ـ كما تعلمون جيدا ؟ أليس من حق اخوة لنا من البشر ، هامت أرواحهم ، وجزعت نفوسهم مستصرخة تنشد غوث السكينة والطمأنينة ـ اليس من حقهم علينا نحن المسلمين ان نمد لهم اليد ، يد الهداية الى المرفأ العظيم والملاذ المكين ..؟

ما أظنني في حاجة الى ان ابين ابعاد التوحيد ومراجعه ، وما أظنني في حاجة الى ان اذكر بالآية الكريمة التي تعلمونها وهي «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» وتتعاونوا وتجاوبوا ربما يأخذ بعضكم عن بعض ان اكرمكم عند الله اتقاكم» .

واذا كان أهل الدعوة عندنا والاوصياء عليها يخصصون الملايين للمباني والمطبوعات وسيارات القوافل وجيوش الدعاة المحليين ـ ولهم في ذلك ثواب ـ فقد يكون ايضا من سبيل البر ان تخصص حصته لاغاثة الحيارى ، وهديهم الى دين التوحيد .

التوحيد في هذه الحقبة التي نعيشها ونعاصرها ليست مجرد كلمة تقال ولكنها بينة المعنى والمغزى والقيمة .

اليس اتصال الفضاء الذي يربط المعمورة كلها برسالة واحدة في شكل صورة ملونة مسموعة ، في اللحظة الواحدة ، بل ويربط كوكب الأرض بالكواكب الأخرى شاهدا مقربا للاذهان تلك الحقيقة الالهية الكبرى ؟

الحرية أيضا ليست كلمة نرددها بل هي حقيقة واقعة ملموسة ، ومسألة تشغل اذهان المفكرين والفلاسفة والاوصياء على حضارة الغرب .

منهم من يتطلع بالفعل للاسلام ويعكف على دراسته ، بل ان شخصيات لها وزنها ، واعدادا لها دلالتها ، من صناع الفكر ورواد النورانية في الغرب آمنوا بالاسلام واعتنقوه دينا .

سألقي على مسامعكم بعض أحداث جرت في نهايات القرن الهجري الرابع عشر ومطالع هذا القرن المبارك المبشر الخامس عشر ، لعلها تكشف عن طاقة أجهزة الاذاعة المرئية والمسموعة والعلم وتكشف قبل كل شيء سر الاسلام ونوره الاخاذ ، لا يد لنا فيها وانما هي يد الله وحده .. افلا يدفعنا ذلك الى ان نتحرك ؟

— قصة الطيار الكندي ..

— قصة الكتاب الانجليز الذين أسلموا دون جلبة أو اعلان وجاءوني في طلب كتب تهدي .

— قصة الموسيقار الانجليزي الذي استمع اليه ما يزيد عن ١٢٠ مليونا من المستمعين للاذاعة البريطانية في كل أنحاء الدنيا في اذاعات صباحية لعلها خمس أو سبع .

— قصة العالم المسلم الذي شرح لمستمعي الاذاعة العالمية البريطانية في اذاعات صباحية أركان الاسلام .

— قصة حلم الرسالة .

ـ قصة البرنامج الذي أذيع على مدى ساعة في تليفزيون فرنسا عن الاسلام في صباح عيد الفطر .

كل الظروف يا أمناء الدعوة ـ مواتية . مثل هذه المهمة فيما ارى تضطلع بها دول المسلمين عامة .

وللمسلمين هيئات ومؤسسات ومنظمات ومؤتمرات واذاعات دولية في مجال الدعوة لغير المسلمين ، بل لعل لاهل الدعوة مواقف غريبة تعز على الافهام، لربما جاءك نبأ تلك الافلام التي انتجها افراد غيورون على الاسلام تكشف عن بعض الجوانب المضيئة في الاسلام ، وعرضوها في أكثر من بلد من بلدان الغرب ، حيث لقيت استجابة وقبولا ، ولكن بدل ان يعينها ويدعمها أهل الدعوة وقفوا منها موقف الرافض المعادي .

ما يزال بعض الناس من أهل المسئولية الاعلامية ينظرون الى أجهزة الاعلام العصرية نظرة مشوبة بالحذر، فالسينما والتليفزيون في نظرهم موضع شبهة وارتياب، انما هذه الاجهزة ـ لو يتدبرون ـ مثلها مثل الكتاب يحمل الحكمة والفضيلة، كما يمكن ان يحمل بين طياته الفجور والكفران ، ما هي الا وسائط يسخرها المرسل لما يشاء من رسائل . كالاناء تسكب فيه السم أو تسكب فيه الشراب الطهور . اذا كان التلفزيون أو الفيلم يعرض العري والفجور والمراقص ، فهو أيضا يعرض تلاوة الذكر الحكيم وشعائر الصلاة ومناسك الحج .
ليس للاداة ذنب فيما تسفّ ، انما الذنب ذنب من يستخدمها لهذه الغاية السفلى .

أليس من العجيب اذن ان تحرم الدعوة من هذه الاجهزة الخارقة التي أنعم الله بها علينا ، مؤثرين أدوات تقليدية نقلية غير ذات ابعاد أو فعالية ؟

هذا العصر الذي نعيش فيه يسمونه عصر التلفزيون ، ويسمونه عصر الفضاء ، وعصر التوابع ، أو ما نسميها بالأقمار الصناعية، ويسمونه عصر الاتصال. خاسر ذلك الداعية الذي يتجاهل هذه الوسائل الالكترونية التي تتعذر عليك ان تجد واحدا من البشر لا يتعامل معها بشكل أو بآخر ! عما قريب سيكون التلفزيون العالمي حقيقة واقعة ، بحيث يستطيع ان يبث عن طريق الاقمار الصناعية مباشرة الى اجهزة الاستقبال

في المنازل، من لندن وباريس ومكة وموسكو والقاهرة وروما الى جميع أنحاء الدنيا. فهل أعددنا لهذا اليوم عدته لنؤدي فريضة الدعوة ؟ منذ عدة أعوام عقد في لندن مهرجان اسلامي عرض فيه المسلمون فنونهم ، وخطب فيه دعاة المسلمين . قال محمد عبده يماني كلمة مر عليها الناس مر الكرام ، لكنها تحمل في طياتها حقيقة علمية ناصعة . قال :

«نحن المسلمين لا نقدم للعالم النفط فحسب ، فنحن نملك ما هو أغلى وأثمن من النفط ، نملك كنز الاسلام» يا لها من قولة صادقة بليغة ! ولكن ..

الى متى ـ يا أمناء الدعوة يظل هذا الكنز مغلقا بالضبة والمفتاح .. في حين تظمأ نفوس البشر وتهفو أرواحهم اليه ؟

لا مراء في ان الاسلام ، اذا حققنا رسالته التوحيدية، حقيق به ان يبعث في حياة المجتمع البشري قيم الحقيقة الاسلامية الاولى ، بما انطوت عليه من توحيد وتماسك ، وعدالة ، وتعاطف وسماحة وكرامة، وشجب للتهجم والعدوان ، وبعد عن التعصب، وأنكار لتلك السبل الدموية التي تسلكها المذاهب والايديولوجيات المتصارعة ، تلك التي تغمر ساحة المجتمع الانساني بالقرب منا، خاصة في القارتين اللتين ننتمي اليهما، آسيا وافريقيا .

فهل لدينا العزم والايمان ؟ وهل يستجيب الدعاة لفريضة فرضت عليهم، وأمانة وضعت في أعناقهم . هل يجمعون صفوفهم ويسخرون طاقاتهم وعقولهم لتحقيق هذه الغاية العظمى ؟

هل يجوز لي وانا هنا بينكم ، في هذا البلد الطيب الذي يبهر بنضارة زرعه وشجره وزهره وخضرته اليانعة، ان اناشد أهل الفضل لتبني هذه الغاية السامية ، وهي أيضا فيما أرى فريضة، ولن يتطلب الأمر فيها اعتمادات ولا ميزانيات ! كل ما سوف يتطلبه تكوين لجنة لا يزيد عدد أفرادها عن خمسة من أبرار المسلمين العلماء والخبراء ، تجتمع في دورة قصيرة ـ على أساس تطوعي بحت ـ لوضع الخطة وتكليف من يقوم بانتاجها ، ثم تسويقها على نطاق العالم ، ومن واقع تجربة سابقة سيذاع الانتاج العلمي

على الملأ ، وفوق ذلك سيدر عائدا مجزيا للمنتج ، المسلم .

وصاحب الاقتراح ، ان لقى من يستجيب له ، يقدم نفسه على أساس تطوعي بحت لخدمة هذه الغاية السامية ، بل الفريضة .
اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهد ...

المحاضرة الرابعة

حداثة اليابان



للبروفيسور الدكتور توشيو كورودا

البروفيسور الدكتور توشيوكورودا

* من مواليد أغسطس ١٩٣٣ .
* حصل على البكالوريوس في الأدب الفرنسي من كلية الاداب في جامعة طوكيو ١٩٥٦ .
* حصل على درجة الماجستير في الثقافة الفرنسية من جامعة طوكيو ١٩٥٩ .
* حصل على درجة الماجستير في تاريخ الشرق من جامعة طوكيو ١٩٦١ .
* حصل على درجة الدكتوراة في تاريخ الشرق من جامعة طوكيو ١٩٦٧ .
* عمل كمحاضر في معهد اللغة والثقافة بجامعة طوكيو ١٩٦٤ .
* دراسة التاريخ الاسلامي بجامعة القاهرة ٦٥ ـ ١٩٦٨ .
* محاضر في القسم الياباني بجامعة الحرية في برلين ـ ألمانيا ١٩٧٤ يعمل حاليا أستاذا
* محاضر لقسم العلاقات الدولية بمركز الدراسات بالجامعة الدولية باليابان .

حداثـــة اليابـــان

الحداثة هي توظيف التراث الفكري للبشرية في سبل تحقيق التطور العلمي والتكنولوجي، من اجل تيسير وسائل العيش، في نفس الوقت الذي نقوم فيه بازالة التقاليد الهامدة المترسبة في مضمار الممارسة السياسية والاجتماعية أيضا ، والتطلع الى ادارة وتأييد مجتمع عادل ، بالاضافة الى بذل الجهود من أجل التمتع بثقافة رفيعة، دون تقيد بما هو خاص أو عام .

هذا، ومع التطور المستمر للظروف المحيطة بالعلم، تستمر الحداثة في التغير أيضا لكي تتناسب مع ذلك التطور .

وهكذا فان الحداثة في معناها الشامل العام تتطلب ضرورة المساهمة والرعاية من كافة البشر .

الا ان الحداثة كثير جدا ما تؤخذ على انها مرادف للتغرب أو الاصطباغ باللون الغربي .

وفوق ذلك فان الحداثة في معناها المحدود وصورتها الحالية هي انه حين سماع الحداثة ، تتجه الانظار كلها وتتركز فقط على أمور ترتبط بازدياد وارتقاء قوة الدولة المبنية على مجرد التقدم العلمي والتكنولوجي .

اننا لا نستطيع ان ننسى انجازات الغرب، الذي بذل جهودا ضخمة في سبيل التقدم العلمي والتكنولوجي، وفي مجال السياسة الداخلية خلال هذه القرون .

والغرب الذي أرسى قواعد تلك العناصر، لديه ميل الى الاصرار على ان التطبع ناحية البناء السياسي ومن نواحي المثل والمبادىء ، حتى من الناحية الروحانية. هو أسرع الطرق وأقربها للوصول الى الحداثة. وخلال تلك القرون التي شهدت عصر التغرب .. كان

الطريق الوحيد الذي سلكته العديد من الدول في سبيل خوض تجربة الحداثة ، هو طريق استيعاب الوسائل الغربية والتطبع بها .

وموضوع اليوم الذي ارجو التفضل بالسماح لي بطرحه هو موضوع الحداثة في اليابان .

حتى حدوث حركة الاصلاح المعروفة باسم حركة اصلاح ميجي سنة ١٨٦٨ ، كانت اليابان تتخذ سياسة منغلقة موجبها الامتناع عن الحوار مع العالم الخارجي . وبعد زيارة اسطول الولايات المتحدة ، طلعت سياسة الانفتاح من اليابان وبدأت اليابان تفتح أبوابها امام العالم ، وقد بدأت حركة الحداثة في اليابان تحت شعار يقول «الحقوا بالغرب واسبقوه» .

ونتيجة لهذا فان اليابان حاليا، كقوة اقتصادية، ترتكز على التقدم العلمي التكنولوجي ، تتربع على المركز الثاني من ناحية الدخل القومي على مستوى العالم . وعلى ضوء هذه الحقيقة ، فان اليابان والعالم على السواء تعترفان بتحقيق اليابان لذلك الانجاز الملموس . وقد وصل مستوى التقدم الاقتصادي ـ خصوصا في الفترة الأخيرة ، الى حد التسبب في احداث خسائر اقتصادية للدول المتقدمة الأخرى ، في مقابل رخاء اقتصادي في الجانب الياباني ، وبالتالي فقد أدى ذلك الاحتكاك التجاري الى بداية ظهور مشاكل سياسية كبيرة مع تلك الدول المتقدمة .

واذا كان معنى الحداثة مقصورا على رفع القوة الاقتصادية وزيادة القدرة الانتاجية وتقدم العلوم والتكنولوجيا ، فقد استطيع ان اقول ان اليابان من هذا المنطلق قد استطاعت ان تضرب مثلا ناجحا، ولكن هل ينحصر مفهوم الحداثة في تلك القضايا فقط ؟ حسنا ، دعونا نطرح هذه القضية فيما بعد، واسمحوا لي أولا ان استعرض أمام حضراتكم القضية التي تتعلق بكيفية قيام اليابان بممارسة تجربة الحداثة . ذلك لان الاشارة التي تتعلق بنجاح اليابان في خوض تجربة الحداثة الى درجة معينة، سوف تكون مرجعا هاما لحضرات المستمعين .

قبل ان اخوض موضوعيا في الحديث عما يختص بمسألة الحداثة، اعتقد انه من

الاهمية بمكان تعريف من هم اليابانيون ؟

قد يؤخذ الأمر بصورة من الغرابة ، ولكن الحقيقة ان الوصول الى تعريف محدد لهذه النقطة هو أمر جد عسير ، حتى بالنسبة لليابانيين انفسهم .

بنظرة واحدة نستطيع ان نقول انهم ليسوا محددي الشكل ، وهم مولدون من اجناس مختلفة ، ومن طبيعتهم عدم التقيد الى حد كبير بأسس أو مبادىء .

ولكن من الناحية العلمية والتكنولوجية ، وكذا من الناحية الثقافية الروحانية ، فهم يحظون بنوع من التذوق الرفيع لتلك الاشياء، ولديهم جانب ايجابي في مسألة بذل الجهود لاستيعاب اي مادة متفوقة رفيعة يحسون بوجودها بالقرب منهم ، وهذا أمر يمكن التعرف عليه بسهولة ، عن طريق الرجوع الى التاريخ ، وتاريخ اليابان يتضح على التقريب من القرن .. ومن خلاله تتوصل الى ان الامبراطورية التي وحدت اليابان، هي نفسها التي يتفرع منها البيت الامبراطوري الحالي ، ولكن القاعدة الروحانية التي ترتكن اليها اليابان هي ديانة «الشنتو» .

«والشنتو» من ناحية تركيبية ، ومن ناحية ما يحتويه من مسائل حسية ، يحتضن بشكل عميق ما هو ياباني اصيل ، وبتعبير آخر ، قد يمكننا القول بأنه كان يحمل في طياته القالب الاصلي للانسان الياباني .

ولكنه في نفس الوقت لم تكن لديه تلك النظرة السابقة بدقتها وتحديدها، كذلك لم يكن لديه تلك الفلسفة المركبة المعد لها «الشنتو» .

ولكنه في نفس الوقت لم تكن لديه تلك النظرة العالمية وتقديرها ، كذلك لم يكن لديه تلك الفلسفة المركبة المحدودة المعالم .

وبحلول القرن السادس بدأت الديانة البوذية التي نشأت في الهند ، واظهرت تطورا فريدا في الصين ، بدأت تأخذ طريقها الى اليابان مارة بشبه الجزيرة الكورية .

ووقتها أخذ اليابانيون يتعلمون تلك الديانة بايجابية ، ويستوعبونها ، وصارت اليابان تتحول بسرعة كبيرة الى الاصطباغ بلون البوذية .

وبذلك ، بينما كانت ديانة الشنتو هي ديانة الدولة والطبقة الحاكمة .. في نفس الوقت وصل الأمر الى اتخاذ البوذية ايضا دينا رسميا للدولة ، وانتقاء الجوانب المستحسنة من تعاليم تلك الديانة واستيعابها .

هذا .. وأعلى وجود مقدس في «الشنتو» يسمى «كاي ساما» اما في البوذية فيسمى «هو تركيه ساما» .

واليابانيون يعتبرون علاقة الاثنين بمثابة علاقة الاخوة أو الاقارب ، وبهذه الطريقة فهم ينسبون علاقات معينة ، بين أشياء معينة دون ان يكون لها أساسا تلك الانواع من العلاقات، ثم يستخلصون ما يرونه جيدا، ونضرب مثالا لهذه النقطة ، فاليابانيون شرهون بطبعهم .. فهم حين يلمحون صنفا من الطعام يبدو في أعينهم لذيذا ، يقبلون على التهامه على الفور دون ان تكون هناك حتى خبرة سابقة بطعمه .

ولكن هضم ذلك الشيء في المقابل يتخذ الطابع الياباني بصورة كبيرة ، فبعد هضم البوذية الاصلية، نجدها في مرحلة تحولها الى القيمة الغذائية تتخذ شكلا مخالفا .

بمعنى انه كلما كانت هناك قيمة غذائية مستفاد منها كلما استمر الاقبال على الطعام .

وبعد البوذية جاء نوع متقدم وهو الكونفوشية العينية . وحينها ايضا اقبل اليابانيون على التهامها بشراهة . ثم تلاها دخول الفكر الأوروبي ، وقد تم تمثله ايضا دون تحفظات .

واذا تركنا مسألة صحة الطريقة أو عدم صحتها جانبا ، فيمكننا ان نقول هنا ، ان تلك الروح كانت عاملا أساسيا من عوامل النجاح في استيعاب الحداثة الغربية .

وما أريد أن أقوله هو ان قوما مثل اليابانيين الذين يسكنون تلك الجزيرة التي تقع في طرف من اطراف العالم ، والذين استوعبوا بصورة كافية، من قبل، تجربة ادخال الفكر الصيني الرفيع ، قد ادخلوا ايضا الثقافة الغربية ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان الذي ادخلوه كان هو الثقافة الغربية بعينها وبشكلها الأصلي .

حقاً ان اليابان حاليا تصطبغ بالصبغة الغربية الى حد بعيد، ولكنها ليست على الاطلاق غربية في جوهرها . والقضية المحورية المعتقد بوجودها حاليا في اليابان .. انما هي : كيف تستطيع اليابان ابراز طبيعتها الثقافية المميزة مدركة هويتها، وهي في خضم تلك الامواج الفكرية الغربية العاتية؟

يبدو انني قد اسهبت في الحديث في هذه النقطة وقد حان الوقت لتناول صلب موضوع الحداثة في اليابان. نستطيع ان نقسم حداثة اليابان زمنيا الى ثلاثة أقسام كبيرة :

١ - القسم الاول هو الفترة ما بين ١٨٦٨ حين وضعت اليابان نهاية لسياسة الانغلاق، وبدأت تفتح أبوابها امام العالم، مع حركة الاصلاح المعروفة باسم حركة اصلاح «ميجي» ، حتى بداية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .

٢ - القسم الثاني هو الفترة من بداية الحرب العالمية الثانية ، حتى الفترة التي يمكن ان نسميها بفترة البعث «الصحوة» سنة ١٩٥١ .

٣ - والقسم الثالث يبدأ سنة ١٩٥١ ، ومستمر حتى اليوم .

كما ان القسمين الأول والثالث يمكن تقسيمهما الى اجزاء أصغر ، الا انه من المستحيل عدم ذكرهما بسبب عامل الوقت .

فيما سبق كان المتعارف عليه ان حداثة اليابان قد بدأت مع حركة اصلاح «ميجي» . التي فتحت ابوابها امام العالم الغربي ، وادخلت أنظمه واساليب التكنولوجية على نطاق واسع .

ولكن هذه النظرية تم تعديلها بدرجة كبيرة في الفترة الأخيرة ، فقبل عصر ميجي وفي العصر الذي كان يسمى عصر ايدو ، كان اليابانيون يصنعون بأنفسهم معظم الادوات المطلوبة للحياة اليومية .

وكان ما يشتريه مجتمع القرية من الخارج هو مواد مثل الملح والمعادن، وما عدا ذلك كان مجتمع القرية يدبره بقدراته الذاتية .

وقد كان عماد العيش هو معرفة الزراعة ، الا انه كان هناك عشرون بالمائة تقريبا من

الفلاحين يزاولون اعمالا حرفية .

وفي النصف الثاني من عصر ايدو نشأت مدن كثيرة وازدهرت ، وكذلك راجت التجارة التي وضعت مراكزها في المدن ، كذلك وصل نظام صناعة الأوراق النقدية والنقل والمواصلات الى درجة كبيرة من التقدم .

وقد احتوت المدن الكثير من التجار الذين تمددت أنواع تجارتهم ، وتقدمت على هذا الاساس نظم تصنيف الاعمال والوظائف .

وفي سنة ١٨٧٥ كان هناك أربعة وخمسون بالمائة من الذكور ، وتسعة عشر بالمائة من الاناث قد انهوا تعليمهم الابتدائي ، وتلك الحقيقة تشير الى مدى ارتفاع حب اليابانيين للعلم والى تجاوزهم للاوروبيين في هذه النقطة .

ومن هنا فقد كان المناخ الياباني في ذلك الوقت مهيأ بدرجة كافية لاستيعاب الحضارة الاوروبية، دون ازهاق الكثير من الوقت ، وهذا ما أريد ان اركز عليه هنا ـ في نفس الوقت الذي اريد ان أؤكد فيه على ان من حمل عدة حركة التغيير والاصلاح في اليابان على اكتافه .. كان هو الفرد .

ومع حركة اصلاح ميجي جرت عدة اصلاحات سياسية . وفي تلك المرحلة كان المجتمع الياباني مقسما الى أربع طبقات حسب المهنة : طبقة الساموراي ثم طبقة الفلاحين ثم طبقة الحرفيين ثم طبقة التجار ، ولكن تم ازالة هذا التقسيم ليعتبر طبقتين فقط هما : الطبقة الارستقراطية وطبقة عامة الشعب .

ولكن تلك التفرقة ايضا سرعان ما أزيلت فيما بعد . ولانني لا استطيع ايضاح تلك النقطة بالتفصيل فسوف اتحدث عما يتعلق بمجال الصناعة فقط .

طبقا للسياسة التي ترغب فيها الدولة وهي سياسة «تطوير الصناعة وترويج المشروعات» انشئت مصانع للغزل والفحم الحجري والاسمنت ، وكانت تلك الصناعات وراء تقدم صناعات أخرى ظهرت فيما بعد مثل الحديد والصلب وصناعة السفن ، وفي هذه الفترة ركزت الدولة اهتمامها بالعناصر الهامة للنهوض بالحداثة ، وتلك العناصر هي :

١ ـ الاعمال المصرفية .

٢ ـ وسائل الاتصال .

٣ ـ استخراج الفحم الحجري واستغلاله .

٤ ـ صناعة النسيج .

وكان عماد الحداثة في اليابان هو صناعة الغزل . فقد قامت اليابان بتصدير كميات كبيرة من خيوط الحرير تلبية لاحتياجات العالم من الحرير . وفي أثناء ذلك أيضا حسنت وطورت ماكينات الغزل ، وكان الذي صنع اجود انواع ماكينات النسيج ياباني اسمه تويوتا . وبعد ذلك بدأت اليابان تستورد خامات القطن من الخارج ، وتصنعها ثم تصدرها في شكل منسوجات .

ومنذ سنة ١٨٨٠ حتى سنة ١٩٣٠ كانت صادرات الحرير .. والمنسوجات الى خامتها شجرة القطن تشكل خمسين بالمائة من اجمالي صادرات اليابان الى الخارج .

لقد كانت اليابان تطور وتحسن تكنولوجيتها التقليدية ، في نفس الوقت الذي كانت تدخل فيه تكنولوجيا الغرب ، ثم تجعلها تكنولوجيا من الدرجة الأولى من حيث المستوى . تعبير آخر .. فاليابان لم تقف من الغرب مجرد موقف المتسلم .

ان اليابان التي حققت ذلك التقدم الهائل في العصر الحاضر ، لم تستطع ان تصدر سوى المنسوجات منذ خمسين سنة ، ولمدة خمسين .

ولكن بفضل تلك المنسوجات في ذلك الوقت استطاعت اليابان ان تحصل على العملة الصعبة ، في الوقت الذي كانت تتعلم فيه بالتدريج الكثير من الفنون الصناعية الجديدة في كل المجالات .

واليابان التي كانت ماتزال دولة فقيرة وقتها ، كانت عندما تتعلم نوعا جديدا من التكنولوجيا تقوم بتوظيف عدد من الاجانب النوابغ وتجعلهم يعلمون الكثير من اليابانيين ، ثم يقوم هؤلاء بتعليم عدد كبير آخر .. وهكذا ، ذلك في نفس الوقت الذي كانت تطبق فيه نفس الطريقة في المجالات الأخرى .

واليابان لم تكن تشتري مصانع بكاملها ثم تترك ادارتها والتحكم فيها الى الأجانب .

بل كان هناك الكثيرون من اليابانيين يتعلمون من معلم اجنبي بارع ثم بعد ذلك يقومون بالتطبيق بصورة كافية .

كانت اليابان تأخذ كل ما هو جيد ثم تتعلمه حتى تتقنه تماما ، ثم تستغل تلك المعرفة في صناعة شيء جديد . والمفيد في هذه الطريقة هو انه لم تكن توجد فواصل بين التكنولوجيا المحلية التقليدية والتكنولوجيا المستوردة حديثا .

وذلك التوازن بين التقليد والابتكار لم يكن مقتصرا على التكنولوجيا فقط ، بل كان مطبقا ايضا في مجالات مختلفة مثل ما يتعلق بالادارة أو الشئون المالية .

ومنذ سنة ١٨٨٥ حتى سنة ١٩٤٠ وقبل ان تخوض اليابان الحرب العالمية الثانية ، في فترة الـ ٦٥ سنة تلك ، كانت اليابان قد استطاعت ان ترفع نسبة الانتاج الصناعي بمقدار أربعة وثمانية من عشرة بالمائة .

ومنذ سنة ١٩١٠ حتى النصف الثاني من الثلاثينات تضاعف الانتاج الاجمالي عشرين مرة ، والصناعات الثقيلة التي لم تكن تشكل سوى عشرين بالمائة من اجمالي الانتاج في بداية تلك الفترة ، صارت تصل الى ما يقرب من ستين بالمائة من ذلك الاجمالي قبل بداية الحرب العالمية الثانية ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى السرعة الكبيرة التي تقدمت بها تكنولوجيا الصناعة في اليابان . ومع ذلك فلا يعنى ذلك ان التصنيع في اليابان لم يواجه قسطا من المشاكل .

لقد قام اصحاب رؤوس الأموال الكبار بتشكيل الزمرات الاقتصادية التي تعرف باسم زايباتسو ، ثم وضعوا ايديهم في ايدي العسكريين الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة وبدأوا ينشئون دولة عسكرية تحت شعار «دولة مرفهة وجيش قوي» .

وقد لا يكون هناك بدأ من وجود قوة عسكرية معينة ، ولكن المشكلة هي الاعتماد الزائد عن الضرورة على تلك القوة .

لقد اهدرت الحريات داخل اليابان . كما ان التوسع الياباني العسكري في منشوريا والصين جعل اليابان تنعزل شيئا فشيئا عن المجتمع الآسيوي .

وبعد ذلك ، ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية .. انضمت اليابان الى المعسكر الفاشي ، ويبدو ان رؤوس مذهب عسكرة الدولة اليابانيين حينها لم يكن لديهم الادراك والفهم الصحيحين لحقيقة الوضع السياسي العالمي بالتأكيد .. لقد كانت أوضاع اليابان غير عادية قبل بداية الحرب وأثناءها .

ثم يأتي عام ١٩٤٥ .. وتواجه اليابان مرحلة نهاية الحرب ، ولكن في ذلك الوقت احترق ما يقرب من نصف عدد المنشآت الصناعية اليابانية بعد ان تعرضت للقصف الجوي الأمريكي ، اضف الى ذلك حالة الفوضى السياسية، ونتيجة لهذا وذاك اصيب النشاط الانتاجي بحالة من الشلل التام .

وفي هذه الفترة هبطت القدرة الانتاجية الى المستوى الذي كانت عليه سنة ١٩١٥ .. أي الى المستوى الذي كانت عليه قبل ثلاثين عاما من ذلك التاريخ .

هذا وقد تلقت اليابان تقريرا من عدة دول أجنبية وصفت انجازات اليابان ، التي استطاعت الوقوف على قدميها بعد الخراب الذي أصابها بسبب الحرب .. وصفتها بأنها ضرب من المعجزة .

وقد تم تصفية الزمرات الاقتصادية ـ الزايباتسو ـ بيد جيش الاحتلال الامريكي ، كذلك تم تقسيم الاراضي التي كان يملكها كبار الاقطاعيين .

ولكن انتهاء تكتل رؤوس الأموال والأراضي وتوزيعها على الكثير من الأفراد، أدى بطريقة طبيعية الى ظهور التنافس بمعناه الجيد .

فبفضل ذلك التنافس تكونت الأرضية التي شكلتها الجهود المتبادلة لكافة المواطنين، وكان أساسها العميق هو التعليم وبفضلها تحقق بعث اليابان .

وكما وضحت لحضراتكم من قبل ، فان مستوى التعليم في اليابان مرتفع ، ففي سنة ١٩١٠ كانت نسبة المتلقين للتعليم الابتدائي من الأطفال قد وصلت الى مائة بالمائة .

وفي الوقت الحاضر تبلغ نسبة المتقدمين للتعليم الثانوي ، اربعة وتسعين بالمائة ، وتحتل المرتبة الثانية في العالم من حيث نسبة التعليم الثانوي .. حيث يبلغ أربعة وثلاثين

بالمائة ، بينما تبلغ الولايات المتحدة الأمريكية سبعة وأربعين بالمائة ، أما المرتبة الثالثة فتحتلها فرنسا حيث نسبة التعليم تبلغ سبعة وعشرين بالمائة .. منخفضة عن اليابان بعشرة بالمائة .

ومن أجل تحقيق البعث الياباني بعد الحرب، كان يتطلب فترة طولها عشر سنوات من الاعداد والتجهيز .

وخلال تلك الفترة بذل الشعب جهوده لتوظيف التكنولوجيا التي كانت قد حصل عليها حتى ذلك الوقت ، فتم تحويل تكنولوجيا صناعة المدافع الرشاشة مثلا لكي تستخدم في صناعة ماكينات الخياطة . وتم تحويل تكنولوجيا صناعة المناظير المكبرة الخاصة بالاغراض العسكرية لكي تستغل في صناعة الكاميرات .. وهكذا ..

ان مهارة التطبيق هي خاصية من خواص اليابانيين ، وقد تقدمت تكنولوجيا اليابان بعمل توظيف عدد كبير من اليابانيين للكثير من فنون الصنعة لاستغلالها بأشكال متعددة . وفي هذا الصدد فان الذي لعب الدور الخطير والهام هو وجود الشركات والهياكل الاقتصادية ـ الصغيرة والمتوسطة التي استمرت في المحافظة على التكنولوجيا التقليدية بأساليب متعددة .

وللتعرف على أهمية الشركات الصغيرة والمتوسطة اليابانية ، دعونا نضرب مثلا بصناعة السيارات . في شركات السيارات بالولايات المتحدة الامريكية تتم عمليات تصنيع قطع الغيار ، وتصنيع الماكينات الكبيرة ، كذلك تتم عمليات التركيب كلها في مصانع ضخمة .

ولانه لا يتم ادخال سوى نوع أو نوعين من الماكينات في المصنع الكبير ، فحقا هناك امكانية للانتاج بكميات ضخمة .. ولكن في المقابل تنعدم امكانية تغيير الطراز .

أما في حالة اليابان ـ فيتم تصنيع معظم قطع الغيار في مصانع شركات صغيرة ملحقة بالشركة الكبيرة، ولان الشركات الصغيرة تتعدد بها فنون الصنعة ، فهي تجتهد لصناعة أي شيء تطلبه الشركة الام في حالة تغيير طراز السيارة .. مهما كان ذلك الطلب صعبا .

ولان كلا من الشركات الصغيرة تحتضن كما كبيرا من التكنولوجيا .. فهي تستطيع

القيام بعملية تغيير الطراز أو تحسينه بسهولة .

والسيارات اليابانية التي تسير بكمية قليلة من الوقود، يتم تصديرها باعداد كبيرة الى الولايات المتحدة الامريكية. والسبب في انخفاض الاقبال على شراء السيارات الامريكية، يرجع في جزء كبير منه الى هذه الظروف التي شرحناها. هناك الكثير من الشركات المتوسطة والصغيرة التي تحسن من صناعتها التقليدية ثم تربطها بالتكنولوجيات الحديثة .. ثم تقوم بتصنيع المنتجات الجديدة ..

هذا هو واحد من أسرار تقدم التكنولوجيا والعلوم في اليابان ، فاليابان لم تكن تقوم فقط بأخذ التكنولوجيا والعلوم الغربية . فاليابان في نفس الوقت الذي تدخل فيه تلك التكنولوجيا والعلوم ـ تقوم بتطوير وتحسين ما عندها من الاشياء التي تأخذ الطابع الياباني الخاص .

كما ان الظروف الدولية أيضا كانت عاملا ايجابيا في سبيل احياء الاقتصاد الياباني، ففي سنة ١٩٥٢ حصلت اليابان على استقلالها بعد الحرب ، ولكن قبل ذلك وفي سنة ١٩٥٠ .. اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية سياسة ايجابية من أجل احياء نهضة اليابان كرد فعل لتورطها في الحرب الكورية في ذات السنة .

لقد كان اشتعال تلك الحروب الكورية بمثابة الركيزة التي انطلق منها الاقتصاد الياباني بعد الحرب العالمية الثانية ومنذ ذلك التاريخ وحتى أزمة البترول التي حدثت سنة ١٩٧٣ .. ربما تتفق الآراء على أن تقدم اليابان كان واضحا ملحوظا .

وتقدم اليابان بعد الحرب ايضا كان يرتكز في كل مرحلة على شيء معين ، ففي البداية كان يتم التركيز على توفير صناعات أساسية مثل الحديد والصلب والكهرباء .. يلي ذلك مرحلة الاهتمام بالاجهزة الكهربائية .. ثم مرحلة تقوية صناعات التجميع والتركيب .

واليابان في الوقت الحاضر تشتهر في السوق العالمي بسلع متعددة من منسوجات النايلون حتى الراديو والتليفزيونات والكاميرات والساعات وماكينات الخياطة والسيارات والسفن، ولكن اليابان وصلت في نفس الوقت الى مستوى في العالم بفضل الابحاث التي تجري في معامل الابحاث الاهلية والخاصة على الانسان الآلي الخاص بالاغراض

الصناعية، والذي ادخلت فيه تكنولوجيا الكومبيوتر ، وعلى الاتصال بالضوء وعلى الكيمياء العضوية وغيرها .

ان دولة هزمت في الحرب العالمية الثانية وحتى وقتها، لم تكن تصدر سوى المنسوجات استطاعت الآن ان تلحق بالغرب ، بل هي الآن على وشك تجاوز مستوى الغرب في المجالات الصناعية .

وما يتضح من هذه النقطة ان التقدم العلمي والتكنولوجي يمكن مواصلته بذاته دون ان تكون هناك حاجة الى مواكبته بالتطبع بالروح الغربية .

حقا لقد ادخلت اليابان الطابع الغربي في مجالات متعددة ، ولكن ذلك لا يعني في حد ذاته ان اليابان قد اصطبغت تماما باللون الغربي .

ان الحداثة هي مسألة طبيعية مطلوبة، ويمكن تحقيقها بدون الجانب الروحي من التغرب أو التأمرك . ان التعايش المشترك بين الشركات المتوسطة والصغيرة التي تطبق التكنولوجيا اليابانية التقليدية ، والشركات الكبيرة التي تأخذ الشكل الغربي .. وهيكل التعاون بينهما قد أصبح واضحا امامنا من خلال النتائج التي وصل بها الى درجة تفوقه على الغرب في جوانب متعددة .

وهناك نقطة هامة ، وهي انه فيما يختص بحداثة التكنولوجيا والعلوم .. فانه اذا لم يتم اتقان التكنولوجيا الثانوية فسوف يكون ضربا من المستحيل أن يصل المرء الى استيعاب تكنولوجيا من مستوى أعلى .

وهنا دعوني أمثل لسيادتكم الخطوات الهامة في سبيل تحقيق الحداثة بسلم من عشر درجات .

حين بداية تسلق السلم، سوف يكون من المستحيل ان نصل الى درجة السلم الثانية بدون صعود الأولى ، والتي هي اتقان التكنولوجيا ، فحين ننظر الى مسألة نقل التكنولوجيا من دولة أجنبية .. سنجد انه سيكون من الضرورة بمكان ان يقوم الجانب المتأخر دائما بشراء واستقدام التكنولوجيا من الجانب المتقدم .

ان ما يوجد في الدرجة الأولى سوف يكون هاما بالنسبة لمسألة التكنولوجيا الثانية،

وسيترتب على ذلك ايضا ان تحتاجه الدرجة الثالثة .

التكاليف بحجم ما فيه ، ولكن اذا حدث ان كان الفرق بدرجتين .. فسوف يكون حجم التكاليف ٤ ، واذا كان الفرق بثلاث درجات منه ، يصل حجم التكاليف إلى ٣٦ .. وهكذا ..

اذا كانت هناك دولة لا تستطيع صنع الدراجة ، فسوف تتكبد تكاليف باهظة من أجل صناعة قمر صناعي ، ولكن أليس هناك الكثير من الدول النامية التي تقفز تلك الدرجات وتتجاهلها .. ثم تتلقى الاغراءات بشراء بضائع باهظة الثمن ؟

هذا .. وهناك تنافس شديد يدور حاليا بين الدول المتقدمة في مجال التكنولوجيا . وهذا التنافس لا يقتصر بالضرورة على جوانب البحث والتطوير .

ففي الفترة الاخيرة تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بتشديد احتكارها لاسرار التكنولوجيا المتقدمة، عن طريق شركات مثل شركة اي بي . ام للكمبيوتر وغيرها .

والدول المتقدمة تحول التكنولوجيا ذات الطبقة الاقل في المستوى الى الدول النامية أو الأقل تقدما ، أما التكنولوجيا ذات المستوى المتقدم والذي وصلت اليه ابحاثها فهي لا تبثها على الاطلاق .

وحتى اذا تنازلت عن تلك التكنولوجيا ، فهي لا تبيعها الا بأثمان خيالية أو بشروط مجحفة .

وهنا فمن أجل الدخول في منافسة مع دولة كبرى في مجال الحداثة، فمن الأهمية بمكان صعود درجات السلم بثبات واحدة فواحدة، ابتداءً من الدرجة الأولى .

ليس هناك داع لبناء طموحات كبيرة دفعة واحدة ، بل من الأفضل التقدم خطوة بخطوة بثبات مع تحسس موضع القدم . ومن أجل ذلك فالمهم هنا هو توجيه الاهتمام الى التكنولوجيا التقليدية .

قبل الثورة الصناعية الاوروبية وقبل سياسة المستعمرات ، كان العالم العربي

والاسلامي يزهو بما لديه من علم وتكنولوجيا رفيعة المستوى .

من الأهمية بمكان صقل فنون الصناعات التي خلفها لنا الاجداد، باضافة تكنولوجيا جديدة اليها ، ثم بذل الجهود لنشر الصناعة ، وكذلك صعود السلم ولو درجة فدرجة على أساس تلك الصناعات التقليدية .

فمنذ فتح الابواب امام العالم بعد حركة اصلاح ميجي، لم تكن اليابان تستطيع ان تصدر سوى المنسوجات .

أليس في وجود اليابان على حالها اليوم أكبر دليل على أن الفضل يرجع الى اتباع طريقة تطوير فنون الصناعة التقليدية وتطبيقها ؟

انني أعتقد أنه من الأفضل للدول النامية الا تلهث وتسعى وراء التكنولوجيا المتقدمة في الوقت الحالي، بل تركز جهودها على تنمية الشركات والمشروعات المتوسطة والصغيرة، وتطور صناعاتها التقليدية .

وفيما يتعلق بمجال الانسان الآلي المستخدم في الأغراض الصناعية وفي مستوى الابحاث ليس هناك فرق يذكر ، ولكن يقال ان اليابان عمليا قد تجاوزت أوروبا بكثير في هذا المجال .

ويقال ان ذلك الفرق يرجع سببه الى الشركات المتوسطة والصغيرة ، لدرجة ان أوروبا حاليا تقوم بدراسة جادة لهذه النقطة .

لقد تحدثت الى سيادتكم بخصوص حداثة اليابان مسلطا الضوء بصفة خاصة على خطوات التقدم العلمي والتكنولوجي . في الصيغة هناك عدد لا حصر له من النقاط التي تستوجب الحوار والجدل . منها مثلا نظام التوظيف .

ففي اليابان يتبع نظام العمل حتى نهاية العمر ، وبالنسبة للدول الاجنبية فالموظف الذي يملك المقدرة والنبوغ يستمر في الترقي والنجاح طالما اظهر نبوغه .. بل ويفيد الشركة التي يعمل بها أيضا .

ولكن ذلك النظام يخلق اتجاها يؤدي بالموظف إلى ألاّ يفكر في نتائج طويلة الاجل، ويجعله يحاول بقدر استطاعته تحقيق انجازات محدودة بالمدة المحسوبة القصيرة التي يشغل خلالها مركزه . ويجعله لا يعبأ بما يحدث بعد تقاعده .

ولكن اليابان تطبق نظام العمل في شركة واحدة محددة طول الحياة، ولذلك فالجميع يعملون وهم مزودون بنظرة بعيدة للمستقبل . وفوق ذلك فالعمل الجماعي عنصر حسن أيضا .

في النهاية، فيما يتعلق بقضايا الحداثة ، فحتى اليابان لم تسلم من وجود مشاكل خاصة بهذه النقطة، ان ما تعانيه الدول التي تقدمت بها الحداثة حاليا . هو ان تقدمها التكنولوجي قد أضحى يسير وحيداً، ولم تعد هناك وسيلة لايقافه . لم يعد الانسان هو الذي يتحكم في التكنولوجيا ، بل صارت هي على العكس في طريقها الى التحكم فيه .

ان الانسان الالي يحاول ان يتحكم في ابن آدم .

صار الانسان يصنع أكثر من اللازم ، ويستهلك فوق ما يحتاج اليه ، بالاضافة الى أن الاستهلاك قد أصبح غير عادل، فكما يوجد من الناس من يأكلون أكثر من طاقتهم، فهناك أيضا من يعانون من الجوع .. كما ان الموارد الطبيعية الموجودة فوق البسيطة في طريقها شيئا فشيئا الى أن تسنفد .

اذا كان جوهر الحداثة هو توسيع البشر بصورة عادلة ، فسوف نجدنا هنا امام تناقض كبير . اننا في حاجة الآن الى فكر فعال لمواجهة ذلك الوضع ، ولكن ترى هل يوجد ذلك الفكر في الثقافة العربية ؟

اننا حين ننظر الى الوراء الى تاريخ أوروبا ، سنجد فيه ميلا واضحا الى الفصل بين الروح والمادة، ففي العصور الوسطى كان رجال الدين المسيحي الذين يؤكدون على تفوق الروح .. كانوا يحتقرون المادة، أما في العصر الحديث والحاضر فان الناس الذين أضحوا عبيدا للمادة يتجاهلون الروح تماما .. ونتيجة لذلك فالأوضاع التي نحن عليها اليوم تزداد في تفاقمها .

ولكني اعتقد ان النظرة العالمية للتوحيد في الاسلام هي فكر قومي يستطيع مواجهة مثل هذه الاوضاع، فهنا لا يدعو هذا الفكر الى فصل الروح عن المادة .. أو الطبيعة عن الثقافة أو العلم عن دراسة الدين والفلسفة، ثم وضع واحد من هذه الأشياء على آخر . فكل شيء يوجد في هذا العالم، قد خلقه الله على مستوى واحد . وهنا فالانسان ليس هو اصلح الاجناس ، لقد مُنِحَ فقط أكثر القدرات عن غيره .

ذلك الانسان الذي منح أكثر القدرات، من الضرورة بمكان ان يحافظ على النظام المتوازن لهذه الدنيا باعتباره خليفة الله في هذه الأرض .

اليس هذا فكراً عظيماً يستطيع ان يختبر التعصب الأعمى لانسان العصر الحاضر تجاه ثورة التكنولوجيا؟ ان احدث الاكتشافات العلمية التي تجري في الوقت الحاضر في سبيلها الى ان تثبت صحة فكرة التوحيد هذه، لقد قال عالم الطبيعة ايشيش ان المادة والروح ليسا شيئين منفصلين . بل ان الامر لم يتعد سوى ان طريقة ظهورهما كانت مختلفة بينما الاساس واحد .

لم يعد علم الاحياء يسلم بنظرية داروين للتطور ، وأثبت اكتشاف ذلك الحامض فكرة الخلق الخاص التي تقصدها الاديان السماوية، ومن أن الانسان ليس هو اصلح الاجناس، وان الانسان ليس الا احد المخلوقات التي تشكل فرعا واحدا من بين فروع شتى لظواهر الحياة .

هناك أمثلة كثيرة على العموم في الابحاث العلمية والنظريات الغربية حاليا تقترب شيئا فشيئا نحو فكرة التوحيد .

منذ نظرية «ديكارت» التي تقول انا افكر اذن انا موجود، فان تيار علم الظواهر الذي جوهره أنا موجود اذن انا افكر، والنظريات التركيبية، والعلوم الحديثة في طريقه الى التحول من نظريات الشــرك التقليدية الغربية الى نظرية التوحيد . وبالنظر الى هذا التيار نعود ونسأل : لماذا يجب ان نعتمد على النظريات الغربية القديمة ان الحداثة لم تعد مرادفا للتغرب ، وليس روحانيات الغرب امرا هاما من أجل تقديم العلم والتكنولوجيا .

في النهاية فانني اتمنى لحضراتكم، مخلصا، ان تكرسوا جهودكم من أجل تنشيط تقاليدكم الخاصة بكم، وليس تقليد الغرب، أو تقليد اليابان، وادعو ان تنجحوا في تطبيق النتائج التي وصلت اليها اليابان والغرب، في نفس الوقت الذي تحافظون فيه على ثقتكم بثقافتكم الخاصة .

المحاضرة الخامسة

السيادة العربية الاسلامية في الخليج العربي والحياة الشرقية والغزو البرتغالي



للأستاذ الدكتور/
عبدالأمير محمد الأمين



الاستاذ الدكتور عبد الامير محمد أمين

* من مواليد البصرة بالعراق .
* تدرج في مراحل التعليم حتى حصل على شهادة البكالوريوس من دار المعلمين العالية في بغداد ١٩٥٠ .
* حصل على درجة الماجستير من جامعة مريلاند الامريكية عام ١٩٥٧ تحت عنوان: «المصالح البريطانية في بلاد ما بين النهرين في الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩١٤» .
* حصل على درجة الدكتوراة عام ١٩٦٢ وكان موضوع الرسالة «المصالح البريطانية في الخليج العربي من عام ١٩٤٧ ـ ١٩٧٨»
* عمل في سلك التدريس الجامعي في جامعة بغداد وتدرج حتى حصل على درجة الاستاذية .
* عمل أستاذا بكلية التربية بمكة المكرمة ثم جامعة الرياض .
* عمل أستاذا للتاريخ الحديث بالجامعة الاردنية في عمان بالأردن .
* أهم المؤلفات :

له العديد من الكتب باللغتين العربية والانجليزية من أهمها :

- القوى البحرية في الخليج العربي ١٩٦٦ .
- المصالح البريطانية في الخليج العربي .
- يوميات البصرة ١٩٨٠ وهو مصنف ضخم للوثائق الانجليزية الخاصة بالخليج والمحفوظة في دار السجلات في بومباي بالهند .
- دور السجلات في الهند : عن الوثائق الخاصة بتاريخ الخليج في كل من دلهي وبومباي بالهند .

* له عدد كبير من البحوث والمقالات التي نشرت في مجلات علمية عربية واجنبية .
* شارك في العديد من المؤتمرات العلمية من أهمها :

١ ـ المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣ .

٢ ـ مؤتمر مصادر تاريخ الجزيرة العربية في الرياض ١٩٧٧ .

٣ ـ مؤتمر الخليج العربي (مركز دراسات الوحدة العربية) بيروت ١٩٨٠ .

السيادة العربية الاسلامية في الخليج العربي والحياة الشرقية والغزو البرتغالي

انتهت الحروب الصليبية التي شنها الأوروبيون خلال العصور الوسطى، بنجاح المسلمين في طرد الصليبيين من كل جزء من أجزاء الوطن الاسلامي . لقد انتهت تلك الحروب، ولكن روحيتها لم تنته ، وجذوتها لم تخمد ، ورغبة الاوروبيين في الانقضاض على الشرق الاسلامي لم تتضاءل، وهكذا تجدون الحرب الصليبية في أوائل العصر الحديث،وكان سكان جزيرة ايبريا (أخص البرتغاليين) هذه المرة أبطالها، ومياه الشرق مجالها وميدانها، ومحاربة الاسلام والمسلمين شعارها، وتدمير التجارة الاسلامية والسيطرة عليها هدفها .

كان الخطر الاسلامي بالنسبة للشعوب الاوروبية الاخرى : الفرنسيين والألمان والانجليز يبدو بعيدا ووهميا، ولم يكن الامر كذلك بالنسبة لشعوب شبه جزيرة ايبريا . فقد كان المسلمون لا يزالون في جزء من جزيرتهم، والمسلمون الأقوياء يواجهونهم عبر جبل طارق .

لقد كان الاسلام هو العدو الحقيقي واللدود للبرتغاليين، ويرى الفرد البرتغالي في محاربة المسلمين ضرورة يحتمها الدين والوطن. ويعلق ك.م. بانيكار ، وهو أحد الباحثين في تاريخ التوسع الاوروبي في آسيا ، على هذا الأمر قائلا «... وسيظل الشيء الكثير من تصرفات البرتغاليين في آسيا غامضا لا سبيل الى تفسيره، ما لم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام» . ولعله مما يلفت الانتباه، أنه على الرغم من الحماس الديني الذي اتسم به البرتغاليون ، فان اندفاعهم للتبشير في الشرق، بعد ان وصلوا اليه، لم يكن بهذه القوة وبتلك المثابرة ، وكأن الحماس الديني لم يكن يعني شيئا بالنسبة للبرتغاليين سوى محاربة المسلمين .

لقد كانت ظروف البرتغاليين ملائمة خلال القرن الخامس عشر للقيام بتلك الحرب الصليبية الجديدة، والاندفاع نحو الشرق . فالبرتغال تتمتع بسواحل طويلة على المحيط، وشعبها ذو خبرة بالملاحة والصيد ، وفيها فئة تجارية كبيرة ونشطة، كانت قد رفعت عن كاهلها نير الامراء الاقطاعيين، وكان أصحاب السفن البرتغاليون يمثلون طائفة قوية، وهي تتمزق شوقا لربح أكبر، وذلك بتحويل تجارتها من سلع ذات ربح قليل كالخمور والاسماك والملح، الى سلع تدر ربحا اكبر، مثل الرقيق والذهب والتوابل .

واندفع البرتغاليون منذ أوائل القرن الخامس عشر في الاستكشاف والغزو لتحقيق هدفهم الديني والاقتصادي، وتهيأ لهم في شخص الأمير هنري الملاح القائد الكفء، والجندي والصليبي المتحمس .

بدأ هنري مشاريعه بمهاجمة واحتلال ميناء سبتة الهام في شمال افريقيا عام ١٤١٥ . وهذه حملة صليبية حقيقية كان هدفها ضرب المسلمين في واحد من أهم معاقلهم، وكما دعاها أزورارا Azurara ، وهو مؤرخ برتغالي معاصر «مفتاح البحر الابيض المتوسط» . وكان لاحتلالها صدى في أوروبا والشرق على حد سواء . ولا تكمن الأهمية في نجاح الهجوم بقدر ما تكمن في نتائجه . فلم تكن النتيجة دك المدينة وتدميرها وتركها، كما كان يحدث في حالات مماثلة ، بل الاحتفاظ بها، وتحويلها الى قاعدة مسيحية فيما وراء الحدود الاوروبية، بعد ان كانت أرضا اسلامية .

وكان الاستيلاء على سبتة يحمل في طياته احتمالات كثيرة، فقد ينطلق البرتغاليون منها لمهاجمة مراكش أو الموانىء والقواعد الاسلامية الأخرى في شمال افريقيا . وقد يمكن الاستفادة منها لجمع المعلومات الضرورية لحركة استكشافات مقبلة في غرب افريقيا .

وبسقوط سبتة اتخذت الحركة الصليبية منعطفا جديدا، فقد تحولت من طابعها الذي اتسمت به خلال العصور الوسطى، الى طابع حديث . ومن حرب ضد المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط، الى صراع شامل ضد المسلمين في كل مكان : بضرب معاقلهم وتدمير تجارتهم وقطع طرق مواصلاتهم . وحمل العقيدة المسيحية والسلام المسيحي، والتجارة الاوروبية، الى جوانب العالم المختلفة .

تلا استيلاء البرتغاليين على سبتة حركة استكشافات جغرافية مكثفة استغرقت قرنا كاملا من الزمن . كان هدف البرتغاليين المباشر منها ايجاد طرق جديدة للشرق . أما هدفهم النهائي فهو تحقيق أغراضهم الدينية والاقتصادية الانفة الذكر . وكان الشرق وتجارة الشرق ومحاصيل الشرق موضع اهتمام الاوروبيين منذ القدم . وتتمثل السلع الشرقية في الأنسجة الثمينة والاحجار الكريمة والعطور والبخور، والأهم من كل هذا وذاك التوابل، وكان الأوروبيون بحاجة ماسة الى التوابل بالذات ، فمن المعروف جيدا انه حتى القرن السابع عشر، كانت المجتمعات الاوروبية تعاني من نقص في العلف الحيواني خلال فصل الشتاء . وقد دفع هذا النقص في العلف بالاوروبيين الى ذبح الماشية خلال فصل الخريف وحفظ لحومها للشتاء، ويتم ذلك الحفظ بوسائل متعددة مثل : التمليح ، والتدخين أو اضافة التوابل ، والتوابل كلها محاصيل شرقية ، وتحمل من الشرق الى أوروبا بطرق طويلة ومعقدة، وبتكاليف باهظة جدا . وأشهر التوابل : الفلفل ، وهو أكثر التوابل شيوعا، وينتج في الهند وجزر الهند الشرقية ، ونوعية اقل جودة ينتج في غرب افريقيا ، والدارسين : وينتج في سيلان، وجوز الطيب: وتنتج في جزر الهند الشرقية. والزنجبيل: وينتج في الصين. ونوع اقل جودة ينتج في ساحل الملبار، الساحل الجنوبي الغربي لشبه القارة الهندية، ولعل اصلح التوابل، وافضلها لعملية حفظ اللحوم، هو القرنفل، وينتج في جزر قليلة العدد، صغيرة المساحة، تعرف بمجموعة جزر Molucca، وتشمل هذه المجموعة : جزيرة Tidar وTemate وAmboina وجزر Bouda

وتجارة التوابل ونقلها من الهند والشرق الأقصى الى بقية أنحاء العالم، قديمة قدم التجارة البحرية نفسها ، ولكن الجزء الأخير من القرون الوسطى، شهد تطورين مهمين بالنسبة لتجارة التوابل : أولهما ازدياد تدفق التوابل على أوروبا، نتيجة لازدياد استهلاكها في اجزاء كثيرة من أوروبا، ويُفسر هذا بنمو التجارة في البحر الابيض المتوسط، وازدياد الاستقرار في اجزاء مهمة من أوروبا، بعد الفوضى الاقطاعية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وارتفاع مستوى المعيشة عند فئات معينة في المجتمع الأوروبي : النبلاء ورجال الكنيسة ورجال الصناعة والتجار، وازدياد اهتمام هذه الفئات في المأكل والملبس ، والتوابل تضفي على الطعام مذاقا زكيا .

اما التطور الآخر الخاص بالتوابل فهو ان مراكز انتاج التوابل وطرق تجارتها، قد وقعت كلها تقريبا بيد المسلمين خلال القرن الخامس عشر . والواقع ان تجارة التوابل في هذا الوقت ، ترتبط ارتباطا وثيقا بانتشار الاسلام غربا وشرقا على حساب المسيحية والهندوسية . فمن ناحية، اندفع العثمانيون في شرق أوروبا، واندفعت قوة اسلامية اخرى من وسط آسيا الى الهند، حيث اقامت أسر حاكمة اسلامية في دلهي . ولهذا اصبح طريق التجارة البحري بين آسيا وأوروبا عبر ايران وروسيا والاناضول تحت رحمة المسلمين .

وفي الوقت نفسه سيطر المستوطنون العرب على المدن والتجارة في الاجزاء المهمة من شرق افريقيا، وامتد نفوذهم جنوبا حتى موزمبيق .

ونجحت اسر اسلامية عديدة في تثبيت كيانها في أجزاء هامة على السواحل الغربية للهند . والحقيقة ان الامارات الهندوسية في تلك السواحل قد اختفت الواحدة بعد الأخرى ، ولم تستطع الصمود في وجه التوسع الاسلامي سوى امارة فيجايونوكار Vijayonagar الهندوسية الغنية والقوية في الجنوب .

وحمل التجار المسلمون ديانتهم كذلك الى اندونيسيا والملايو، واقاموا في كثير من الجزر هنا كيانات سياسية مستقلة وأسرا حاكمة ، كانت في غالبيتها ملاوية في عنصرها، اسلامية في ديانتها . انهم حكام صغار يحكمون مدنا وجزرا صغيرة ، ولكن تلك الجزر كانت المنتجة الرئيسية لكثير من التوابل الثمينة .

هذا من ناحية مراكز انتاج التوابل، اما من ناحية طرق تجارتها البحرية، فكانت هي الاخرى بيد المسلمين، وخاصة العرب منهم ـ عرب جنوب اليمن والخليج العربي وعمان ـ والطريق البحري يسير من الهند الى هرمز في الخليج العربي، ثم الى نقطة في رأس الخليج هي البصرة، ومن هناك بواسطة القوافل الى حلب، ومنها الى ساحل البحر الأبيض المتوسط . وقد تسير الى عدن والى جدة ثم الى القاهرة وساحل الابيض المتوسط لتنتشر من هناك الى أوروبا .

والتجارة الآنفة الذكر كانت كلها تسير بموجب نظام معين، تتحكم فيه الرياح

الموسمية . وكانت هذه هي نفس الحال لمئات السنين التي سبقت الاسلام .

وهكذا يمكن القول انه بحلول عام ١٥٠٠م كانت أماكن انتاج التوابل وتجارتها وطرق تلك التجارة، كلها تقريبا بيد المسلمين، وكما يقول ج.هـ. بري : أينما ذهب الاوروبيون يجدون المسلمين قد سبقوهم .

كانت تكاليف تلك التجارة باهظة جدا ولكن الارباح كبيرة كذلك . وقد قيل لو ان تاجرا شحن ست سفن وخسر خمسا منها فانه يحقق أرباحا طائلة يعوض عن خسائره ببيعه حمولة السفينة السادسة .

ومن هنا جاء حماس البرتغاليين للوصول للشرق بسلوك طرق أخرى غير تلك التي يسيطر عليها المسلمون، وذلك للوصول مباشرة الى اماكن انتاج التوابل .

وهكذا جاءت محاولات البرتغاليين لارتياد ساحل افريقيا الغربي، بغرض الوصول الى الطرف النهائي للقارة السوداء للقفز منه الى الشرق .

هذا ومما تجدر الاشارة اليه ، انه لم تكن هناك القناعة التامة بوجود مثل هذا الطرف الذي يمكن الدوران حوله للانتقال الى المحيط الهندي . ومع هذا فقد كان ارتياد ساحل غرب افريقيا جديراً بالاهتمام . فقد اعتقد البرتغاليون انه اذا تبين عدم امكانية الدوران حول افريقيا، يبقى احتمال اكتشافهم لنهر أو ممر في الساحل الغربي لافريقيا، يؤدي بهم الى التوغل من أواسطها، وقد يصلون الى منابع نهر النيل . وقد يتمكنون من الانحدار في مجرى هذا النهر ليهاجموا المسلمين من الخلف، ثم قد يعثرون خلال ارتيادهم هذا على مملكة Prester John . ولهذا وبالتعاون، معها يستطيعون تطويق المسلمين وحصرهم بين فكي الرحىٰ.

وبالاضافة الى كل تلك الاحتمالات والتوقعات الخرافية منها وغير الخرافية ، تبقى هناك حقيقة واحدة، هي ان سكان شمال افريقيا العرب، يسيرون قوافلهم جنوبا حيث يتاجرون مع السكان الزنوج، على الاطراف الجنوبية للصحراء الكبرى ، فاذا نجح البرتغاليون في شق طريقهم بحرا الى أولئك الزنوج، فقد ينجحون في حمل ديانتهم

المسيحية اليهم من ناحية، ويستطيعون ضرب جانب من جوانب تجارة المسلمين من ناحية أخرى .

كرس الأمير هنري الملاح جهوده بعد استيلائه على سبتة عام ١٤١٥ للاستكشافات الجغرافية . وكان عمله يتميز بالتنظيم والمثابرة ، فأسس مدرسة خاصة للملاحة، وقام بارسال الحملات الاستكشافية الكثيرة، وجمع المعلومات الخاصة بالبحار والسواحل والرياح، وغيرها من الامور، وطور آلات الملاحة ورسم الخرائط وحسن بناء السفن لتصبح ملائمة بصورة أفضل للرحلات البحرية البعيدة المدى .

ولم تكن عملية الاستكشاف سهلة وميسرة ، فقد تطلب الأمر بذل جهود متواصلة لمدة خمس عشرة سنة، لاجتياز رأس بوجادور Cape Bojador وهو أول معلم مهم في ساحل افريقيا الغربي يتم اكتشافه في عام ١٤٣٥ . وكانت هناك مخاوف كبيرة من الوصول الى هذا الرأس واجتيازه، فهناك الخرافات القائلة بأن المياه الى الجنوب منه في حالة غليان مستمر، وقد تُصهر فيها السفن ومن عليها ، وأن الملاحين في بعض مناطق المحيط الهندي جنوب رأس بوجادور يتحولون الى زنوج . وتجاوز البرتغاليون الرأس دون ان يحدث شيء من هذا أو ذاك .

وسارت عملية الاستكشاف بخطى حثيثة. وبعد اجتياز رأس بوجادور ، توفي هنري الملاح عام ١٤٦٠م، ولكن حركة الاستكشاف استمرت من بعده ، واعترف مواطنوه بفضله ، كما اعترف البابا نيقولا الخامس بذلك، فقد جاء في احدى البيانات البابوية :

«إن سرورنا لعظيم ان نعلم ان ولدنا هنري امير البرتغال ، اذ يترسم خطى والده العظيم الذكر الملك يوحنا، واذ تلهمه الغيرة التي تملأ النفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله الى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا، كما أدخل بين احضان الكاثوليكية الغادرين من اعداء الله واعداء المسيح مثل العرب والكفرة» ..

تولى الملك جون الثاني عرش البرتغال في عام ١٤٨١ ، وكان كأسلافه متحمسا للاستكشافات الجغرافية . وكانت جهود البرتغاليين لا تزال منحصرة في ارتياد الساحل الغربي لافريقيا . واستعان الملك باثنين من أكفأ الملاحين في تاريخ الريادة والاستكشاف،

أولهما دياكوكو Diogo cao والآخر بارثلوما دياز Bartolomeu Diaz . ووصل الأول الى مصب نهر الكونغو ، بل واكتشف جزءا من مجراه . أما دياز فكان ما قام به أهم من ذلك بكثير ، فقد استطاع عام ١٤٨٧ تحقيق حلم البرتغاليين في الوصول الى الطرف النهائي للقارة الافريقية، واطلق اسم «رأس العواصف» على ذلك الطرف . ولكن الملك جون الثاني سماه بنفسه «رأس الرجاء الصالح» . ولا يعتبر انجاز دياز مجرد استمرارية للجهود الاستكشافية البرتغالية ، بل ثورة في هذا المجال ، فقد وصل البرتغاليون اخيرا للمحيط الهندي ، وأصبح الشرق وخيرات الشرق وتجارة الشرق في متناول اليد .

صار الطريق الى الهند مهيئا الان ، ولكن فترة من عدم الاستقرار السياسي اجتاحت البرتغال، حالت دون اتخاذ البرتغاليين للقرار المهم، وهو ارسال حملة للهند ، ثم اتخذ هذا القرار في عام ١٤٩٥، وهو العام الذي تولى فيه مانوئيل الاول ١٤٩٥ ـ ١٥٢٠ عرش البرتغال ، ولم ينفذ الا في عام ١٤٩٧ .

واسندت قيادة الحملة الى الهند الى ملاح ماهر هو Vasco da Gama . وأبحر هذا من لشبونة في ٧ تموز عام ١٤٩٧هـ مع ثلاث سفن، على ظهرها ١٤٨ مائة وثمانية واربعون رجلا، وتجهيزات تكفي لثلاث سنوات ، وكانت معه رسائل من ملك البرتغال الى ملك Prester John والى حاكم كاليكوت .

وعرج في طريقه على ساحل شرق أفريقا لاخذ تجهيزات اخرى وجمع معلومات ، وفي مالندي تعرف على الملاح العربي الشهير ابن ماجد، فساعده في الابحار عبر المحيط الهندي الى ساحل الملبار، حيث وصل الى كاليكوت في ١٨ آيار عام ١٤٩٨، وأقام دي كاما علاقة مع حاكم كاليكوت . وعندما سأله الأخير عن الدوافع التي حملته وجماعته للمجيء الى الهند، أجابه بكلمتين «المسيحية والتوابل» . ولكن العلاقات سرعان ما توترت بين دي كاما والحاكم المذكور ، وقد عزا البرتغاليون ذلك الى دسائس المسلمين ، والواقع ان حاكم كاليكوت اخذت تساوره الشكوك حول نوايا البرتغاليين ، اضافة الى ذلك، فانه لم يكن يرغب في التودد الى البرتغاليين على حساب العرب، الذين تربطه معهم مصالح مشتركة، يعود تاريخها الى زمن طويل .

على أية حال ، وبعد صعوبة كبيرة، جمع دي كاما كميات من الفلفل والدارسين ، وبهذه الحمولة عاد الى أوروبا . وقد غادر كاليكوت في ٢٩ آب عام ١٤٩٨، ووصل الى لشبونة في ١٠ تموز عام ١٤٩٩، واستغرقت رحلته الى الهند سنتين ويومين .

وأثار رجوعه موجة من الفرح والتفاؤل، وبادر الملك مانوئيل الى الكتابة الى البابا يعلمه بالانجاز الكبير الذي حققه البرتغاليون، ويطلب منه اقرار ادعاءاته بهذا الشأن، واستجاب البابا لذلك ، وأعلنه في مرسوم بابوي جاء فيه: «قد منحنا الى الملك أفونسو الحق الكامل المطلق، في غزو وفتح وقهر جميع الاقطار الواقعة تحت حكم اعداء المسيح، مسلمين كانوا أو وثنيين» . ومنح الملك مانوئيل نفسه لقبا خاصا هو «سيد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند» .

وحتى في مثل هذا الوقت المبكر لعلاقات البرتغاليين بالشرق، لم يحصر البرتغاليون طموحاتهم بمجرد التجارة ، بل كانت أبعد كثيرا من ذلك. ولعل هذه الرسالة التي بعثها الملك مانوئيل الى فرناند وازبيلا ملكي أركون وقشتالة ، توضح المطامع البرتغالية وتبلور المخططات العدائية لهم .

«ان المسيحين الذين اكتشفناهم ووصلنا لهم، ليسوا على درجة كبيرة من قوة العقيدة ، بل انهم ينقصهم الايمان الكامل بها . وعندما يحين الوقت ويتحصنون بالايمان، فستكون فرصة مهيئة لنا لتدمير المسلمين في هذه المناطق . والأكثر من هذا اننا نأمل بعون الله ان هذه التجارة الكبيرة التي تغني الان أولئك المسلمين سوف تنتزع منهم لتتحول الى رعايا وسفن مملكتنا» .

ومما تجدر الاشارة اليه أن أولئك المسيحيين الذين يتكلم مانوئيل عنهم، ووصف عقيدتهم بأنها ليست على هذه الدرجة من القوة، هم الهندوس . فقد كان الاعتقاد السائد في أوروبا، ان اتباع هذه الديانة السائدة في الهند هم مسيحيون، ولكن من نوع آخر . وعلى هذا الاساس كان الاعتقاد انه يمكن التفاهم معهم، بل من الممكن تصحيح مسيحيتهم والتعاون معهم. وكما يقول K. G. Jayne «لقد كان شعار البرتغاليين في الشرق صداقة ووداً مع المسيحيين، وحربا وعداء مع المسلمين» .

وسرعان ما أعد البرتغاليون اسطولا جديدا للتوجه الى الشرق ، وكان اعظم واحسن اسطول جهزه البرتغاليون للكشف والارتياد ، فقد كان يضم ١٣ سفينة بقيادة نبيل برتغالي شاب، هو بدرو كابرل Pedro Cabral وتعرض الاسطول لكثير من المتاعب خلال الرحلة ، ولم تصل منه الى شواطىء الهند الا ست سفن فقط . وساءت العلاقات بين البرتغاليين وحاكم كاليكوت، فعمد كابرل الى قصف كاليكوت بشدة ، ثم تحول الى موانىء هندية أخرى مثل كوجين Cochin وكانانور Cannanor ، وكان حاكماهما معاونين لحاكم كاليكوت . واقام كابرل له مقرا تجاريا في كوجين، وترك بعض رجاله هناك، وعاد بسفنه الى أوروبا .

وجُهز أسطول برتغالي ثالث للذهاب الى الشرق في عام ١٥٠٢ ، وقد اسندت قيادته الى دي كاما مرة أخرى ، وكان اسطوله قويا حقا ، ولم يكن على أية حال مجرد اسطول تجاري . فقد ضم أربع عشرة سفينة مسلحة تسليحا جيدا . وعند وصول دي كاما الى كاليكوت، وكانت العلاقات لا تزال متوترة بين حاكمها والبرتغاليين، قام بقصف الميناء قصفا شديدا ومدمرا، الأمر الذي أرعب الحاكم، فطلب التفاهم مع دي كاما، ولكن هذا اجابه بتعال وازدراء، بأنه لايقبل بشيء أقل من طرد المسلمين جميعا، واخراجهم من كاليكوت . وأُعِدّ الحاكم في هذا الوقت اسطولا بمساعدة التجار العرب لتحدي البرتغاليين ، ولكن دي كاما نجح في استئصال ذلك الاسطول على الرغم من كثرة عدد سفنه .

لقد خسر المسلمون أول معركة بحرية لهم ضد البرتغاليين، وسوف يخوضون معارك أخرى ثانية . وهنا يُطرح سؤال حول سبب التفوق البحري الذي تمتع به البرتغاليون، على الرغم من قلة عدد سفنهم ومواردهم، بالمقارنة مع اعدائهم الشرقيين . هناك عوامل عديدة لذلك في مقدمتها طبيعة السفن البرتغالية، والقوة النارية التي كانت تتمتع بها، والقيادة الكفوءة التي كانت لها، والقدرة على المناورة التي تميزت بها .

فمن ناحية السفن ، كانت السفن البرتغالية متينة البناء ، قادرة على الابحار لمسافات بعيدة في وجه رياح عاتية وعواصف شديدة . وكان البرتغاليون قد صرفوا كثيرا من الجهد ، وأدخلوا كثيرا من التحسينات على سفنهم طيلة القرن الخامس عشر ، واذا

قورنت بالسفن الاسلامية، نرى ان هذه تبدو ضعيفة، وكانت تعتمد في رحلاتها البحرية على الرياح الموسمية أكثر مما تعتمد على متانتها وقوتها وقدرتها الذاتية . ثم هناك القوة النارية للسفن البرتغالية ، لقد حملت السفن البرتغالية المدفعية على ظهرها ، واستخدم البرتغاليون تلك المدافع بشكل مكثف وفعال ، ولم يكن حمل المدافع على ظهور السفن أمرا مألوفا حتى الان في الشرق . ولعل العثمانيين هم الوحيدون من بين جميع الشرقيين الذين استخدموا المدفعية في بحريتهم في هذا الوقت ، ولكن العثمانيين كانوا لا يزالون بعيدين عن هذه المياه ، وعندما وصلوا اليها بعد عشرين سنة تقريبا، وجدوا البرتغاليين وقد وطدوا أقدامهم وحصنوا مواقعهم وصار من الصعوبة بمكان زحزحتهم . ثم هناك القيادة ، فالقيادة البرتغالية تميزت في هذا الوقت بالكفاءة الفائقة والمتميزة، ولعل ذلك يعود الى الخبرة البحرية والملاحية الهائلة التي اكتسبها البرتغاليون خلال فترة الاستكشافات، التي شملت القرن الخامس عشر برمته كما رأينا، والشيء نفسه يقال عن عجز السفن الشرقية في مجال المناورة ، فلم تكن لدى السفن الشرقية القدرة على خوض معارك في عرض البحار، ولم يكن للسفينة الاسلامية القدرة على القتال ضمن مجموعة من السفن تحت قيادة واحدة، وفي مواجهة اسطول من هذا النوع .

وأخذ ملك البرتغال يتصرف وكأنه الحاكم الفعلي لبلدان الشرق، وفي عام ١٥٠٥ عين دا الميدى Don Francisco da Almeida بمنصب نائب للملك في الشرق ، وأمره بالتوجه الى هناك، وجهزه بتعليمات مفصلة وكثيرة، أهمها ضرورة تحطيم وتدمير تجارة المسلمين أينما وجدت، وضمان سيادة برتغالية لا منافس لها في البحار الشرقية . وعليه لتحقيق هذا الغرض عقد محالفات مع حكام الهند المعادين للمسلمين ، وعليه تأسيس مقرات تجارية، وبناء قلاع حصينة على السواحل الشرقية والغربية للقارة الافريقية، وبناء قلعة في مدخل البحر الأحمر لعرقلة تجارة التوابل التي يقوم بها المسلمون، والتي تنقل عادة من موانىء البحر الأحمر بواسطة القوافل الى الاسكندرية، حيث تذهب من هناك الى أوروبا .

وعند وصول الميدي الى سواحل الهند، أرسل حاكم كاليكوت أسطولا لمقاومته، ولكن هذا الاسطول دمر بفعل نيران احدى عشرة سفينة برتغالية . لقد ضمن البرتغاليون

الان لانفسهم سيادة مطلقة على سواحل الهند الغربية ، واضطر المسلمون الى ترك تلك السواحل ، وذهبوا الى ملقا Malacca ، والى الجزر المنتجة للتوابل للحصول على هذه السلعة مباشرة من هناك وحملها الى سيلان ، ومن ثم الى الخليج العربي والبحر الأحمر لتجنب ساحل الهند الغربي حيث البرتغاليون .

ولضمان التفوق البرتغالي، ولانجاح مهمة الميدي، فقد عززت قواته باسطولين آخرين، أولهما بقيادة Tristao de Cunha . والآخر بقيادة Afonso Albuquerque وتجول Cunha في سواحل مدغشقر، وجزء من سواحل شرق افريقيا، ثم احتل جزيرة سوقطرة عند مدخل البحر الأحمر قبل رحيله الى الهند .

اما البوكرك فقد توجه الى الساحل العماني ودمر بعض الموانىء العربية هناك واستسلم له بعضها . وفي شهر ايلول ١٥٠٧ ظهر أمام جزيرة هرمز قلب التجارة ومركزها في منطقة الخليج العربي ، ودمر السفن الرأسية عند الجزيرة وأجبر حاكمها على دفع جزية، والاعتراف بسيادة ملك البرتغال ، وشرع في بناء قلعة فيها، وترك بعض رجاله ورحل الى الهند .

وفي هذا الوقت ظهر اسطول مصري في هذه المياه، وبرهنت القاعدة البرتغالية في سوقطرة انها بعيدة جدا عن أن تستطيع النيل من هذا الاسطول . وفي عام ١٥٠٨ اعترض الاسطول المصري اسطولا برتغاليا يقوده ابن الميدى .. ودارت معركة قتل فيها القائد البرتغالي .. وشق المصريون طريقهم الى سواحل الهند عبر المحيط الهندي .

وجمع الميدى اسطولا كبيرا مؤلفا من تسع عشرة سفينة، على ظهرها ١٦٠٠ من الرجال، ووقعت معركة بحرية كبيرة عند ديو Diu بين الاسطولين البرتغالي والمصري في ٢ شباط عام ١٥٠٩ . وقد دمر البرتغاليون الاسطول المصري . وبهذا أكد البرتغاليون سيطرتهم البحرية من ناحية، وسيادتهم على سواحل الهند الغربية من ناحية أخرى ..

بعد سنوات قليلة من وصولهم الى الشرق، نجح البرتغاليون في قطع شوط بعيد في طريق ارساء أسس لامبراطورية بحرية واسعة . وعلى الرغم من هذا النجاح تبقى الحقيقة الثابتة ، وهي انه في مجال المنافسة الحرة المجردة لم يكن امام البرتغاليين فرص

تذكر للنجاح . فلم يكن بامكانهم ، حتى لو ارادوا ذلك ، عرض سلع أحسن ، أو البيع بسعر أقل ، أو الشراء بسعر أعلى ، أو اغراق السوق بالبضائع ، والسلع التي كانوا يعرضونها محدودة وغير جذابة في نظر الشرقيين ، بل ان البرتغاليين أنفسهم نظر اليهم الشرقيون على انهم حفنة من الناس متهورون منفرون قذرون متبربرون . لقد استوعب البرتغاليون هذا الأمر منذ البداية ، وادركوا تماما ان لا سبيل للاستفادة من اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، والوصول الى الهند ، الا بتدمير تجارة المسلمين والسيطرة عليها بالقوة وبحد السيف ، وحققت لهم القوة فعلا تلك الانجازات التي تم الحديث عنها .

وشعر البرتغاليون بأن الحفاظ على مكاسبهم في الشرق يتطلب اقامة نظام بحري شامل يضم البحار الشرقية والممرات المائية والمراكز والموانىء الاستراتيجية، في مختلف نواحي الشرق، في سواحل الهند، وفي جزر الهند الشرقية، وفي الخليج العربي، وفي البحر الاحمر، وقد وقع تنفيذ ذلك المخطط على عاتق البوكرك الذي تولى منصب نائب الملك عام ١٥٠٩ خلفا لـ الميدي الذي انتهت مهمته .

عندما وصل البوكرك الى الشرق قبل سنوات من توليه منصب نائب الملك ، كان الوجود البرتغالي آنذاك في الشرق، يتمثل في بعض المقرات التجارية على ساحل الملبار بشكل خاص . وكان يشرف على تلك المقرات موظفون ملكيون ووكلاء التجار . كما كان هناك أسطول برتغالي يتوجه الى الشرق كل عام أو كل عامين، لجمع التوابل وحملها الى البرتغال لتباع من هناك الى الاوربيين .

هذا هو الوضع الذي كان على البوكرك ان يغيره بجملته . فقيام امبراطورية برتغالية بحرية في الشرق يتطلب أولاً وقبل كل شيء اسطولا دائما في المحيط الهندي، على ان تتوفر لهذا الاسطول قواعد ملائمة في مختلف أنحاء الشرق، فهذه القواعد توفر للاسطول البرتغالي التسهيلات اللازمة، وتحتفظ له باحتياط دائم من الرجال، يستطيعون أن يحلوا محل أولئك الذين يموتون في الحروب، أو من جراء قسوة المناخ والأمراض . وتحتاج القواعد الآنفة الذكر الى قلاع حصينة تحمي القواعد من ناحية، وتوفر الاسناد للاساطيل البرتغالية في حالة الضرورة من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى يتطلب الأمر اقامة نظام بحري محكم ومتكامل . وهذا المخطط الطموح باهظ التكاليف، صعب

الانجاز، فالسيطرة على طرق تجارة الشرق ومراكزه الاستراتيجية البحرية ليست من الامور اليسيرة، ولم تستطع قوة أو أحد انجازها من قبل ، وتبدو هذه الصعوبة اكثر وضوحا اذا تذكرنا صغر البرتغال وبعدها، ومواردها البشرية والمالية المحدودة .

ان خيال البوكرك الرحب وتصميمه ومثابرته كلها أمور لا تعرف الحدود . فبعد ان تولى منصب نائب الملك، قرر اتخاذ عاصمة للامبراطورية البرتغالية في الشرق، ووقع اختياره على كَوا Goa ، وهذه جزيرة لها ميناء جيد ، ولم يكن الاستيلاء عليها من الامور اليسيرة، فقد كان حاكمها Hidalcao مصمما على الدفاع عنها، ونجح فعلا في دفع البرتغاليين عنها بعد ان احتلوها لفترة قصيرة، ولكن البوكرك نجح اخيرا في امتلاكها في أواخر عام ١٥١٠. وقد حصنها وبنى قلعة كبيرة فيها . وصارت منذ ذلك الوقت عاصمة للبرتغاليين في الشرق ، ولم يكن الاحتفاظ بـ Goa سهلا كذلك ، فالمياه التي تفصلها عن اليابسة ضحلة يمكن للخيول من اليابسة خوضها والوصول الى الجزيرة ، وهذه الحقيقة دفعت البرتغاليين لسنين طويلة الى فرض حصارٍ بحريٍ على الشواطىء الغربية للهند ، لمنع استيراد الخيول من قبل الأمراء الهنود ، الا أولئك الذين تربطهم معهم علاقات جيدة .

وبعد هذا الانجاز مد البوكرك بصره شرقا الى مواطن انتاج التوابل الرئيسية : جزر الهند الشرقية . وقد سبق الكلام عن تحول المسلمين الى هذه الجزر للحصول على التوابل بصورة مباشرة ، متجنبين سواحل الهند الغربية التي هيمن عليها البرتغاليون . وملقا Malacca هي المركز الرئيسي لتجارة التوابل ، سواء توابل جزر Malacca أو الصين . لقد كانت ملقا في موضع تشرف فيه على المضيق المذكور ، الذي كانت تتم عبره كل الاتصالات مع الشرق الأقصى . واستولى البوكرك على ملقا في عام ١٥١١ ، وكان الاستيلاء عليها مغامرة بحد ذاتها .

لقد كان القتال حول ملقا عنيفا وأراد البوكرك اثارة حماس جنوده ، وكان الهجوم يوم عيد القديس جيمس ، فخاطبهم قائلا : «الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله هي بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة أنصار محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب» .

«.. وذلك لاني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه عن ايديهم (اعني المسلمين)، لاصبحت كل من القاهرة ومكة اثرا بعد عين، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك» .

وبعد ان احتل المدينة كتب الى سيده، بأنه قتل كل عربي امكنه العثور عليه .

«حيثما امكنه العثور على عربي كان افلاته من يده من المحال وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار» .

فالانطلاق من Goa الى ملقا يتطلب الأخذ بالحسبان الرياح الموسمية التي ستحمله من كَوا الى ملقا وسيكون من المتعذر عليه الرجوع الى كَوا قبل مرور خمسة أشهر ، وستكون كَوا نفسها خلال غيابه معرضة للخطر . وكان عليه أن يحاصر ملقا حصارا طويلا ، وقد استنفذ ذلك الحصار الكثير من موارده من الرجال والسفن ، وكادت كَوا ان تسقط فعلا في غيابه . على أية حال نجحت المغامرة، وسقطت ملقا، وقاومت كَوا المهاجمين خلال غيابه . وبالاستيلاء على ملقا صارت النهاية الغربية لتجارة الصين بيد البرتغاليين، وكانت هذه ضربة محكمة اخرى للمسلمين .

لعل الاهم من كل ما سبق من وجهة نظر البرتغاليين ، هو اتصالهم المباشر مع حكام جزر التوابل . وقد اضطر اغلب حكام تلك الجزر الى الاستجابة لمطالب البرتغاليين، وعلى سبيل المثال اضطر سلطان جزيرة Ternate الجزيرة الرئيسية في انتاج القرنفل Cloves ، الى عقد معاهدة معهم ، سمح لهم بموجبها ببناء مقر تجاري ، وقد حصنوه تحصينا جيدا ، وذلك لجمع وخزن محصول القرنفل ، ولم يكن هناك من شك في ان نواياهم كانت متجهة لجعله قاعدة على غرار كوا Goa وهرمز .

واتصل البرتغاليون بالصين ، فوصلت اول سفينة برتغالية الى ميناء كانتون عام ١٥١٣ . وهذا يمثل أول اتصال اوروبي مباشر مع الصين منذ عهد ماركو بولو، وحصل البرتغاليون على موافقة الصين لفتح مقر تجاري لهم في Macoa قريبا من كانتون . وأخذ البرتغاليون يحملون السلع مباشرة من الصين الى ملقا Malacca .

وأدرك البوكرك أن سيطرة البرتغاليين على المياه الشرقية ووضعهم في الهند لن يكونا أمنين دون تأمين خطوط مواصلاتهم بشكل وطيد . وفي رسالة بعث بها الى ملك البرتغال في عام ١٥١٢، أوضح فيها للملك بأن من أهم ما يهدد وضع البرتغاليين في الشرق عامة، هي تلك الشائعات القائلة بقرب وصول الروم (ويعني الاتراك) لطرد البرتغاليين من المياه الشرقية . واقترح على الملك الموافقة على ذهابه الى البحر الاحمر ليؤكد للناس هناك انه لا صحة لتلك الشائعات .

وبعد ان بعث البوكرك بتلك الرسالة، أبحر بكل اسطوله غربا نحو عدن ، وكان قد خطط للوصول عبر البحر الأحمر الى مكة المكرمة والاستيلاء عليها . ولكن هجومه على عدن فشل فشلا ذريعا ، وكانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة له، فقد كان يرى أن سلامة الامبراطورية البرتغالية في الشرق تتطلب ضمان ثلاثة أمور ، هي :

١ ـ احتلال هرمز عند مدخل الخليج العربي ٢ ـ الاحتفاظ بكَوا على ساحل الهند الغربي، والانطلاق منها لاحكام السيطرة البرتغالية على السواحل الهندية ٣ ـ احتلال عدن والاحتفاظ بها .

ورجع البوكرك بعد فشل محاولته على عدن الى الهند، وقرر ارسال حملة جديدة الى الخليج العربي . وأوكل قيادة هذه الحملة الى ابن اخيه بيرو . وفي عام ١٥١٣ وصل بيرو الى هرمز، ولم يفلح في استرجاع القلعة ، كما ان ملك هرمز رفض دفع اية دية للبرتغاليين . رجع بيرو الى الهند بخفي حنين ، وقرر البوكرك القدوم بنفسه الى الخليج العربي .

أبحر البوكرك من الهند في شباط عام ١٥١٣، وكان بصحبته اسطول مؤلف من ٢٦ سفينة و١٥٠٠ جندي وملاح برتغالي، و٧٠٠ جندي من الهنود . وعندما كان الاسطول البرتغالي في مسقط، وهو في طريقه الى هرمز وصلت الانباء ان هرمز في حالة ثورة ، فقد تمرد السكان ضد الملك والقوا عليه القبض واحتجزوه . فترك البوكرك مسقط في الحال وتوجه الى هرمز ، واطلقت سفن الاسطول البرتغالي نيرانها على الجزيرة، فأرعبت الناس وأطلق سراح الملك ، وبادر هذا الى تسليم القلعة الى البرتغاليين، واعترف مرة أخرى

بتبعيته لملك البرتغال ، وعين البوكرك ابن اخيه حاكما لجزيرة هرمز، وامره باتمام بناء القلعة . ثم رجع الى الهند ووصل الى كَوا ليموت هناك في ١٥ كانون أول عام ١٥١٥، بعد ان وطد اركان أول امبراطورية أوروبية استعمارية في الشرق .

في السنوات التالية استطاع البرتغاليون بسط نفوذهم على اجزاء مهمة اخرى في الخليج العربي ، فاحتلوا البحرين والقطيف ، وقد شيدوا في معظم المواني والجزر التي تحت سيطرتهم مثل هرمز ومسقط ومطرح وصحار والبحرين والقطيف قلاعا ضخمة لا يزال قسم منها شامخا حتى الان .

وبفضل تلك القلاع، وبوجود الاسطول البرتغالي القوي في الخليج العربي، استطاع البرتغاليون فرض سيطرتهم على المنطقة .

يمكن القول أن البوكرك قد وضع اللمسات الاخيرة في بناء صرح الامبراطورية البرتغالية ، والانجازات التي تمت في المراحل الاخيرة يعود الفضل فيها له شخصيا ، خاصة فيما يتصل بتطور النظام البحري .

وقد يكون البوكرك كما يقول بري Parry ، أول قائد بحري في العصر الحديث ، أدرك العلاقة المعقدة بين الاسطول والقواعد ، أخذاً بنظر الاعتبار كل العوامل المعقدة الاخرى . والمؤثرة في الملاحة كتغير الرياح في المواسم المختلفة .

لقد حسب البوكرك بدقة (وبشكل يثير الاعجاب) ما يمكن تخصيصه في كل سفينة من حيز لحراستها وحمايتها، وما يترك منها للحمولة . دون ان يترك مجالاً غير مستغل في السفينة ، ودون ان يترك أي جزء منها دون حماية مناسبة .

أما بالنسبة للنظام البحري الذي أوجده البوكرك ، فقد كان صارما ومتعسفا ، فقد تحتم بموجبه على كل سفينة تمخر هذه المياه ، الحصول على جواز صادر من أحد قادة القواعد البرتغالية . لقد كانت السياسات البرتغالية بشكل عام وهذا الاجراء بشكل خاص ، ضربة موجعة جدا للتجارة العربية الاسلامية . ان مجيء البرتغاليين الى الشرق يمثل كارثة بالنسبة لسكانه . وبكل تأكيد حالت السياسات التجارية البرتغالية العدائية

دون حصول العرب على نصيب من تجارة التوابل ، تلك التجارة التي كانت تكّون الركن الاساسي لنشاطهم التجاري . وأدى هذا الامر الى رفع أسعار التوابل في ميناء الاسكندرية ارتفاعا حادا ، ولم يعد يلائم الاوروبيين شراؤها من هناك ، بل فضلوا شراءها عن طريق البرتغاليين ، وهذا أَلْحَقَ الضرر بالبنادقة في الجانب الاوروبي، فمن المعروف ان تجار البندقية هم الذين يتولون تجارة التوابل عند وصولها سواحل البحر الابيض المتوسط . بالاضافة الى هذا كان في استطاعة البرتغاليين في سبته ان يغلقوا مضيق جبل طارق في وجه سفن تجار البندقية في اي وقت يشاءون ، وهذه الاجراءات البرتغالية في الجانب الاوروبي تفسر ما حل في المدن الايطالية عامة والبندقية خاصة من تدهور .

لم يكترث الغزاة البرتغاليون بشكل عام ، والبوكرك بشكل خاص ، بالتوسع الاقليمي ، واعني انهم لم يكترثوا في التوسع وراء قواعدهم البحرية ، الا بقدر ما يؤدي مثل ذلك التوسع الى خدمة أهدافهم البحرية . انها امبراطورية بحرية بكل معنى الكلمة ، ترتكز على اسطول وقواعد وقلاع ، وفي كل قاعدة اقامها البرتغاليون على سواحل البحار كان هناك ميناء كبير ، وقلعة قوية مهيأة للدفاع عن القاعدة ومساندة الاسطول ، والقلاع كبيرة ومعدة اعدادا جيدا لمقاومة أي حصار قد تتعرض له نتيجة لهجوم من البر ، والقلعة مفصولة عن بقية الميناء .

وقائد القاعدة قلما يتدخل في القضايا الادارية خارج نطاق القلعة ، الا في حالة قيام ثورة أو تمرد على السلطات البرتغالية .

وبشكل عام أظهر البرتغاليون ليناً ، بل عدم اكتراث في معاملتهم مع الديانات المحلية ، فقد اعتبروا الهندوس لسنين طويلة مسيحيين من نوع ما على سبيل المثال ، ولكن المسلم بقي العدو اللدود الذي يتحتم عليهم القضاء عليه .

عندما تكلمنا عن المعارك البحرية الأولى بين البرتغاليين والشرقيين الذين تصدوا لهم ، طرحنا السؤال عن سبب النجاح الذي حققه البرتغاليون في ذلك المجال ، على الرغم من قلة سفنهم مقارنة بسفن خصومهم . وكان الجواب ، ان نجاحهم يكمن في طبيعة السفن

وأسلحتها وقيادتها وقدرتها على المناورة .

دعنا الان نطرح سؤالا أعم، وهو سبب نجاح البرتغاليين خلال سنين قليلة ، في بناء امبراطورية تمتد من المحيط الاطلسي الى الشرق الأقصى ، وهم في هذه القلة من الموارد البشرية والاقتصادية، في وجه شعوب كثيرة تفوقهم حضارة وموارد بشكل مدهش . والجواب على مثل هذا السؤال هو :

١ ـ تفوقهم البحري ، الذي سبقت الاشارة اليه .

٢ ـ المثابرة والجرأة وحب المغامرة التي اتسم بها البرتغاليون الغزاة في هذه المرحلة .

٣ ـ كفاءة القيادة السياسية البرتغالية ووحدتها .

وهذه النقاط تمثل نصف الاجابة اما النصف الآخر منها ، فيخص الشعوب الشرقية نفسها .

فهناك ضعف الشرقيين البحري ، فقد كانت السفن والملاحة الشرقية متفوقة خلال العصور الوسطى، ولكن هذه السفن لم يطرأ عليها تغيير من حيث البناء والسلاح والأمور الاخرى، على النقيض مما حدث بالنسبة للسفن البرتغالية والملاحة البرتغالية .

ثم هناك التفكك في القوى الاسلامية، فلم يواجه البرتغاليون بجبهة اسلامية واحدة ابدا . حقا حدث شيء من التعاون بين بعض الامراء الهنود والتجار العرب، وحدث تعاون بين الاسطول المصري واسطول جدكارات، ولكن هذه احداث منفردة، ولم تكن تمثل اتجاها عاما . لقد استطاع البرتغاليين دحر القوى الاسلامية الواحدة بعد الاخرى ولم يكن هناك ابدا تعاون بين سكان الخليج أو البحر العربي وسكان ساحل الملبار وبقية الامارات الهندية في الساحل الغربي للهند ، أو حكام جزر الهند الشرقية ، علما بأن لهم مصالح مشتركة، وكانوا يواجهون خطرا مشتركا .

المحاضرة السادسة

أمسية شعرية



للدكتور/ غازي القصيبي
والأستاذ عبدالرحمن رفيع

(١)

الدكتور غازي القصيبي

* من مواليد الاحساء بالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٠ .
* تلقى الدراسة الابتدائية والثانوية في البحرين .
* حصل على الليسانس في الحقوق من جامعة القاهرة ١٩٦١ .
* درجة الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة جنوب كاليفورنيا ١٩٦٤ .
* درجة الدكتوراة في العلوم السياسية من جامعة لندن ١٩٧٠ .
* تدرج في وظائف جامعة الرياض (الملك سعود الان) .
* عمل مدرسا مساعدا فمدرسا فرئيسا لقسم العلوم السياسية فعميدا لكلية التجارة
* عمل وزير الصناعة والكهرباء في عام ١٩٧٥ .
* عمل وزيرا للصحة عام ١٩٨٢ .
* عمل سفيرا للمملكة العربية السعودية لدى البحرين ١٩٨٤ .

المؤلفات وأهمها :

١ ـ قطرات من ظما

٢ ـ اشعار من جزائر اللؤلؤ

٣ ـ أبيات غزل .

٤ ـ انت الرياض .

٥ ـ من الشرق والصحراء (بالانجليزية)

٦ ـ قوافي الجزيرة (مجموعة من قصائد الشعر العربي التقليدي مترجمة الى الانجليزية) .

خليـــج الحـــب

«ابـاظبـي» ! ودك القلب صـدري   يقـول رأيـت هـذا الحسن قبـل
اجـل ابصرتـه في الـعـين عينـا   يـزينهـا - واين الكحـل ؟ كحـل
وقبـل رأيتـه شطـا وديـعـا   بـأهـداب «المنـامـة» يستظـل
وقلعـا من «سحـار» يجـوب افقـا   فتـعـتـز الـريـاح بـه فيـعلـو
اجـل ابصرتـه بـدرا رقيقـا   «بجـدة» لا يمـل ولا يمـل
وريمـاً في ربـى قطـر نفـورا   بـه خجـل وفي النظـرات نبـل
وثغـرا في الكـويت يـذوب شعـرا   وتنـهمـر الـلالىء حـين يتلـو
«اباظبـي» وبـعض القـول نفـل   وشعـري الشعـر لا يعـروه نفـل
فبـاسـم الحـب اعلنـه خليجـا   لـه في كـل جـارحـة محـل
وبـاسـم الحب اشـعلـه غرامـا   واعلـن اننـا في الـعشـق اهـل

مجرد كلمة حب

لو أني احببتك حب القفر المطر ..
لما أحببتك حبا يكفي
أوحب السيف دخول الحرب ..
لجاوز شوقي شوق السيفِ ..
أو حب الصيف القمر الساهر ..
اخجل عشقي عشق الصيفِ ..
قولي .. قولي ..
كيف احبك .. حب الامن .. وحب الخوفِ
كيف احبك .. حب اللين .. وحب العنفِ
حبا فوق تخوم الوصفِ
حب الطفل .. وحب الرجل ..
وحب الشيخ .. وحب الكبرِ ..
وحب الضعفِ ..
قولي .. قولي
كيف اسطر حبي شعرا ..
احلى من الوان الطيف؟
احلى من سرب فراشاتِ
من انقى اغلى الدانات
قولي يا أحلى كلماتي ..
كيف احبك .. حتى الموت ..
وأعشق حتفي ؟!

حكاية مهر الرياح

مهداة الى صغار فلسطين

«١»

كان اسمه مهر الرياح
كان وسيما أبيضاً
ومشربا بزرقةٍ
كأوّل الصباح
وكان شعر عرفه
غابا من الرماح
وكان في صهيله
تمرد
ونشوة شهية
تثير في الصدور شهوة الكفاح
وكان يجري لا تكاد العين ان تراه
الله ! ما أحلاه !
الله ! ما أحلاه !

«٢»

من أين جاء
هل ولدته ذات فجرٍ غيمة بيضاء ؟
ام انجبته في الربيع نخلة خضراء؟
ام ان أقصى القمم الشماء
في ليلةٍ رائعةٍ قمراء

تمخضت عنه .. فجاء .. ذاب ..
كالضياء في الضياء
وسحر العيون والظنون والأهواءْ

«٣»

كان اسمه مهر الرياح
كان عنيفا جامح الجماح
ويعشق الحريةْ
كأنه براءة الوحشيةْ
كم حاول الفرســان
ان يجعلوه تحتهم مطيّةْ
لكنه في موجة
عارمة من الصهيل
كان يقر ..
مثل اعصارٍ جميلْ
ويترك الاحجار والتراب والغبار
في أوجه الفرسان
ويضحك الصغارْ

«٤»

كان اسمه مهر الرياح
كان الشيوخ يعشقونه وجهه النبيل
كان الصغار يطربون
حين يزأر الصهيل
وكانت النساء واقعاتٍ
كلهنّ في هواه

الله ! ما أحلاه !

الله ! ما أحلاه !

«٥»

لكن الفرسان في القبيلة

تجمعوا في ليلة سوداءْ

كل يقص قصة ذليله

«ما اهتم بي !!»

«تركني وراح !»

«ضعفي بقبضة الغبار !»

«أفزعني ! أسقطني !»

«أما رأيتم هذه الجراح ؟»

ثم تمطَّى فارس الفرسان

وقال «يا بني فلان» !

«لابد من تدجينه

لابد من حماية النساء من جنونه

لابد ان يذبح .. كيّ نرتاح»

«٦»

وفي الظلام حفروا الاخدود

ونثروا من فوقه

الاعشاب والورود

وضحكـــوا

حين أتى منحدراً

صهيله يقصف كالرعودْ

وضحكوا وضحكوا

اذ غاصت الارض به
وضمّه الاخدود
صهيله يقصف كالرعود

«٧»

وفي الصباح أقبل الفرسان
كل يجر سيفه الصقيل
«آن الاوان ! أيها المغرور»
في لحظة سوف تكون كالحمار..
أو أذل يا ذليل !
وضحك الفرســـان
وناحت النساء
وانفجر الصغار في البكاء

«٨»

كان اسمه مهر الرياح
وكان في غيابة الاخدود
صهيلة يقصف كالرعود
وفجأة تطاير الشرارْ
وانقلب النهار
وارتفعت من باطن الاخدود
غيمتان
عليهما مهر الرياح
ونفض الفرسان عن وجوههم
ذل الغبار
زغردت النساء

وضحك الصغار

وانفجر الفرسان في البكاء

«٩»

كان اسمه مهر الرياح

وكان في صهيله

تمرد

ونشوة شهيةْ

تثير في الصدور شهوة الكفاح

ورود على ضفائر سناء

«١»

أوتْ الى فراشها
في جيبها وصيه
وفي العيون شعله
غاضبة شهيّه
أوت الى فراشها صبيه
واستيقظت .. فودعت صباها
وقبّلت جبهة أمّها
ولثمت أباها
وانطلقت الى الزفاف بالمنيّه
وأصبحت شهيده
اسطورة فريده
في العالم الموبوء بالاقزام والاصنام والقصيده

«٢»

سنـــــاء !
اقلامنا تعفنت من الرياء
لساننا انشق من البكاء .
عيوننا الخواء يمضغ الخواء
قلوبنا الحجارة الصمّاء
ماذا نقول يا سناءُ ؟
لم يبق ما بين الرجال فارس

فاقبلي فارسة النساء

«٣»

تحجبوا ! تحجبوا !

قد أقبلت سناء ..

يعدو بها المهر .. ويسبق الرياح

وشعرها من خلفها

زوبعة سوداء

ويدها على العنان قطعة من العنان

وعينها تضيء كالصباح

ووجهها يفترّ عن حقل من الرمان

تحجبوا ! تحجبوا !

يا سادة القبيلة

كي لا تمر عينها النبيله

بالاوجه الكئيبة الذليله

«٤»

يا أيها الرجال !

تحجبوا ! يا أيها الرجال !

فقد هزمتم كلكم

في حومة النضال

وقد هربتم كلكم

حين حما القتال

لم تقدروان تصبحوا رجالْ

فحاولوا ان تصبحوا نساءً

وحاولوا ان تلدوا

صبية وحيده

ان تلدوا سناء

«٥»

وفي الربيع يلتقي العشاق

وتزهر الحقول والاحلام والاشواق

ويسأل الاصحاب عن سناء

وفجأة تنتفض الورود بالإباء

تقول صارت وردة سناء

وفجأة تنفجر الكروم في الغناء

تقول صارت كرمة سناء

وفي المساء تهمس النجوم في السماء

تقول صارت نجمة سناء

وفجأة تشتعل الآفاق :

سناء ! يا سناء ! يا سناء !

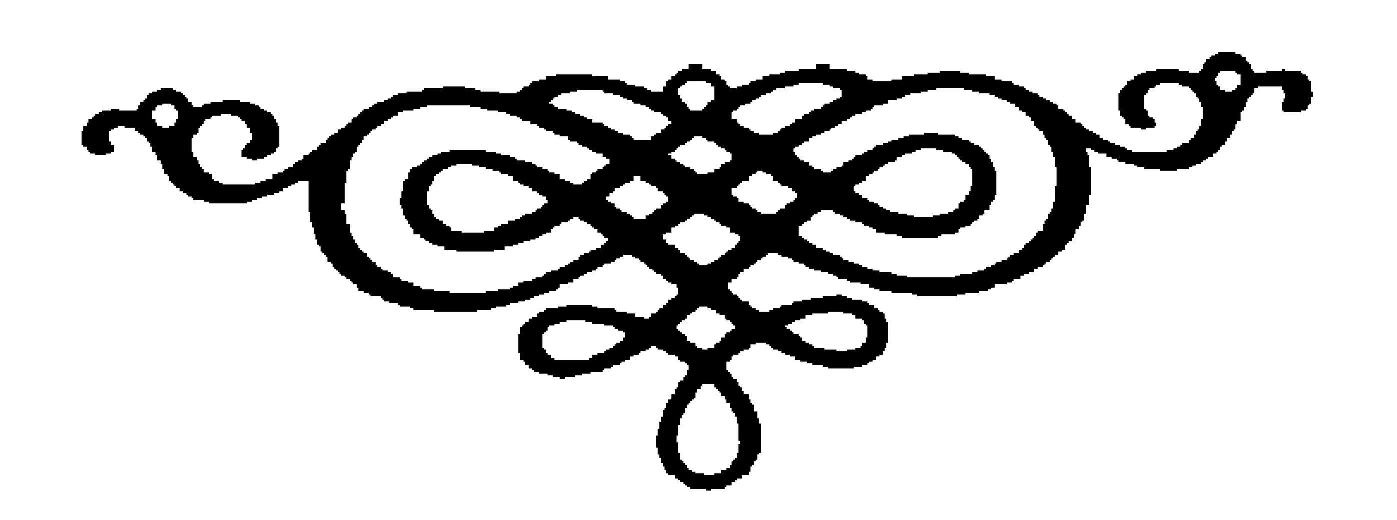
«٦»

ويكتب التاريخ في دفتره

المزحوم بالاسماء والأشياء

أنا ولدنا كلنا

حين انتهت سناء !



(٢)
الأستاذ عبدالرحمن محمد رفيع

* من مواليد المنامة عام ١٩٣٨ ميلادية .
* تلقى تعليمه الأولي والثانوي بالبحرين ثم التحق بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة .
* يعمل الآن في ادارة الثقافة والفنون بالبحرين ، وصدرت له عدة دواوين من أهمها :

١ ـ أغاني البحار الأربعة .
٢ ـ الدوران حول البعيد .
٣ ـ سوالف دنيا .
٤ ـ ديوان الشعر الشعبي .

قطرات من الذكريـــات

سمعت أهل الهوى يقولون
يقولون والكلام فنون
شنو اللي ينّن المينون
مهب لعيون ..
حسافه
والله هالمينون
هواه في قلبه تمّ مدفون
شعر وآهات
الين ما مات
وهد يسأل : شنو لعيون !
سما لعيون ؟!
بحر لعيون ؟!
إهي شي أو إهي مليون
إلين ما صار حچي واخبار
ومثل ما قالوا .. يقولون
يقولون والكلام فنون
شنو اللي ينّن المينون ؟
مهب لعيوب ؟ !
في عين تحچي ولا تنطق
وفي عين تبرق
وفي عين تعطي وفي عين تسرق
وفي عين مثل اليمر تحرق
عقب عنتر بن شداد

أبوزيد الهلالي انصاد
وقبلهم قوم ثمود وعاد
لي يوم الحشر والميعاد
من اللي في الغزير ما طاح
غرق في العين وهو سباح
لا فاده سيفه المسنون
ولا رده رمحه الذباح
ومثل ماقالوا يقولون
يقولون والكلام فنون
شنو اللي ينّن المينون
مهب العيون
في عين تذبح ذبح هادي
وعين تذبح ذبح سادي
وفي عين تاخذك أخذ وردي
وفي عين تاخذك أخذ رعدي
وكله سلاح
وكله ذباح
تبي تسلم من الذبحين
لا تفتح عين
ولا تشوف زين
وروح بعيد
لا تِقْرَب من هوى البحرين
مادام تقول : أنا حميدان
وتعرض داخل الميدان
اذا تم الأمر لا تصيح
ولا تردد : ياليل ياليل

تعالوا لي ..
تراه الويل
ترى أهل الهوى يقولون
يقولون والكلام فنون
شنو اللي ينّن المينون
مهب لعيون
مثل كل شخص : سألت نفسي
شنو لعيون ؟
وظنيت الجواب عندي
وكان ردي
وآخرتها
عقب امية سؤال وجواب
وسفره في عيون الاحباب
رجعت محتار
تبي مني الجواب الصح والمضمون .
شنو لعيون ؟
إهي لعيون !!

الــزواج

إشكثر كنت اسأَل ..
إشكثر قبل الزواج كنت آتسأًل ..
أقعد الساعات مع الناس ، ما تِملَّل ،
يالربع أبي الصراحه ،
مول علي لا تچذبون .
الزواج بيني وبينكم ،
شي عَدلْ والا ينون ؟
ما تركت من ربعي واحد ،
ما سألته هالسؤال ..
من كثر خوفي بغيت آسأل بعد
حتى اليهال !
يا هَلِ المعروف ترى ضاعت ادروبي
عندي چم نوط ، أتزوج ؟
والا ، لا : أبقه اعزوبي !
والله خايف منه هالقرقور ،
ولو كان من ذهب .
زينه الحريه زينه ،
حتى لو تكون من حطب .
راسي رأس متروس وعاقل !
ليش آقط نفسي اف مشاكل ؟
كنت أفكر ليل نهار في هالأمور .
حتى كنت ساعات آحس
رأسي يدور

والحياة ، ما يصير تجاربها ابلاش
والحقيقه ما تبان الا ابنقاش ،
هذي كان تفكيري من قبل الزواج
كنت آچذب ، عقلي ساعه ،
وساعه كنت آعتبره صاج .
الزواج جاوبني شايب
قال لي ذي حظ ونصيب .
(لا ترى) ، ينجح فيه بعضهم
والبعض لازم يخيب .
والسعاده موب بلفلوس في الحياة .
السعاده ، لين توفقت ابمره ،
بين البنات .
روح تزوج ..
لا تردد واتحجج ..
الحذر فوق حده لين زاد مايفيد .
واللي ما ينيشن ويرمي ،
في القنص مول ما يصيد .
وأنت موب أول ولا آخر ولد .
اللي قبلك غرسوا ، من غير عدد .
يله جرِّب .
موب عجب لو مره في الألف ،
حظك الزفت ، يبقه طيب .
يمكن اتفوز لك ابدانه
وتكتمل نص الديانه .
روحُ وجرب .
روحُ وجرب .

قلت في نفسي ، هذي شايب ،
مخه خرفان وخراب .
ليش ما أروح ، أسأل لي شاب .
الجواب يمكن يكون ، عنده الجواب

* * *

رحت سألت واحد أعرفه ،
شاب من المتزوجين
قلت له : يافلان بالله قول لي :
الزواج زين هالسنين ؟
أبي من عندك نصيحه ،
وأنت شيخ العارفين .
الزواج ؟ جاوبني يضحك .
الزواج لا يخدعك شهر العسل .
والليالي الأوليه والمواعيد والغزل .
الزواج موب كاب ثريد .
هذي شي يبي له واحد ،
قلبه مصنوع من حديد .
الزواج يمكن يكون زين ،
للي فوق الأربعين .
للي يبي يستقر ، لكن بشرط ،
بوكه سمين .
أنصحك مول لا تزوج !
حتى لو يقولون لك اتزوج بلاش !
حتى لو تأخذ مئة دينار معاش .
چم سنه ابتدفع أجار الشقه چم ؟
انت لو اتداوم على دفع الأجار ؟

يعني نص عمرك عدم .
ولين سمعت آخر الشهر ريال يصيح :
افتح الباب ، هذي بيل الكهربه .
غن على نفسك وقول : آه يايبه .
مالها قيمه الدنانير يارفيجي هالزمان .
الله يرحم يدّي ، خذ أربع حريم ،
ولو حلال ، چان خذ ثمان .
ما صرف ربع اللي راح مني ،
في أيام الخطوبه
وما لقه أدناة صعوبه .
والله غير لعزوبي ما يقدر يعيش .
حتى لو يتعشه باجلّه ويتغده يريش .
أنصحك مول لا تزوج !

* * *

قلت في نفسي : هذي شخص ،
باين عليه وايد يزيد .
ليش ما أروح اسأل لي واحد ،
توّه متزوج يديد .
مرت الأيام وصدفه ،
طب رفيق لي في العمل .
رحت عقب مده آزوره ،
قلت له : صِفْ لي ماحصل .
عطني رايك باختصار .
جنه العرس والّا نار ؟!
قال لي : لحظه .
وقام وتم مده ايتصوخ !

مرته كانت قاعده تطبخ .
قلت : أكيد خايف اتسمعك ،
يلّه هات ، بس مول لا تِشلخ ،
قال لي روح باچر تزوج ،
إنت تحتاج للأدب .
إچذبوا چذبه علي ، قالوا لي :
قرقور من ذهب .
حَدْ يهد ديرة النعيم .
حد يقول : الحبس زين ، إلا الغشيم .
تسوه چم طاير وحر بين العرب .
ما تخاف من لوم ولا تخاف من تعب
لين رجعت البيت تنام لك مستريح .

ولين مشيت تمشي اتثنى من الطرب .
والله مينون اللي يأخذ له مره ،
يقعد ايشاهدها طول عمره ،
كأنها منظره .
والله يا عالم حرام .
والله لو كل ليله آشاهد قمر ،
كان طفشت منه وحنّيت للظلام .
روح تزوج ، بس على نفسك تشهد ،
قول على الدنيه السلام .
حد يجيس الكهربه !
حد يربِّي عقربه !
حد يطيح في حفره واعيونه تمام .
روح تزوج ، بس على نفسك تشهّد
قول على الدنيه السلام .

والله حيَّرتوني ياناس بالكلام
من أصدق ؟ مِن ؟ ومنذي آستشير .
الزواج أمرٍ خطير .
قال لي رأي : روح استشير امطوَّعه .
يمكن ايفيدك كلامها ويمكن تكون منفعه .
يلّه قوم ما فيها شيْ .
ياما شخص اتظنه ميت ،
وهو لو جربته حي .
كنت سمعت عن حرمه طيبه ،
عندها ابويت في المنامه .
ويوم سألت عنها أوصفوها ،
وميزوا بيتها ابعلامه .
ناس يقولون عنها طاهره .
وناس يقولون عنها ساحره ،
قلت في نفسي : طاهره ساحره ،
يلّه روح .
جربيت كل الفلاسفه ،
وَذي بعد إنسانه ، روح .
يمكن اتحل القضيه ، أو تسليك ابكلام .
إهي دينارين ثلاثه ، والزياره موب حرام .
كانت الساعه تسع بعد العشه ،
وكانت الدنيه ظلام .

ويوم ضربت الباب ، ومرّت ،
خمس دقايق بالتمام .
رد علي صوت من وره الباب ،
قال لي : مِنْ ؟ جاوبت صديج .

ياي تحلّون له قضيه ،
من سِنه اتسبب له ضيج .
قال تفضل : وانفتح لي الباب ،
وبدّيت بالسلام .
وقادني شخص من يدي .
وقال لي : ممنوع الحجي .
الا لما اتسئلك الحجيه ،
جاوب باحترام .

وما وعيت الا جدامي وحده بالدفه والملفعْ
بحلقت بعيونها فيني ساعه من غير ما تخرع
قالت : اش عندك ، تشكّه وارفع الصوت حتى سمع
قلت لها: عندي قضيه منها وايد أتوجع
قصدي آتزوج وقلبي صار له مده ما يتشجع
أتسأل دوم وخايف چني باتزوج لي أربع
قالت: أنت تحتاج أوحَيدِه يَمْها كل ليله اتربع
الحريم مثل الخبيصِه ما في ريّال منها يشبع
قلت: أخاف آخذ لي وحده حلوه بس السانها يلسع
أنا ريّال موب فدائي حتى آتزوج لي مدفع !
قالت: انت ناوي أتّزوج والا ياي بس اتدلع
قول لي بيّن لي مرادك راوني باب قلبك امشرّع
عندي لك زوجه جميله الشكر من عينها ينبع
وحده محترمه وخليقه في زمان الشده تنفع
وحده ما يدوخك مهرها وما تشرَّط واتمنع
قلت لها: أقدر آشوفها وإلا ذي وحده اتبرقع
وينها دلّيني محلها أبّي وُسط الجنه أرتع

قــالــت: انــت تحتــاج نظــاره   مـن نظــارتـك هــذي أوســع
كشمتــك بــايــن عليــهــا   كشمـه مـا تـوضّـح ، قـرنبـع
الـــلي تبِّيــهــا جــدامــك ..   والا تتــعــامــى . يــا مبلتــع ؟
ومــا وعيت الا بهــا قــايمــه   وكـاشفه عن ويـه ما يتـرقـع
ويـه كريـه لـو يشــوفـه ينٍّي   چــان مــن المنظــر تصروع
ولــو مــا رجــلي ســاعــدتنــي   في الركيض چان حالتي خروع!

سوالف أمي العوده

جدتي ، أمي العوده طيبه من نسوانه الأوَّل
اقعديت مره معاها قلت لها : سولفي عن أوَّل
أبي چم سالفه منچ تذكرين أيامچ أول
أوصفي لي اشلون أهلها كانوا اكراه والا اشكل
علميني اشلون زمانچ كان مثل ما نشوف أو أكمل
اضحكت مني وقالت : هذي شي يا ولدي كمَّل
لا تذكرني ابزمانٍ ليته بس اشويَّه طوَّل

آه على أيامنا لأول!

كان أبوك العود يا ولدي لين لبس زينُ وتعدَّل
قلبي ما يتم في مكانه وعيني عنه ما اتحوَّل
ولين مشي صرَّت انعاله وانتفخ ثوبه الململ
ولين تحنحن أو تخنخن كل درايشنه اتقلقل !
كان يبل ، له هيبه حلوه ولين ضحك ويهه ايتهلل
موب مثل سبلان زمانكم هالرخو اللي ايتدلل
كشة الراس كنها عشه هذي راس واحد امخبل
يصلح الواحد من ذوله في الدكاكين والله سمبل !
قلت بعد يا يده باسأل قالت : اشقد اتسأل

* * *

قلت لها: يوم كنتي شابه اصغيره قط حبيبتي أحد
اضحكت وايد اوتمت تنتفض والدنيه موب برد
قالت: استغفر من الله لا تكفر يالهيس لأربد

كانت البنت في زمانه | في السكيك مول ما اتردد
لو اطلعت من بيتها مره | في السنه اتروح اتحمّد
ولو اطبقوها من الدريشه | اتطل . من الخوف اتبريد
موب مثل أيامنا هذي | تمشي في السوق واتصيد
قلت لها : اشكان يهازك | وكم دفع في مهرك اليد
قالت : اشويه ربابي | ما أتعده ترسة اليد
واليهاز كان بقشه عوده | كل شي فيها إمكوَّد
فيها دفه أم عمايل | صوف من اللمَّاع لأسود
وثوب نشل وامحله كله | ابنزري صج ، ما يتيعد
وفيها ميداسين أو ملفع | نغده من برع امورد
والمشط سيسم اضروسه | ما اتعوَّه وما اتمدد
وقالبين صابون بناتي | اللي ريحته ريحة الورد
وحنه عيار في خريطه | وتوله دهن العود أو أزبد
قلت لها: هذي يهازك | يدتي ، قالت : أنا أشهد
قلت لها : أنا اف زماني | هالزمان النحس لأنكد
عندي كم ألف وقصدي | أستقر بس وآتعبَّد
أبي أتزوج ولكن | زيد يحذرني وأحمد
لي متى اعزوبي يا ربي | أبي أرتاح وآتمدد
ان صبرت خايف أشيب | وان نويت قالوا: تهيّد
إنت الحين حر وباكر | لين تشربكت تمسي العبد
ليش تدش قرقور يا غافل | وانت في أرض الله منهد
والله هالناس حيّروني | واشكثر نصحوني واشقد
ناس تمدحه وناس تذمه | وأنا دخت بين سد وبين رد
لعوزيت نفسي بنفسي | صار عيوز الشاب لأمرد
المهم خلّونا نسأل | يدتي واتقول لنا الرد
قلت لها : يا يده سولفي | لي عن الليله العظيمه

ليلة الزفه اللي راحت وأصبحت أخبار قديمه
قالت: الزفه خذوني مريم وبنه وحليمه
في وسط زوليه حمره بالغصب چني يتيمه
وقالوا: اسم الله عليها وها الحسن الله يديمه
ودخّلوني الفرشه وأنا خايفه خوف الله عليمه
العروس ف أيامنا كانت تستحي وعاقله وفطينه
والعروس ف أيامنا هذي تقبض الزوج من يمينه
رافعةٍ راسها كأنه فوق ويهها ايلود متينه
أو تمشي مستأنسه اتضحّك ولين تعب زوجها تعينه
صارت البنت إهي لأول وانتو صرتوا يمها زينه
إهي تخطب وهي تطلب أو بوعلي الله يعينه
كفنا في البحرين مناكسر والزمان شانت اسنينه
قلت لها: هذي تمدّن أو كل زمان سلكه وافنونه
قالت: أي سلك وأي تمدن كله من نفس العيينه
شوف يا ولدي انت حالك الحسود تنبط اعيونه
كامل الأوصاف معاشك ستمئه وبيت في المدينه
وانت لي باكر اعزوبي ليش يا حلوه ما تبينه
تبّي ولد فلان لأنه شعره نازل فوق جبينه
تبي ولد فلان لأنه ويهه تفاحتين وتينه
وتبي ولد فلان لأنه أصله من عايله سمينه
وتبي ولد افلان لأنه صل على المختار نبينه
واتشرط واتدلّع ليش يافاطمه ويا سكينه
ويّي ولد افلان ويشرد وتبقه هي في البيت حزينه
وتقعد المسكينه تلعن فيه وفي ساعته اللعينه
يدّتي ما تدري عني إن لي أيام حسينه
تعتقد اني أشابه صاحب أعمامه متينه

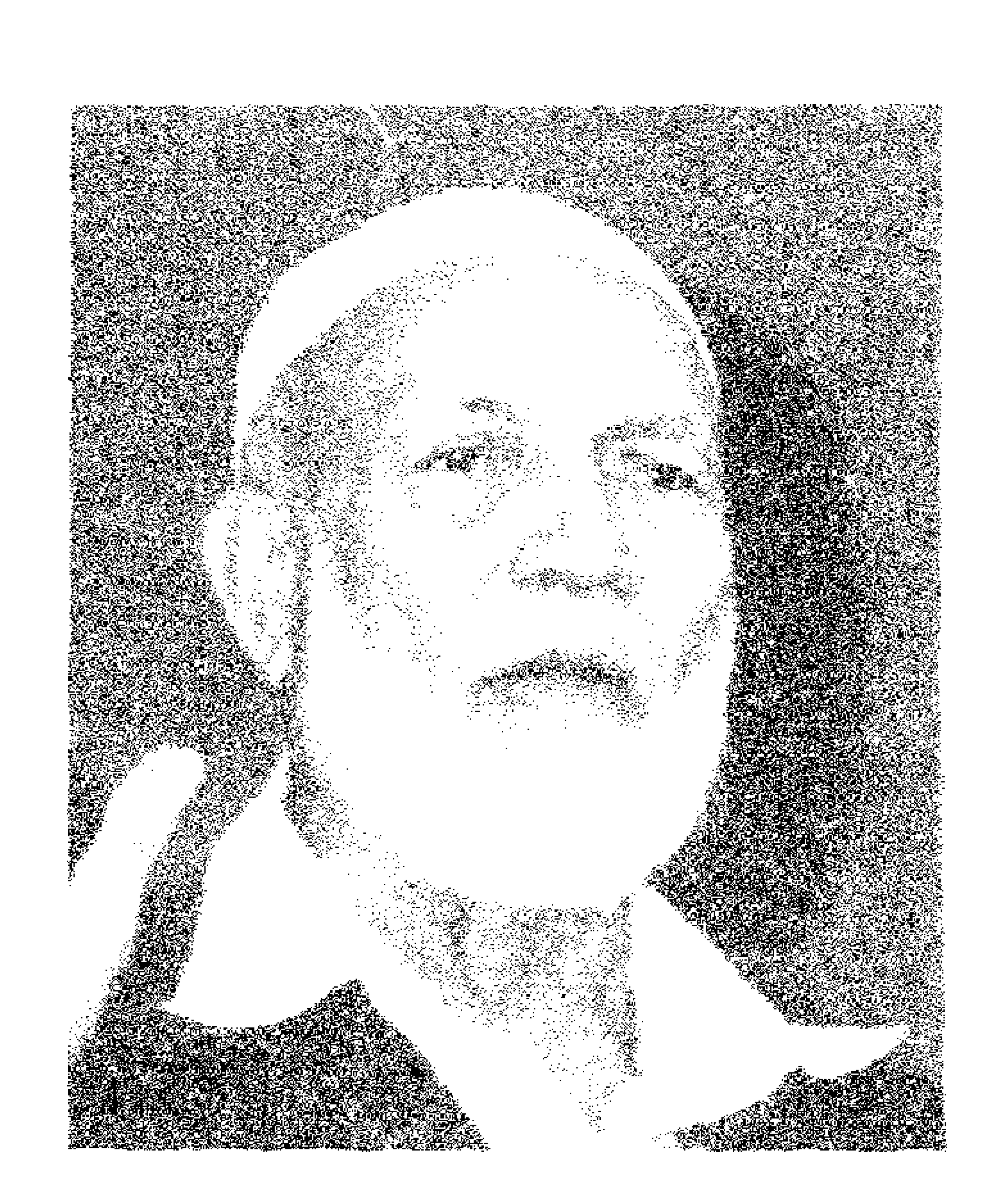
ما كأني في زماني في الفريج كنت أتمشه
شاربي كان توّه بيطلع والشعر فوق راسي كشه
والبنات من كل دريشه وكل عقاسي ما تغشه
هذي تضربني ابعنقيشه وهذي تحذفني ابغرشه
وآنا ماشي في طريقي ما ارتعش مول حتى رعشه
ما كأني في زماني ياني مكتوبين في ليله
واسهريت أكتب قصايد في الهوى مينون بوليلى
ما كأني في زماني زرت لنيوم البعيده
وسافريت في اعيون هواها ايودي صوب ابلاد يديده

* * *

هذي سالفه من سوالف يدتي الطيبه الوحيده
قلت لكم منها وباچر اللي يبي الزود بأزيده

المحاضرة السابعة

محمد الاعظم ﷺ



الداعية الاسلامي أحمد ديدات

الداعية الاسلامي أحمد ديدات

* من مواليد عام ١٩١٨ .
* أنهى مرحلة التعليم الاساسي ثم درس اربع سنوات للحصول على الشهادة الابتدائية .
* بدأ حياته العملية بائعا في أحد متاجر الريف بجنوب افريقيا حيث التقى بالمبشرين المسيحيين الذين أثاروا اهتمامه لدراسة الدين المسيحي .
* داوم على قراءة الكتب التي تتحدث عن المسيحية وذلك لحماية نفسه من الارساليات التبشيرية - دأب على التحدث الى الناس عما يستخلصه من الكتب .
* له العديد من اللقاءات والمحاضرات المنشورة في الصحف أو المذاعة في التلفزيون والاذاعة .

من هم أهل الكتاب؟

يقول: كلنا نعلم انه لقب عظيم لتعظيم اليهود والنصارى، ووصفهم بأنهم أهل معرفة، لهم كتب مقدسة، وقد كان اليهود يمتنون على العرب ويفخرون عليهم بأنهم، أي العرب، أميون، وأنهم قد اوتوا نبيا أميا، وأنهم، أي اليهود، أهل كتاب ومعرفة، وقد أوتوا التوارة والزبور والانجيل، وان الله، سبحانه وتعالى، يدعوهم مرارا وتكرارا في القرآن الكريم بأهل الكتاب، ليكسب قلوبهم، وفي واقع الأمر ان في أبجديات تعاليم كتبهم ، وكتابنا القرآن الكريم، لا توجد فوارق أبدا. فتعاليم سيدنا موسى، عليه السلام، وعيسى، عليه السلام، ومحمد، صلى الله عليه وسلم فيها تقارب واضح، وتطابق، مثال ذلك الشهادة أول كلمة في العقيدة في العبرية والعربية، وبعد ألف وثلاثمائة عام خلت على رحيل سيدنا موسى، أتى رجل من أهل الكتاب لسيدنا عيسى، عليه السلام، وقال: يا معلم، ما هي أول كلمة؟ قال المسيح عليه السلام باللغة العبرية: اسمعوا يا بني اسرائيل، إله السماء إله واحد. وبعد ستمائة عام بعد ذلك، يأتي يهودي من نجران الى المدينة المنورة، في مسجد الرسول، صلى الله عليه وسلم في أثناء المناقشة التي تدور، يطرح الحوار اليهودي، ويسأل الرسول، صلى الله عليه وسلم، ماذا تفكر بالله؟ أو من هو الله؟ فيكون الرد (قل هو الله أحد) وأنتم تلاحظون تقاربا في اللفظ (أخد) و(أحد) والاختلاف فقط في وضع النقطة، وفي طريقة اللفظ بصورة محرفة تحريفا يسيرا، فهي نفس الكلمة لنفس المعنى، والفرق الوحيد هو هذه النقطة ولو علمتم أن النقاط لم تكن موجودة أساساً على الحروف قبل ذلك لعلمتم ان هذا الفرق الذي نتحدث عنه الان ، لم يكن موجودا آنذاك ، وكل التعاليم الالهية ، كانت تعطي للبشر حسب حاجتهم وحسب حالهم ، خرج بنو اسرائيل من رق المصريين الفراعنة ، وتاهوا في أرض سيناء ، ولم يكن هنالك فناء ولا سجن ولا غيره ، فلذا كانت العقوبة تماثل الحالة التي كان عليها هؤلاء الناس ، العين بالعين

والسن بالسن . وكل من سيدنا عيسى ، وسيدنا محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لو كانوا هناك لأعطوا نفس القانون ، من نفس المعطي ، من نفس المكان ، والهداية تكون حسب الحاجة الزمنية .

إن في بلادنا ألف فئة من فئات أهل الكتاب : النصارى وسط البيض ، وثلاثة آلاف وسط الملونين ، وهم الأفارقة والهنود وغيرهم من الملل التي لم تأتِ من أصل آري ، وهم متفرقون بحسب أسمائهم أو مسمياتهم ، في التاريخ كان الحسد موجودا ، كان حسد اليهودي للعربي . واليهود رغم أنهم أبناء عمومة للعرب ، إلا أنهم حسدوا العرب على ما منحهم إياه الله سبحانه وتعالى من فضل الرسالة الخاتمة ، وكانوا يعايرونهم بأنهم أبناء هاجر ، وكانوا يسمون الاسلام بلفظ (هجرزم) أي ينسبونه إلى السيدة هاجر . ويقول : إننا حينما هزمنا بلاد النصارى ، مثال ذلك بلاد الأندلس ، لم نترك خلفنا الاسلام ، إذ أنه بعد ستمائة عام على بقاء المسلمين في تلك البقاع ، حينما انجلى عنها سلطان المسلمين ، لم يكن فيها من يؤذن للصلاة . يضرب هذا مثالاً على نجاحنا في نشر الاسلام ، وهو قول قصد به التنبيه لا الاثبات .

وبعد نهاية تعليمه الابتدائي يعود الشيخ أحمد مرة أخرى ليتحدث عن حياته الأولى في جنوب أفريقيا، ذهب لبيع الخردوات في أحد محالها في مدينته الصغيرة، وكانت توجد كلية تسمى كلية آدم التبشيرية، وكان المبشرون الذين يتعلمون في هذه الكلية يمارسون تعاليمهم على أولئك الذين يعملون في المتاجر وغيرها، ويحاولون أن يضعوا بذرة الشك في قلوبهم، كأن يسألوهم مثلا هل تعلمون أن محمداً له زوجات كثيرات؟ وهل تعلمون إنه نشر دينه بالسيف؟ وهل تعلمون انه خرج بكتابه هذا من كتب النصارى واليهود؟ ويستدرك الشيخ ويقول: عندما يسأل انسان انسانا ما، أيا كان هذا الشخص وأيا كانت جنسيته، عن الشهادة، هل أنت مسلم؟ هل تعرف الشهادة؟ يقول: نعم، لا اله الا الله محمد رسول الله. ويعتقد أن هذا نهاية المطاف، ويأخذ هذه الشهادة على أنها معادلة سحرية. ولكن الشيخ كان في ذلك الوقت يافعا صغيرا، ولم يكن له علم عن تاريخ الاسلام أو مبادئه، وعندها وجد نفسه في مأزق، فهو بلا معرفة، ولكن الله هو مسبب الصلاح والهداية. فبدأ يقرأ، ويقرأ، فذهب ذات يوم يبحث عما يقرأ مما هو خير من مجرد

الصحيفة اليومية، كمجلة مثلا فوجد كتابا تكاثرت عليه صنوف الغبار عنوانه (اظهار الحق) ووجد مكتوبا تحته ترجمته باللغة الانجليزية. ودفعه فضوله للقراءة، وحدثه الكتاب عن احتلال البريطانيين لمسقط رأسه الهند، وعلم حينئذٍ ان البريطانيين كانوا يعتقدون أن المشاكل لا تأتيهم الا من المسلمين، وأنهم وطدوا العزم أن يغيروا المسلمين، ليتم تنصيرهم، حتى يسهل بذلك عليهم احتلال الهند لقرون وقرون، ولكن ليصلوا الى هذا، بدأوا باللجوء الى السخرية من المسلمين ومن زعمائهم ومن شيوخهم ومن معلميهم، ويلفت النظر الى ان هذا السلوك مازال ساريا، اذ أن النصارى ما يزالون يتعلمون لغتنا من أهل الديانات الاخرى، نصارى أو يهود. ويتعلمون لغتنا، وهم أينما ذهبوا يتقنون لغة غيرهم ونحن بالمقارنة إليهم في حالة عجز لا نقارن أنفسنا في معرفة اللغات بهم. ويذكر من ذلك أن أحد القساوسة قد حاور أحد رجال العلم من المسلمين باللغة الاوردية، وهو مولانا الشيخ عبدالعزيز من دلهي، وبدأت المحاورة فقال القسيس لمولانا: ابدأ قال له مولانا: أنت أخونا الاكبر فالنصرانية قد سبقت الاسلام، اضافة الى انك ضيفنا. قد لا تكون ضيفا عزيزاً علينا. ولكنك ضيف على كل حال، فلتكن أنت البادىء. فبدأ القسيس، وسأله أين محمد صلى الله عليه وسلم الان، فقال مولانا انه في جنة الفردوس، فقال القسيس: أين كان عندما قتل حفيده في كربلاء فقال مولانا مازال كائنا في جنة الفردوس، فقال القسيس : لماذا لم يسأل ربه اذاً ويدعوه أن يخلص حفيده مما هو فيه من حال؟ وكان يضرب الأرض برجليه مرات متعددة ليحث مولانا على الاجابة السريعة على سؤاله هذا وظل يصر، فقال له مولانا: نعم لقد سأل الله. وظل القسيس يلح عليه، فقال له مولانا: ان الله بكى. فقال له القسيس: كيف حدث هذا؟ فقال له مولانا: لقد قال الله له: كيف لي ان أنقذ حفيدك، وأنا لم استطع ان أنقذ ابني من الموت؟ الشيخ يضرب هذا المثل كنوع من الذكاء والمقدرة على الحوار والجدل، وكسب الحجة بمراقبة الخصم. ويقول: ان هؤلاء يصرون اصرارا شديدا على تعاليمهم وعلى نشرها، وغايتهم في النهاية، إما أن نؤمن لهم أو أن نتشكك في أمرنا. وضرب لنا مثلا لقصة الشيخ، واعتقد انكم تابعتم هذه القصة، ولا حاجة لي أن أكرر القصة، فهي قصة الشيخ والقسيس التي نهايتها إن الشيخ يقول لاحد معاونيه حينما يأتي هذا القسيس الذي يحاول دائما أن يقول لي إن الله قد بعث بابنه فمات على الصليب ليخلصنا من الخطيئة الكبرى، تأتي اليه وتسر في أذنه بشيء ما.

وحينما جاء القسيس في المرة التالية جاء اليه هذا الرجل، معاونه هذا، وأسر اليه في أذنه بشيء ما فقال له القسيس. فبدأ الرجل في البكاء بصوت عالٍ. فارتاب القسيس في الامر. وقال له: ماذا حدث؟ ماذا قال لك هذا الرجل؟ لماذا أنت في هذه الحالة؟ فقال له: شيء فظيع قد حدث الان. وجاءنا خبره. فقال له: ماذا حدث؟ فقال: ان جبريل قد مات. فاستغرب القسيس، وقال: جبريل مات، كيف؟ هذا ان الملائكة لا يموتون. فقال الشيخ: ولكنك قلت لي أيها الغبي ان الله نفسه مات ، فكيف تستغرب إن الملائكة يموتون؟

والكاتب المذكور الذي كتب هذا الكتاب باللغة العربية، وترجمه الى لغات كثيرة لتتم المنفعة به . بدأ الشيخ بقراءته، وبدأ بعده بقراءة الاناجيل بدقة وتفحص، وعرف لوقا وحنا ومرقص، وغيرهم من تلامذة سيدنا عيسى، عليه السلام. وكانت هذه الرسالة التي بدأها، هي ثاني اهتماماته بعد عمله لكسب عيشه، وصارت ممارسته المحببة في المجابهة والتحدي، وصار يستمتع بها استمتاع الآخرين بالمصارعة والملاكمة، وصارت عنده نوعا آخر من أنواع الكارتيه .

هذا تعبير طريف في الحقيقة لم استمع اليه في اللغة العربية، أن يقول الانسان انه يتحدث كاراتيه، ولكن الشيخ أحمد اعتقد انه يملك المقدرة ليتحدث كاراتيه، وعند عودته لديربن، بدأ يبحث عن النصارى والقساوسة، ويدعوهم لداره مع صغارهم وزوجاتهم، ويصر على اطعامهم، ثم يصرعهم على مائدة الكلام، وبعد ذلك يطرون طعامه، ويثنون على شرابه، ويهربون ولا يعودون اليه أبدا. يقول الشيخ: والان يأتي هؤلاء المبشرون وقد أخذوا ابنة احد معارفه حتى كادت ان تتنصر. واستنجد به هؤلاء المعارف، فحضر، وناصرهم، فقال له أحد القساوسة: ان نبيك ليس اميا فقط ولكن جاهل. وأنتم تدركون ان الامي ليس هو الجاهل. وان لفظ امي، تعبير يطلق على انه مثل ما ولدته أمه من المعرفة والحس. وقد يكون بيانا لاستعداده لعلم لدُنيّ أكثر من غيره من المتعلمين، الذين تحجب أنواع التعليم المختلفة عنهم ، هذا ليس أميا فقط ولكنه جاهل. فقال القسيس: انه يقول .. (أتت به قومها تحمله) .. الى نهاية الآية. وقال له الشيخ إنها حينما جاءت تحمله في يديها قالوا لها يا مريم ان هذا الذي جئتنا به شيء عجاب، شيء فرى، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا. يتساءل الشيخ: هل يصدق أحدكم لو أن

ابنته أو أخته حبلى، وقالت له لقد سمعت كلاما؟ كأن شخصا ما يتحدث الي، وقال لي ستحبلين، وحبلت. هذا الكلام لا يصدق طبعا، ولكن للدلالة على صدق هذا، ما جاء في الآية، لانها أشارت اليه وهو في المهد، فتحدث وقال : اني عبدالله، وآتاني الكتاب الى آخر الآية.

هنا جاءت الهجمة من القسيس عليه، يقول: نبيك يقول ياأخت هارون. إن هارون هو أخو موسى، وان هارون وموسى عليهم السلام عاشا قبل الف ومائتي عام قبل سيدنا عيسى، ولكن هذا النبي لا يعرف الفرق بين أخت هارون المسماة مريم في لغتهم وكتابهم، والسيدة مريم العذراء عليها السلام.

ولكن الشيخ احمد استطاع ان يقيم عليه الحجة، بأن السيدة مريم العذراء، عليها السلام، وسيدنا هارون، في الواقع من نفس البيت اليعقوبي. ولكن الرجل أصر انه لا يعرف الفرق، وأصر الشيخ أن يجيب عليه، بأن الرد على كلامه أول كتاب من كتب الانجيل، وهو كتاب ماتيوس الكلمة الأولى، الصفحة الأولى، الفصل الأول، الكلمة الأولى، وفيها يذكر نسب سيدنا عيسى عليه السلام، وحتى سيدنا آدم. أي أنه ابن ابراهيم وابن داوود، وفي كتاب القديس لوقا، وصف بأنه ابن يوسف النجار، وفي كتاب مرقس وصف بأنه ابن الله، فسأله ترى كم والد له في كتابكم؟ الذين أحصاهم أربعة: ابراهيم وداوود ويوسف والله سبحانه وتعالى. قال: فماذا تسمي رجلا له أربعة آباء؟ ماذا تسميه بلغتك العامة، اللغة التي يتحدثها الناس؟ اننا نقول عنه ابن جماعه.

ولكن القسيس اصر انه ابن لكل هؤلاء جميعا، فاستطاع الشيخ أحمد بهذه الحجة الدامغة أن يرد عليه ويفحمه، ويذكر له انه اذا أراد ان يعيب القرآن، فان الرد يكون عليه من باطن كتابه. هذا أسلوب الرد الرادع، وهو يعتمد على الخبرة ويكتسب بالمران والقراءة.

يقول الشيخ أحمد: اننا الان لا نسمع أصواتا، فجبريل عليه السلام لم يعد يأتي بالوحي لانسان ما وانه اذا قال احد انه يسمع صوت سيدنا جبريل، او يسمع اصواتا، فلابد من عرضه على طبيب نفسي.

ويقول انه مرة دُعي لمناظرة حول الخطيئة الاولى، يقول: الان يوجد في العالم ٤ بليون

وثمانية بالعشرة من البليون من الادميين ابناء آدم وحواء، فهم نساءً ورجالا يقال لهم انهم ورثوا الخطيئة وتحولوا الى أربعة وثمانية بالعشرة بليون مخطىء، ولهذا لابد من دفع ثمن هذه الخطيئة ولدفع ثمن هذه الخطيئة جاء الله الى الأرض بابنه ليتركه يقتل على الصليب، ليدفع الثمن، هذا ما ادعاه احد القساوسة في المناظرة. فقال له الشيخ أحمد: ان الخطيئة لا تورث. وقد غفر الله لآدم وحواء، والأطفال ابرياء لا خطايا لهم، فهم في حكم المعصومين حتى يبلغوا الحلم، فأصر القسيس على ان يسأله: قل كيف يأتي الشيء الطيب من الشيء الخبيث؟ وأصر على سؤاله، فقال له الشيخ أحمد: في امكانك ان تعاقب الزناة لانهم جناة، ولكن كيف تعاقب الطفل وتلوي عنقه حتى ولو كان ابن خطيئة كما تدعي؟ فهو غير مذنب ولم يرتكب خطيئة.

فيقول الشيخ: لقد وقعت حينئذ في مطب، فبرغم انني كنت اقول له ان الطفل ليس عليه غبار، وانني سأظل اشرح له لساعات وساعات بأن الطفل ليس به عيب، وتردد بالوقوف لحظات، وقال لهم، قال لنفسه أولا: ماذا أقول الان؟ وبماذا أبدأ؟ ولم يكن له جواب، ولكن الله أسعفه برحمته وقدح ذهنه، واشتعل الذهن ليس شيبا ولكن فكرا، فقال له ان أكل التفاحة في الجنة كان معصية، وطرد بها الاثنان من الجنة سيدنا آدم وأمنا السيدة حواء، عليهم السلام، ووجه الكلام هنا الى القسيس، وقال له: لكن هذا الاله الذي تعتقده لم يطردهم من الجنة فقط بل لعنهم، فقدر عليهم أن يجهدوا ويتعبوا وينصبوا من أجل الحياة، قدر على الرجل ان يتعب ويجهد وينصب من أجل ان يكسب العيش. والمرأة قدر عليها ان تعاني من الحمل والوضع، وبعد ذلك لم يتركهم بل قدر لهم أن يذهبوا جميعا الى جهنم ما لم يؤمنوا أن السيد المسيح مات من أجلهم.

واستدركت، يقول الشيخ أحمد: وهو يتحدث الى القسيس، فقلت له: هل سألك آدم أنت (الكلام موجه للقسيس) قبل أكل التفاحة؟ أو هل سألت امنا حواء قبل اكل التفاحة؟ طبعا لم يجب القسيس، واستطرد الشيخ أحمد يقول له: ان هذه الفكرة ترهانية بل اكبر، تدور في عقل البشر. ثم قص القصة مع الاخ أحمد، كما استمعتم، وقال له الحجة التي استمعتم اليها لو أنني انظر الى الاخ أحمد، وأقول يا أخ أحمد، من أين يأتينا؟ يقول اتى من مكان كذا. يقول أبوك كان كذا، وجدك كان كذا، في افريقيا، وجدك في أفريقيا،

وأواصل السيرة حتى يقول له: يا أحمد ان جدك قد قتل جدي، ويستل سكينه ويطعن أحمد، الحمد لله كتبت له السلامة ، ثم بعد ذلك يقبض على الشيخ أحمد الحمد لله، كتبت له السلامة أيضا لم يقبض عليه، هذه مجرد قصة، فيقول له القاضي: ماذا؟ فيقول الشيخ أحمد: جده قتل جدي فقتلته. ولكن الطبيب النفسي يتدخل، ويقول: هذا مجنون، لا تقيموا عليه حدا ولا عقوبة. ويقول الشيخ للقسيس: كيف تدعي ان مثل هذا الخطأ الذي يمكن من تقديري وخلاله اعتباري مجنونا، يمكن من خلاله أن يعتبر الها مقدسا وهو يفعل ذات الشيء اذ يقتل ابنه من أجل خطيئة ارتكبها غيره، منذ زمن بعيد. الشيخ احمد يقول انهم رغم فساد عقيدتهم يجدون في تنكيس أفكار الناس وصرفهم عن حقيقة دينهم وتنصيرهم يوما بعد يوم. ويتلو الشيخ الاية «لن يرض عنك اليهود ولا النصارى .. الخ (الآية)، ويذكر الحكمة من ذلك، انهم لن يرضوا عنا الا اذا اتبعنا ملتهم أو سلكنا سبيلهم. ويقول : ها هم الان يدرسون القرآن، وحمدا لله فهم يرغموننا على دراسة القرآن، لاننا من خلال جدلنا معهم تبين لنا مدى جهلنا بكتابنا. ويقول : في ديربن وهي بلدته التي يعيش فيها الان، نتمنى له العمر الطويل.

بدأت الجامعة في تدريس اللغة العربية، وكان على رأس الكلية التي تدرس اللغة العربية قسيس اسمه سبينسر، وأثناء تدريسه، بالرغم من انه كان معه بعض الاخوة الافاضل من المعلمين المسلمين، كان ينتقد القرآن نحوا وبلاغة ، وكان صغار المتعلمين يشكون من ذلك عند الشيخ أحمد. فقال لهم وجهوا له الدعوة ليتناول معنا وجبة، وكان طبعا يريد بعد ذلك ان يعطيه علقه كلاميه كما هي عادته دائما، ولكنه لم يحضر، ويبدو انه كان ذكيا جدا، وذهب وعاد لديربن، بعد سنوات طويلة بعد غيبته في بلاد انجلترا وحضر لزيارة المكتبة الاسلامية حين كان يعمل السكرتير السابق للشيخ أحمد ديدات ، وحينما رآه ، وهو يعلم مدى توق الشيخ أحمد لملاقاة هذا الرجل ، فذهب اليه مسرعا ، وقال له لقد جاء الرجل الذي كنت تنتظره، وقبل ان يكمل حديثه محاولا ان يحذره من انه يدرك لغته، كان الرجل قد دخل الى الحجرة، وبعد الترحيب به واحضار عصير البرتقال، لم يضع الشيخ أحمد زمنا وهو ينصحنا الاّ نضيع زمنا حينما نريد الدخول في الموضوع.

وقال له يا مستر سبينسر انت استاذ في اللغة العربية والعلوم الاسلامية كيف لم تقبل

الاسلام حتى الان، مع علمك هذا كله بالقرآن وبالاسلام. فأجاب المستر سبينسر عند ذلك وقال : يا شيخ أحمد هل قرأت ترجمة الشيخ عبدالله يوسف علي لمعاني القرآن الكريم ، فقال له: نعم، قال : أنا أريد ترجمة طبعت في بلد من البلاد العربية، هل رأيت واحدة منها؟ فقال الشيخ أحمد نعم، واظهر له طبعة طبعت في قطر. وفتح الكتاب الكريم وقرأ قل رب بما اغويتني، الى آخر الاية وفيها يقول الشيطان الرجيم لرب العالمين ما معناه اني سوف اغوي عبادك وأضلهم، وقرأ الآية الى نهايتها، وقال المستر سبينسر هل رأيت هذه الكلمة؟ هل رأيت الى ترجمتها؟ فقال: نعم قال: انها تعني لقد دفعتني للغواية فقال له الشيخ أحمد: ان هذه الكلمة يمكن ان تعني الكثير الان اللغة الانجليزية فيها تشابه وتشعب وضرب له المثل بكلمة رن Run ، وهي كلمة انجليزية، وقال له: ان لها تسعين معنىً ، ولكنه قال: لا أرجعوا مرة أخرى الى كلمة اغويتني، انه يقول : لقد ضللتني. ويدعى ان الله سبحانه وتعالى مخادع. فقال له الشيخ أحمد: ان هذا لو صح فانه ما يقوله الشيطان، وأنت تعرف الشيطان فهل تتوقع منه أن يقول قولا طيبا؟ ثم قال: أضرب لكم مثلا، فضرب له مثلا مشابها في حجته، فقد جئت الى بلدكم المضيافة واكرمني أهلها وأفاضوا في اكرامي ، وأحسنوا ضيافتي ، وحينما أذهب الى جنوب افريقيا ، بعد ان اكون قد استجلبت بعض الممنوعات في حقائب سفري ، وحينما يقبض علي ، أقول ان عبدالمنعم بله هو الذي أغواني، أنا لم أرد أن أفعل هذا، ولكن هو الذي أغواني. يقول: ان هذا هو حقيقة فعل الشيطان، فانه حينما يفعل السوء يدعي كما يدعي اعوانه واتباعه، بأن غيرهم أغواهم على أن يفعلوا ما فعلوا، ويقول له في التوراة عندما يخاطب سيدنا موسى أن يذهب الى فرعون وأن يطلب منه خلاص أهله وأن يترك أهله يذهبوا معه (بني اسرائيل)، يقول له: انني اقسي قلبه، فاذهب اليه مرة أخرى، وسوف اقسي قلبه مرة أخرى، وهكذا مرة، تلو مرة الى تاسع مرة فيقول له الشيخ أحمد: استنادا على حجتك التي ذكرتها، من المخطىء هنا، الهك الذي تذكره أم فرعون؟ الواضح طبعا هنا ان صورة المخادعة ليست على لسان الشيطان، ولكنها على لسان الاله، وهذا هو الفرق بين المثلين.

فقد حاول القسيس ان يتخذ مثله الشيطان ولكنه أفلس. وحاول الشيخ أحمد أن يتخذ مثل الاله المعبود الفاسد وقد أفلح والحمد لله الشيخ أحمد يقول: اقرأوا القرآن وحاولوا أن تجدوا فيه مواطن الكلمات السواء مع أهل الكتاب. التوحيد ألا نعبد الا الله،

والا يعبد بعضنا بعضا. يقول: علينا ان نبدأ، ونحن لم نفعل شيئا بعد، وهم يغزوننا في كل يوم، ويعطي مثلا: يقول قائل منهم أليس هو المسيح رسول الله؟ نقول: نعم. ومحمد رسول الله؟ وهنا يبدو وكأن محمد صلى الله عليه وسلم. أقل كفاءة من المسيح عليه السلام ويقول عيسى عليه السلام. ألم يولد بمعجزة؟ نعم ومحمد، صلى الله عليه وسلم، هل ولد بمعجزة؟ وهنا يبدو أيضا كأن هناك تمايزا. ويأتي السؤال هل أحيا محمد، صلى الله عليه وسلم، الموتى مثل احياء عيسى للموتى؟ ويأتي السؤال أين المسيح عيسى الان؟ فيقول الشيخ أحمد: في السماء. فيأتي السؤال: وأين محمد صلى الله عليه وسلم الان؟ هو في السماء أيضا، لا لا هذه مسألة فلسفة، وكذا هو في قبره في المدينة المنورة، ولكن السؤال يأتي هل سيأتي محمد، صلى الله عليه وسلم، مرة أخرى؟ ولكن عيسى سيأتي مرة أخرى.

بضرب الشيخ أحمد الأمثلة وأنواع الأسئلة التي يمكن أن تبذر الشك في قلوب المسلمين، وتزعزع عقيدتهم، ان لم يكن لهم من معرفة أو حجاب دون ذلك. يقول: ان ادعاء أهل الكتاب ان الله ضحى بسيدنا عيسى، عليه السلام، لانه اقرب البشر لصفاته، حجة لا تقوم على دليل، وهي ملفقة، ولا تعدو أن تكون مثل فقاقيع الصابون، التي مهما كثرت فانها تحتاج الى ثقب مستمر. يقول: المسلمون الان لا يفعلون شيئا، وهذا شيء مؤسف ولا يريدون فعل شيء تجاه أداء مهمتم الاساسية التي كتبها الله عليهم، وهي الدعوة الى الله، وإلى توحيده. يقول: انني اطلب منكم ان تقوموا بدوركم كما يجب، حتى تتصفوا بما وصفكم الله به: خير امه اخرجت للناس، ويقول في نهاية حديثة الشيق: ان اهل الكتاب فرقوا الى فرقتين، فرقة مؤمنة طيبة، وفرقة كافرة معتدية، وعلينا أن ندرسهم، ونعرف الفرقتين، ونعمل في وسط الفرقتين، حتى يكون الأجر في هداهم على يدنا، باذن الله. والسلام عليكم.

المحاضرة الثامنة

في المعاني الفلسفية والاجتماعية للقانـــون



للاستاذ الدكتور محمد محمود عبدالله

الاستاذ الدكتور محمد محمود عبدالله

* من مواليد الجمهورية العربية السورية ١٩٤٠ .
* حصل على درجة ليسانس الحقوق من كلية الحقوق من جامعة دمشق ١٩٦٨
* دبلوم القانون الخاص من جامعة القاهرة ١٩٧١ .
* دبلوم الشريعة الاسلامية من جامعة القاهرة ١٩٧٢ .
* درجة الدكتوراة في الحقوق (قانون مدني) من جامعة القاهرة ١٩٧٦ .
* معيد بكلية الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٧٠ .
* مدرس بكلية الحقوق من جامعة دمشق عام ١٩٧٧ .
* رئيس قسم القانون الخاص ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣ .
* وكيل كلية الحقوق للشئون الادارية وشئون الطلاب ١٩٨٣ .

(١)

القانون كنظام لحياة وعلاقات البشر من الشك إلى اليقين

أولا : مواقـــف الشـــــك

من يطلع على بعض الدراسات الفكرية والفقهية والفلسفية لعلم القانون، يجد في عناوينها سؤالا مربكا يدور حول ما اذا كان القانون ضروريا أم غير ضروري .

والواقع ان هذا التساؤل قد صدر عن الشك والقلق المحير ، ليس فقط في امكانية الاستغناء عن القانون، أو في أنه قد يكون غير ضروري لخلق مجتمع عادل ، بل في أنه أيضا قد يكون شرا في ذاته، مما يؤدي الى اعتباره عقبة في سبيل تحقيق طبيعة الانسان الاجتماعية .

وحتى ، فيما يتعلق بالمجتمعات المنظمة ، فان اصحاب هذه الشكوك يقولون ان الحاجة الى القانون كضرورة فطرية لا تحظى بتشجيع الكثيرين من أصحاب المذاهب الفلسفية الذين يتحمسون للمذهب الفوضوي كحل لمشاكل الانسان الشخصية والاجتماعية .

وكذلك لعب العداء للقانون دورا بارزا في العديد من الأنظمة الدينية، وكان هذا العداء عنصرا خاصا في ايدلوجية الكنيسة المسيحية ، في مرحلة تكوينها ، التي تقوم على أساس أن الكنيسة هي وحدها المعنية بتفسير قانون «مملكة الرب» .

ولقد قام العداء للقانون في كل عصر، حيث يوجد افراد وجماعات، يشعرون باستياء عام من كل مظهر من مظاهر السلطة المستبدة، ويندفعون وراء فكرة غامضة، سعيا وراء حياة افضل من تلك التي يؤمنها قانون القمع والقهر : وانه لما يلائم سياق البحث ان

نقول : ان محاولة الاستكناه للاسس الايديولوجية لهذا التذمر والاستياء من فكرة القانون ، تبدو ضرورية ، خاصة من أجل معرفة الأسباب التي دعت كل هذه الاعداد ، المنتمية الى حضارات متمايزة ثقافيا ومنفصلة جغرافيا، عبر مراحل التاريخ البشري ، الى أن تنبذ القانون كلية ، أو الى ان تعتبره في أحسن الفروض ، شرا لابد منه، أو أنه ليس أكثر من ذريعة مؤقتة، يشفع باللجوء اليها عجز الانسان الدائم عن تحقيق المجتمع العادل .

والملاحظ بالنسبة لهذه الأسس الايديولوجية، انها تختلف في نقطة البداية كنتيجة لاختلاف النظر الى طبيعة الانسان، أو لاختلاف النظرة الى الوضع البشري : وسنستعرض الآن بعض هذه الايدولوجيات بشيء من الاختصار والتفحص وصولا الى تحديد مفهومنا عن القانون وأسسة وحقائقه المركزية .

فمن المفكرين من يقول بضرورة القانون، من أجل الوقوف بحزم أمام نزعة الشر المتأصلة لدى الانسان .

ومنهم من يعتقد ان نزعة الشر ليست متأصلة في الانسان، وانما هي عنصر دخيل عليه، تولّد من محيطه، فأوقعه في الخطيئة ومن ثم السقوط .

فبالنسبة لاصحاب الاتجاه الأول الذين يرون في الانسان تجسيداً للشر أو يرونه على أنه مزيج غير متكافيء وغير متجانس من الدوافع الخيرة والشريرة المتصارعة باستمرار، والتي ينتهي صراعها بانتصار الشر على الخير ، فان القانون يكون ضروريا لكبح قوى الشر والظلام، المغروسة في طبيعة البشر ، ولتحقيق الانسجام الاجتماعي، والحفاظ على النظام في المجتمع .

ووفق هذه الايديولوجية درجت مدرسة الصين القديمة، في القرن الثالث قبل الميلاد، والتي كان يطلق عليها «المشرع» . وتتلخص نظرتها للانسان بأنه ذو طبيعة شريرة في الأصل ويحتاج ، لذلك ، الى المراقبة والضبط بالطقوس الدينية أو بالقوانين ذات الزجر والقمع والمنع .

فالقانون وفق هذه المدرسة ، الذي يقترن بعقوبات شديدة لضمان تنفيذه ، يكون أفضل من كل كلمات الحكماء لحفظ النظام .

وقد ذهب كتاب «الشاشرا» في الهند الى مثل ذلك، وقالوا انه اذا ما أطلق العنان للانسان، فان العالم يتحول الى «ورشة للشيطان»، يسود فيها «منطق السمك»، حيث يكون بعضه غذاء لبعضه الآخر . وفي هذا الاتجاه يسير كثير من كتاب أوروبا الغربية، مثل بودان وهوبز وهيوم وغيرهم من الذين يرون ان وجود المجتمع البشري منوط بوجود القانون والقمع لضبوط ميول المنع والفوضى والقوة ، كخواص متأصلة لدى الانسان بطبيعته .

وبالنسبة لاصحاب الاتجاه الثاني الذين يرون في الانسان تجسيدا للخير ، فان مصدر الشرور التي يعاني منها تنحصر في مجمل الشروط والظروف، التي تفرض نفسها وتؤدي به الى الخطيئة والفساد . وهذا ما يفسر ضرورة وجود القانون لحماية الحقوق والحريات وخلق التوازن ومنع الاعتداء . ومن هذا الاساس ينطلق اصحاب هذا الافتراض المتفائل في الدعوى الى العودة الى العهد الذهبي من البراءة البدائية حينما كان الناس يعيشون حياة بسيطة سعيدة ومنظمة، حيث لم يكن الانسان بحاجة الى نظام قانوني خارجي أوزجري، لكبح النزوات النقية من الانانية، والهادفة الى الخير . هكذا كانت الصورة البدائية المثالية التي رسمها مفكرون وكتاب كثيرون في الماضي والحاضر، والتي قادت جانبا كبيرا من الفكر الفلسفي في نظرته الى ماضي الانسان السحيق، حيث تكون الحوافز الطبيعية النقية ، وحيث تنعدم قوانين القمع، ويسود فردوس البراءة البدائية .

فالفطرة الأولى هي الفردوس وفق هذا الاتجاه، والمحيط الموضوعي للحياة المعقدة هو الذي أدى بالانسان الى الوقوع في الخطأ، ومن ثم السقوط ، فالدولة على هذا الرأي ، والملكية الخاصة، ومؤسسة الرق، استقت اسهمها من حالة الانسان الجديدة والخاطئة، التي نشأت عن السقوط ، والقانون تبعا لذلك ، اصبح اثرا من آثار السقوط وأصبح ضرورة طبيعية بعد السقوط لكبح الآثار الشريرة للخطيئة . وحتى العائلة ، وفق هذه الفلسفة ، فهي ظاهرة أو مؤسسة ناتجة عن السقوط، باعتبارها تمثل السيطرة القسرية

للرجل كبديل عن حرية ومساواة الفردوس البدائي . واعتبر الرق مؤسسة مشروعة، باعتباره ناتجا حتميا عن السقوط، حيث ان الانسان بعد الخطيئة ينحدر ويصبح موضوعا صالحا للرق .

وهكذا استأثرت نظرية القانون والدولة ذروة التعبير عنها في كتابات «أوغسطين» ، وقد رأى هذا ان قانون الدولة والقمع ليسا شريرين في ذاتهما ، بل هما طريقتان في النظام الالهي، لكبح عيوب الانسان المتولدة عن الخطيئة، ومن ثم الانتقال به أو العودة به ، في النهاية، الى المجتمع الاسطوري، مجتمع «مختارو الله» .

وفي هذا السياق عبر «افلاطون» عن ميله الشديد الى البدائية، عندما قال: «ان الناس في العصور الأولى كانوا أفضل منا وأقرب الى الله» . ويفهم من هذا : ان نظرة افلاطون ترتكز على ماض خيالي للانسان، اكثر مما تستند الى طاقته الاصلية الخيرة الكامنة في تحقيق مجتمع المثالية والعدل، غير المحكوم بنظام قانوني، والذي يسوده الانسجام العقلاني كنتيجة للفطرة الاجتماعية، ومشاعر النبل لدى اعضائه . ويفهم من افلاطون ان هذه العقلنة لا تتم بشكل تلقائي ، بل لابد من ممارسة الأدوار القيادية التي تعمل على تحريض العقل الانساني ، الأمر الذي يتطلب حكم النخبة من الملوك الفلاسفة، الذين يتولون الأمور بالحكمة والمعرفة والموهبة والنعمة «الكاريزما» . فمسألة وجود الملوك والحكماء والفلاسفة لا تترك الى الصدفة ، بل ، كما يرى افلاطون ، يجب ان يكون هناك نظام تعليمي يكفل اعدادهم لذلك ، ويكفل في نفس الوقت اعداد وتكييف مواطنين مطيعين لهم وموالين .

والحقيقة ان نزعة «افلاطون» لم تكن تتجه نحو «الفوضوية» أو اللاقانون ، لمجرد الدعوة الى التخلي عن القانون بطريقة الاخلاد الى العقل الاسطوري ، وذلك لأن الركون الى العقل هو في حد ذاته مسألة قانون . هذا من جهة ، ثم ان الاقتراحات الواردة في كتاب افلاطون (القوانين) حول نظام قانوني شديد وصارم وغير مرن ، وايدولوجيته القائمة على أن الملوك يجب ان يكونوا حكماء وفلاسفة، يضطلع باعدادهم نظام تعليمي عتيد، يتولى في نفس الوقت اعداد المواطنين المطيعين والموالين . تؤدي الى ادراج فلسفة افلاطون في السلطة والقانون تحت عموم مصطلح «التوتاليتاريا» أو مبدأ «السلطان الكلي

للدولة» . وعلى هذا المبدأ تقوم افكار ميكافيللي الكاتب والأديب والمفكر، الذي يعتبر الأمير كما يعتبره سقراط وهيجل، في أن الدولة بحكم «حكمتها العظمى» تمثل التجسيد الحقيقي والأعلى للاخلاق .

وكذلك حاولت المسيحية ان «تمنع مالقيصر عن قيصر» ولكنها لم تستطع، فقالت: «اعطوا مالقيصر لقيصر» وبالتالي تكون قد اضفعت صبغة الشرعية على السلطات القائمة، ولكنها ، مع ذلك ، بقيت تخص الكنيسة بصلاحية تفسير قوانين مملكة الرب ، وتقول ان العالم سيحكم بالمراسيم الالهية وليس بقوانين الأرض غير العادلة .

ان هذا التحليل الذي انطبعت به بعض الآراء الفلسفية في القديم والحديث، وخاصة على يدي : «ارسطو» و«توما الاكويني» فيما بعد ، شكل مؤخرا الاساس لقيام مفهومين للقانون : احدهما علماني يقوم على اعتبار القانون ليس مجرد قوة مفيدة لكبح نزعات الشر عند الانسان فحسب ، بل لوضعه في طريق الرفاه والانسجام الاجتماعيين .

والثاني اصطلح على تسميته بالتفكير الفوضوي «أو الفوضوية» أي الخلاص من القوانين ومن قال بذلك «باكونين» و«تولستوي» و«آدم سميث» و«جودين» و«كارل ماركس» وغيرهم .

فمن هؤلاء من يرى ان القانون شر بقدر ما يؤدي الى التقييد من التطور الطبيعي للاقتصاد والمجتمع . وعلى هذا النهج سار آدم سميث فنادى بالحرية المطلقة لقوى المجتمع الاقتصادية التي تعمل لصالح الانسجام الاجتماعي اذا ما تركت دون تدخل . وعلى ذلك فان الفوضوية ، وفق هذا الرأي ، تكون مطلوبة وتتم بالتخلي عن القانون فقط في حالة تدخله بأي شكل في ممارسة التوجيه والرقابة على القوى الاقتصادية . أما ما عدا ذلك فالقانون وفق «سميث» هو ضروري لحماية الملكية الخاصة التي يعتبرها الميزة التي لا غنى عنها في السوق الحر . وهذا ما سنتولى توضيحه في المكان المناسب اللاحق من هذا البحث .

ومنهم من يكرس مقولة افلاطون المتمثلة بالثقة المطلقة بالعقل والغاء القانون باستبداله بالتربية والتعاون أو باحلال القواعد الخلقية والاجتماعية ، لصيانة النظام

الاجتماعي ، محل القوانين القمعية .

ومنهم من يعتقد بوجوب حصر مفهوم القانون بمعنى القمع، وذلك بتضييق مفهومه الى اعتباره مجرد أداة قمع، تسلم الى شريحة في المجتمع، اصطلح على تسميتها «البروليتاريا»، كطبقة واحدة حاكمة وديكتاتورية، تمهيدا الى الغائه .

فالملاحظ بالنسبة لأصحاب هذه الآراء ان المسألة من حيث المبدأ ليست مسألة وجود القانون أو عدمه وليست مسألة ضرورة وجوده أو عدم ذلك ، وانما هي مسألة مدى ملاءمة القانون لمصالح المجتمع الذي يطبق فيه، تلك الملاءمة التي تختلف باختلاف الايدولوجيات التي يستند اليها هؤلاء . فالمسألة اذن هي مسألة ملاءمة تتعلق بالكيفية اي بكيفية القانون كحقيقة وظاهرة وليس بنفيها .

فاستبدال القانون القمعي بالقواعد الخلقية والاجتماعية، يعني فقط استبدال قانون بقانون، دون النظر لوصف القانون، ولما هية الجهة التي تضعه، والتي تخول تطبيقه ، ذلك لان لفظة القمع تفيد الوصف ولا تتعلق بالنوع ، وكل ما في الأمر ان «جودين» في كتابه «العدالة السياسية» صاحب هذا الرأي واتباعه «باكويني» و«كربكتين» يريدون الاجهاز على القانون لأنه لم يقطف من شجرته الحتمية وهي المجتمع .

وكذلك بالنسبة لفلسفة «افلاطون» القائمة على ترشيد القانون بالعقل ، وذلك لأن الركون الى العقل هو في حد ذاته مسألة قانون .

وكذلك بالنسبة «لآدم سميث» فانه لا يطالب بالتخلي عن القانون الا في حالة تدخله ـ أي القانون ـ بأي شكل في ممارسة التوجيه والرقابة على القوى الاقتصادية بهدف الزيادة في ضمان الحرية الفردية . فهو اذن لم يقل بالغاء القانون كليا ، وانما يقول بتحديد دور القانون الوضعي ليصبح عددا محددا من الأحكام التي يجب ان لا تتخطى الحد الأدنى اللازم لتعايش الفرد مع بقية الأفراد في المجتمع تعايشا متناسقا ، وليصبح دوره منحصرا في اعتباره حاجزا بين الفرد والمجتمع، لحماية الحقوق الطبيعية للأفراد من تجاوزات المجتمع وتعدياته .

وهنا لابد من الاشارة، وبشكل مقتضب، الى أن صاحب هذا الرأي، يقع في الاسراف الذي لا مبرر له، حيث يمكن اي فرد من عصيان اي قانون لا يعجبه، هذا من جهة .

ومن جهة ثانية فانه ليس ، في الأساس ، من حاجة لحماية الفرد من المجتمع ، بل تقوم الحاجة الى حماية المجتمع من الأفراد ، ذلك لأن الكثرة لا تستخدم قوتها للتعدي على القلة، وبالتالي فان المجتمع المؤمن المنظم والعاقل، لا يظلم افراده عندما يمارس صلاحيته في حكمهم ، وحتى عند قسوته على بعضهم يكون انما يمارس عملية انصاف .

وفيما يتعلق بالرأي القائم على تولية البروليتاريا مهمة القانون ، بوصفها الطبقة الوحيدة ، فان هذا لا يؤدي مهما طال الزمن الى الغاء القانون ، ذلك لانه لا يمكن تصور اي مجتمع ، مهما كانت درجة حضارته وتنظيمه، بدون قانون ، لاسيما وانه من المنطقي ان تزداد ملامح القانون وضوحا، كلما ارتقت درجة التنظيم في أي مجتمع . ولا يصح دحض هذا الاعتراض بالقول : «ان البروليتاريا تحكم نفسها بنفسها» ذلك لان قولا كهذا لابد من ان يحمل في طياته عوامل نقده، لجهة انه لا يصدر الا من فهم قاصر للقانون، ينتج من اعتباره ، لدى اصحاب هذا الرأي وغيرهم ، على انه مجرد نظام للأوامر، مع انه في حقيقته وهدفه، وفي جميع مراحله، هو نظام للمعايير، مع استثناء المقررات والمعايير القطعية المستمدة من الشريعة الاسلامية السمحة . مثال ذلك ان الله يغفر الذنوب جميعا الا الشرك به .

والذي يمكن استغرابه في مجمل الآراء المتقدمة ، ان اصحابها يريدون تحقيق العدالة بدون قانون، مع ان اقتران العدالة بالقانون هو شيء من اللزوم ومن الضرورة كعلاقة السبب بالنتيجة، وعلاقة العلة بالمعلول .

فهذه العلاقة اللزومية بين القانون والعدالة تسير باضطراد واطلاق . وعلى ذلك فانه مهما كانت درجة العدالة وحظها من النقص أو من الكمال، فان ذلك لا يمكن ان يتم بغير قانون . ومن هنا يصح القول ان في بعض الآراء التي ندرسها ما يفيد ان اصحابها أرادوا ان يصيبوا العدالة بقتل وسيلتها .

ومن الملاحظ كذلك على بعض هذه المواقف ان اصحابها حصروا مفهوم القانون

بالتشريعات والقرارات التي تصدر عن السلطة وفق اجراءات مقررة . مع العلم بأن القانون لا يقتصر على هذه التشريعات فقط . بمعنى انه من الصحيح ان هذه التشريعات هي قوانين ، ولكن مفهوم القانون هو أكثر عموما من ذلك . فكيف لا وقد تقرر أو كرس في أغلب قوانين العالم المنظم بالقوانين المكتوبة . ونذكر منها على سبيل المثال قوانين بعض الدول العربية كسورية ومصر وغيرها المبدأ القانوني الرسمي الذي يقضي بالزام القاضي بالرجوع الى مبادىء الشريعة الاسلامية في كل حالة لا يوجد بشأنها نص، والى العرف اذا لم توجد، ومن ثم الى مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة في نهاية المطاف . فقد نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من القانون المدني السوري ، ولها ما يماثلها في التقنين المدني المصري وغيره من القوانين العربية، مع مراعاة الخلاف في ترتيب هذه المصادر الرسمية للقانون ، على مايلي : «اذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه ، حكم القاضي بمقتضى مبادىء الشريعة الاسلامية ، فاذا لم توجد فبمقتضى العرف ، فاذا لم يوجد فبمقتضى مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة» .

والحال في التقنين المدني الفرنسي يقوم على وجوب تطبيق العرف ومبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة كذلك عند عدم وجود النص التشريعي . وفي هذا الخصوص قد يقول قائل ان هذه القوانين تغلب النصوص على غيرها من هذه المصادر . وهذا صحيح ولكنها ، مع ذلك ، تعطي دورا هاما وكبيرا الى العرف والى مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة التي تستمد في الحقيقة من مبادىء المجتمع الذي تطبق فيه ومن عقائده الشرعية ومن حاسته للعدالة .

واذا كان هذا في مرحلة التطبيق ، فكم بالحرى في مرحلة وضع القوانين ؟ فهل يمكن لأي أحد ان يغفل دور عقائد المجتمع ومبادئه واخلاقه وحاسيته للعدالة في الضغط على المشرعين اثناء سن القوانين وفي الهامهم بقواعدها وأحكامها ؟

ثانيا : اسباب الشك والأساس اليقيني للقانون

بالاضافة الى ما تقدم يمكن الاعتقاد ان الخطأ في بعض الايدولوجيات الفلسفية

ينحدر من الخطأ في النظرة الى المجتمع، التي تقوم على اعتباره انه مجرد ظاهرة أو حادثة أو واقعة تحدث بالمصادفة أو حدثت بالاتفاق الاجتماعي . والحقيقة ان الشكل الجماعي لحياة البشر ليس مجرد ظاهرة بسيطة تخضع للمقاييس التقديرية في الرفض والقبول اذا كان الأمر يتعلق بوجودها ، بل هو قدر وحتمية لا يخضع في وجوده وعدمه للارادة ولا لمعايير التقدير والملاءمة . اما فيما يتعلق بتنظيم الشكل الجماعي للحياة . فالأمر فيه لا يعدو أن يكون مسألة ملاءمة وتقدير، يتكفل بمراعاتها القانون الناظم لحياة الأفراد في الجماعة الانسانية . والجدير بالذكر في هذا الخصوص ، ان حتمية الحياة الاجتماعية تضفي على الفرد صفة العضوية في مجتمعه مما يؤدي الى اكتسابه صفة عامة في جماعته الانسانية عندما يكون الأمر متعلقا بالأعمال التي يقوم بها باعتباره عضوا في هذه الجماعة . وبالتالي يمكن القول ان الفرد لا يكتسب مفهوم الشخص القانوني من اعتباره مجرد فرد في المجتمع بل من اعتباره فردا اجتماعيا أو عضوا اجتماعيا . والدليل، انه اذا لم يكن الأمر كذلك فانه لا مجال لاكساء الصفة الاعتبارية أو الشخصية الاعتبارية على الأموال والأعمال التي ترصد وتخصص لتحقيق أهداف معينة يسمح بها القانون لفائدتها العامة . وعلى ذلك فان مجرد الطابع المادي والفيزيولجي للشخص لا يكفي للتحكم في تحديد المدلول القانوني للشخص القانوني الأمر الذي يجعلنا نعتمد مفهوم النشاط الانساني الفردي أو الجماعي ، كقيمة اجتماعية للشخصية القانونية ، على أنه الاساس الأكثر جدارة بالقبول والأكثر انسجاما مع مفهوم المجتمع الذي يعتبر تجسيدا لنظامية الحياة الجماعية . وكذلك فان الشكل الجماعي الحتمي للحياة لا يمكن ان يكون مجرد حادثة أو واقعة حصلت بالمصادفة أو بالعقد . ذلك لأن الحادثة تبدأ وتنتهي بوقائعها وآثارها بيقين . أما الحتمية الاجتماعية فانها بدأت بيقين ولكن لا يمكن التحدث في موضوع انتهائها لا بالشك ولا باليقين ، على الأقل من وقت نزول أبينا آدم الى يوم قارعة بنيه ، الأمر الذي يجعل هذه الحتمية ترقى الى مرتبة الحقائق الكونية والقدر الحتمي . وهذه النتيجة تكفي لاعتبار القانون الذي يسعى الى تنظيم هذه الحياة الاجتماعية انه كذلك ضرورة يقينية أو حقيقية كونية مرتبطة ولازمة من حيث وجوده لا من حيث كيف يكون .

فمن حيث وجوده أو ضرورته يكفي ان نقول ان مسألة تنظيم المجتمع هي حقيقة

كونية لازمة ومرتبطة بكونية الحياة الاجتماعية وحتميتها .

أما من حيث كيفية ذلك ، فهذه مسألة تتحكم بها معايير وقيم تختلف باختلاف الشروط والظروف الموضوعية التي تحيط بكل جماعة انسانية على حدة، مع الأخذ بعين الاعتبار تماثل بعض الصفات الانسانية بين أفراد البشر مهما اختلفت عروقهم وبيئاتهم ومراحلهم الثقافية والتاريخية والعقائدية . الأمر الذي يفسر وجود حد أدنى من التماثل بين بعض القواعد القانونية عند جميع شعوب العالم .

وكذلك لا يمكن الاعتداد بفكرة العقد الاجتماعي لتفسير المجتمع أو الشكل الجماعي لحياة البشر . وبالتالي فانه ليس من الصحيح القول ان الرابطة الاجتماعية تنشأ من خلال الاتفاق الملزم، الذي توصل اليه الأفراد العقلاء الباحثون عن تحقيق أهداف تخدم مصالحهم الشخصية ، ذلك لأن الأفراد لا يمكن ان يتعاقدوا الا على أشياء وقيم يمكن تداولها وتكون قابلة للتعامل . ولا أظن، ولا يظن غيري، ان الميل الفطري للانسان بالانتظام في مجتمع ، هو من الحقوق التي يمكن اخضاعها للعقود والتعامل ، خاصة وان الذي يستطيع ان ينشئها بعقد، يستطيع ان ينهيها بعقد أو يستطيع ان ينشىء التزاما على متعاقد بانتهائها . وهذا أمر غير ممكن لانه من اختصاص الله وليس من اختصاص البشر .

ومن جهة ثانية فانه لو كان من الممكن ، فرضا ، تفسير ظاهرة المجتمع على أساس العقد الاجتماعي ، فان هذا الفرض يقودنا الى التوسع في مفهوم العقد الاجتماعي واخضاعه لكافة قواعد العقود ومؤيداتها ، الأمر الذي يقودنا الى البحث عما اذا كان هذا العقد باطلا اذا لم يكن قد استوفى شرائط انعقاده ، أو قابلا للابطال اذا لم يكن قد استوفى شرائط صحته ، والى البحث عما اذا كان من الممكن فسخ هذا العقد قضائيا عند الاخلال بتنفيذ بنوده من قبل احد اطرافه، أو انفساخه عند حصول موانع متبادلة بين أطرافه تحول دون تنفيذه .. الى آخر ذلك من قواعد العقود . فاذا كان من المسلم في المنطق والعقل والعلم انه لا يمكن تطبيق قواعد العقود على نظرية العقد الاجتماعي فانه يكون من العبث تفسير ظاهرة المجتمع على أساس هذه النظرية، وبالتالي فانه لابد من التسليم لظاهرة المجتمع كحقيقة كونية، لان الله تعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائل،

فمن المجتمع تستمد المقاييس والقوانين الناظمة لحياة الأشخاص في هذا المجتمع .

مفهوم القانون وعمقه الاجتماعي :

يتحدد مفهوم القانون وفق علم المنطق بتصور العلاقات الضرورية بين الظواهر أو العلاقات الضرورية المنبثقة عن طبيعة الأشياء .

هذا التعريف ينطبق على القانون بشكل عام، ولكن الذي نقصده في القانون بشكل خاص، والذي هو موضوع بحثنا، هو ذلك القانون الذي ينظم الحياة الانسانية من خلال مجموعة قواعد ومبادىء قانونية تستمد من شرائع المجتمع الذي يطبق فيه ومن تفكيره وفلسفته واخلاقه، وتهدف الى تنظيم الحياة والعلاقات وسلوك الافراد في الجماعة الانسانية تنظيما ملزما .

ونرى انه من الجدير بالذكر ، في هذا الخصوص ، ان بعض دارسي القانون اعتادوا ان يوجهوا اهتمامهم الى مسائله التفصيلية وحلوله الجزئية التي يثيرها تطبيق النصوص الوضعية في الحياة اليومية في الوقت الذي كان يجب أن تتصف دراسة القانون بشيء من التعمق والتحليل لاظهار أساسه المتمثل بالخلفيات الفكرية والدينية والاقتصادية للمجتمع الذي يطبق فيه، وللعمل على بيان مدى صلته بهذه الخلفيات ومدى مواكبته لها من أجل تحقيق الهدف من تطبيقه في الأساس ثم للوصول الى الاستنتاج بأن حقيقة القانون لا يكشفها مجرد مضمون القواعد القانونية، ولا الالزام الذي يصاحبها، بل يكشفها ارتباطه بالقانون الحي للمجتمع الذي يطبق فيه .

وعلى ذلك فان أي أسلوب في دراسة القانون لا يقوم على احتواء المسائل الكلية في مختلف اطوار حياته، ولا يتصدى لمواجهة الاسئلة الكبيرة، هو أسلوب قاصر تستهويه من القانون حركته العملية في التطبيق واشكالات هذا التطبيق دون ايلاء أهمية لما وراء القانون من ابداع المخاطبين بأحكامه .

فالقانون ما هو الا نظام للحياة في الجماعة الانسانية «ولا توجد جماعة انسانية ولن توجد بدون ان تنظم الحياة فيها والعلاقات بقواعد ومبادىء ملزمة . والحقيقة فقد وجد

الانسان منتظما في جماعة بشرية ، ويكون من الصعب جدا ، ومن المستحيل ، ان نتصور امكان وجود حياة فردية منعزلة ولو للحظة واحدة من عمر التاريخ البشري دون ان يفرض على الفرد فيها شروط وجود غيره معه . فهناك اذن تلازم بين المجتمع والقانون، في أول مجتمع في تاريخ البشرية عندما بدأ بآدم وحواء كان يوجد قانون . فقد صاحب نشأة هذا المجتمع أمر ونهي من الله سبحانه وتعالى بترغيب بثواب الامتثال للأمر، وترهيب بجزاء مخالفة النهي. وفي ذلك يقول الله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) صدق الله العظيم (الآيات ٣٥ ـ ٣٩ من سورة البقرة) .

وعلى هذا فإن وجود الروابط والعلاقات والشروط يقارن بوجود الانسان على الأرض ، فبدءاً من وجود الانسان على الأرض يتحدد عمر القانون كتنظيم اجتماعي .

وتجدر الملاحظة ان انتفاء نضج الروابط والعلاقات والشروط الاجتماعية في المراحل الأولى للحياة البشرية لا يعني أبدا انتفاء وجودها . الأمر الذي يفسر مبدأ معيارية مفهوم الحق كمبرر موضوعي لاستمرار حركة القانون باعتباره مرآة الشروط والمعطيات المحيطة به .

وكذلك لابد من المبادرة الى القول وقبل الدخول في التفصيل ، ان معيارية الحق الذي يحميه القانون والهدف المراد تحقيقه منه لا تنتقص من مبدأ الالزام في هذا القانون ، ذلك لأن القانون لابد من أن يكون قد وجد من أجل تطبيقه من جهة ، ثم أن مسألة تطور القانون أو تطور فكرتنا عنه ، مع ازدياد درجات التطور في حقوقنا ، قد عني في تفسيرها بل وفي شحذها الى خاصة الالزام في القانون من جهة ثانية .

ولا مجال للاستغراب ، في اعتقادنا ، اذا قلنا بوجوب الخروج على التقليد القاضي باعتبار الحق على أنه مفهوم مطلق ، ذلك لأن المقصود بفكرة معيارية الحق هو انه «مركز

قانوني اجتماعي متوازن» أي أنه قيمة اجتماعية مقدرة يتم تحديدها بمقاييس المبادىء السائدة في المجتمع أو بمبادىء قانون المجتمع الحي .

نصل الى القول ان اعمال منطق التحليل العلمي وبالاشارة الى النظرية الاجتماعية للقانون ، يؤدي الى اعتباره وسيلة لتحقيق الغاية الاجتماعية المختلفة. بالعدالة والمصالح المشتركة للافراد المخاطبين بأحكامه . فهو اذن ليس غاية في ذاته ، وعلى ذلك فانه يكون بطبيعته قابلا للحركة الدائمة في تعقب هذه المصالح وفق الشروط والظروف المحيطة . ويكون دائم التطلع الى المستقبل .فهو وان بدا ثابتا للعيان بسبب وجوب تطبيقه وبسبب الزاميته ، يرتبط بمفاهيم معيارية مستمدة من البنيان الخلقي والفكري والعقائدي في المجتمع . الأمر الذي يفترض فيه أن يكون مرناً اذا كان الأمر يتعلق باستمرار تغييره ليستطيع ان يواكب شرعة المجتمع الذي يطبق فيه . واضافة الى ما تقدم فان خاصة الالزام في القانون لا تحول دون مواكبته لشرعة المجتمع ومبادئه ، ذلك لان هذه الخاصة تدور مع أصل قابل للتغير يتمثل في تطور وتبدل النظرة الى المصالح وتغير الحاجات مع تبدل الشروط والظروف المستجدة «فلا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان» .

ومرونة القانون يجب ان لا تضعفه لانه ، في الواقع ، يفرض احترامه ويوجب المطالبة بتطبيقه والدفاع عن الزاميته ، لانه كما يبدو الان يحقق مصالحنا ضمن الشكل المتاح ووفق الحد الممكن لنظامنا الاجتماعي ، ولاننا ندرك من خلال تطبيقه مدى عدالته ومتى يجب تغييره . وعلى ذلك يكون القانون صياغة في خدمة سياسة، ليضعه الانسان ويلغيه . فمن يملك ان يضع القوانين يملك أن ينهيها . فالقانون يطبق وينفذ وهو ملزم، ولكن هذا لا يعني انه من المقدسات ، بل يعني فقط اننا نلتزم به ونطبقه لنختبر مدى عدالته ، وفي الحقيقة ان مسألة التحكم وجودا أو عدما بقوانيننا التي نضعها نحن لسياسة وادارة علاقتنا ، هي موضوعة سهلة المواجهة اذا ما قورنت بواجب السعي لاخضاع قوانين الطبيعة ذاتها لتحقيق الرفاه الأمثل للبشرية .

نلخص ما تقدم في أنه ليس كافيا ، في تعريف القانون وتحديد ملامحه وأسسه ، ان نقتصر على الدخول في تركيبه الذاتي كفن وصياغة من أجل اظهار اجزائه المتمثلة بالقواعد والأحكام القانونية ، بل لابد لذلك من التعرض الى نسب القانون وهويته . فاذا

كان القانون ما هو الا نظام للحياة الآمنة في المجتمع ، فيجب ان لا يبالغ دارسوه في اظهاره على أنه حكم آمر وليس تشريعا ناظما .

فاذا كان القانون ما هو في حقيقته الا شرعة لتنظيم الحياة والروابط والعلاقات ، فانه لابد ان يقترن بالقوة والهيبة أو الالزام لضمان التقيد بقواعده والخضوع لاحكامه . ولكن هل هذا يعني ان قانون المجتمع البشري على كافة مستوياته ، الذي يعتمد في فعاليته على مدى القوة المنظمة التي تسنده ، يكون قانونا قمعيا أم قانونا ناظما ؟ للجواب على هذا السؤال لابد أن نستعرض الآراء الفلسفية التي تتحدث عن السلطة وعن القوة في القانون وصولا الى بيان رأينا في هذين الموضوعين .

(٢)
في المعاني الفلسفية والاجتماعية للقانون

توطئة أو مدخل الى الموضوع

توصلنا ، فيما سبق الى أن القانون هو في حقيقته شرعة لتنظيم الحياة والروابط والعلاقات . وعلى ذلك فانه لابد ان يقترن بالقوة والهيبة والالزام لضمان التقيد بقواعده والخضوع لاحكامه ولكن هل هذا يعني ان قانون المجتمع البشري على كافة مستوياته ، الذي يعتمد في فعاليته على مدى القوة المنظمة التي تسنده ، يكون قانونا قمعيا أم قانونا ناظما؟

للجواب على هذا السؤال لابد ان نستعرض الآراء الفلسفية التي تتحدث عن السلطة وعن القوة كركيزتين أساسيتين للقانون وذلك وصولا الى بيان رأينا حول هذين الموضوعين ووفق الآتي :

مقدمة تاريخية :

تدل مظاهر الفكر البشري المستخلصة من الأساطير القديمة على ان الكون كان يعتبر دولة تحكمها الآلهة، ويقتسم الادوار في الحكم الهان هما «انو» لبلاد الرافدين ، يعادله «زفس» لبلاد اليونان . وهو اله السماء ورمز السلطة في النظام الكوني . والاله «انليل» لبلاد الرافدين، يعادله «زيوس» لبلاد اليونان وهو رمز القوة والارغام واله العاصفة في النظام الكوني .

والذي يفهم من هذه الاساطير انها تعكس الشعور الانساني العميق بالحاجة الى نظام مصحوب باعتقاد يفيد ان هذا النظام يحتاج الى وجود عنصرين متلازمين هما السلطة

والقوة أو السلطة والقسر على المستويين السماوي والأرضي . فما هو منشأ ودور كل من هذين العنصرين ؟

أولا : السلطـــة :

قال تعالى في كتابه العزيز «وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون» صدق الله العظيم (البقرة الآية ٣٠)

وعن القوة قال تعالى «.. ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا ..» صدق الله العظيم (البقرة ١٦٥) فالسلطة يضطلع بها البشر ولكن بقوة الله سبحانه .

الخضوع للقانون هو أحد خصائص العلاقة القانونية، وهو العنصر الحاسم، وان كانت فكرة القانون تشمل على ما هو أكثر من الخضوع، اي تشتمل على الخضوع الموضوعي الذي يجسد التنظيم الصادر عن المبادىء والقيم التي يعتقد بها المجتمع المنظم . ولذلك فان الخضوع للقانون يجب أن يكون بهذا المعنى: اي هو الخضوع الذي تبرره الشرعية . وهذا يعني أن ما يشعر به الملتزم بالقانون هو أنه اتمام واجب أدبي أو خلقي يملي عليه الخضوع له . على أنه لابد من الاشارة الى أن التسليم بهذا الواجب الأدبي لا ينفي ما هو موجود من صعوبات تعترض اعتبار القانون والأخلاق صنوين متساويين في الدرجة والنظام رغم تساويهما في النوع ووحدة الأساس .

وقد قال الله تعالى في الطاعة «يأأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا» صدق الله العظيم . فقد أمر سبحانه بالطاعة بعد ان حدد الصراط المستقيم وبعث نبيه رحمة للعالمين . فقد قال تعالى لنبيه «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وقال تعالى عنه «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» وقال تعالى «هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور» «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه

سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم»
صدق الله العظيم .

وبما أن السلطة تعني السيطرة الشرعية فانه لا يهم بعد ذلك شكل ونظام الحكم في الدولة التي تمارسها . فسواء ارتبطت السلطة بالنعمة الالهية أو الموهبة الشخصية «الكاريزما» أو ارتبطت بمواهبه أو مبادئه التي تأطرت في مؤسسته الشرعية، وسواء ارتبطت بأجهزة الدولة التي يقال عنها انها ديمقراطية أو بأشخاص هذه الدولة الذين وصلوا الى مواقع السلطة فان الشرعية ، في نظرنا ، لا تتعلق بشكل استخدام السلطة بل تتعلق في مدى الانسجام والتقارب بين القانون كوسيلة أو أداة للسلطة وبين معتقدات وأفكار واخلاق الجماعة الانسانية كوسيلة للعدالة . وعلى هذا لا تتحقق العدالة الا بالنعمة أو الموهبة (الكاريزما الاجتماعية) . وهذا القول ينطبق على الدولة ذات النظام الشخصي بقدر ما ينطبق على الدولة الحديثة الديمقراطية والبيروقراطية . ونعتقد بامكانية الجمع بين المصطلحين ، الدولة الحديثة التي يقال انها تخلت عن «السلطة الكاريزما» لصلحة المؤسسة التشريعية والقضائية والبيروقراطية التي يعلن انها تعمل مجردة عن الشخص في ظل نظام قانون يحتكر شرعية استخدام القوة . ففي هذه الدولة يقال ان السيطرة القانونية تستغني عن «السلطة الكاريزما» الشخصية مع العلم ان دور الشخص يبقى واضحا وكبيرا وفيها وبعده يظل الايمان بالشرعية ويظل الاصرار على التمسك بتقاليد النظام التي تأطرت على شكل مؤسسة تستقي الموهبة ليس فقط من الاشخاص اللاحقين بل كذلك من اسلافهم . وتتجلى فائدة هذا الايمان . الذي لا يقبل المنازعة ولا النقاش ، في أن السلطة القانونية التي لا تعتمد على الموهبة تتوقف عن العمل ويحل محلها الفوضى والاضطراب مدة قد تطول بطريقة يصعب معها التخلص من آثارها .

ورب كثيرين يقولون ان في تعدد مؤسسات السلطة في الديمقراطيات الحديثة ما يؤمن وصول المجتمع الى السلطة عن طريق ممثليه . ونحن نعتقد ان المشاركة الفعالة للمجتمع في الاخذ بنصيب من السلطة وطرق ممارستها وفي رسم الشرعية ، لا تتم الا في الحالة التي يكون كل ممثل لهذا المجتمع في مؤسسات السلطة قادرا على أن يجسد قيم

مجتمعه . الأمر الذي يتطلب ، في بعض الأحيان . نوعا من الاختبار الوطني بل ومن الاعداد التعليمي في مدرسة عتيدة كالتي قال عنها «افلاطون» لاعداد الحكماء والفلاسفة وتربية المواطنين الموالين لهم .

لقد اخبرنا التاريخ ان تجاوب الأشخاص والاهمية الشخصية لم تكن اقل نجاحا في تأمين العدل الى مجتمعهم من تجارب الأنظمة التي تعتمد مبدأ تعدد مؤسسات السلطة . لذلك يصح القول انه من الممكن ان تتعدد في الشخص الصفات والمواهب الخلاقة بالقدر الذي يساوي من حيث محصلة العدالة ما تصل اليه مؤسسات السلطة المتعددة . فالسلطة الفردية وسلطة المؤسسات تحتاج من أجل شرعية وجودها الى القدرة على أن تكون مرآة صادقة لاخلاق وقيم المجتمع . وبالتالي فان الدولة ذات النظام الشخصي أو تلك التي تتعدد فيها المؤسسات التي تضطلع بالسلطة تحتاج على السواء الى ان تجسد اخلاق المجتمع لكي تحكم في الناس عدلا بحكمتها العظمى .

على أن الموهبة الفردية والجماعية التي تمهد للسلطة تعني الشعور النبيل بالوطن والمجتمع والعدالة . ومن هنا فان نموذج الموهبة التي تمهد للسلطة لا تنتج بتحليل نموذجي نمطي لوسائل السيطرة يفتقر الى المضمون التطوري ويقف أثناء دراسة المجتمع عند الاتجاهات العامة وشبه الغامضة كما هو الحال في اتجاهات علم الاجتماع ، بل ان نموذج الموهبة التي تمهد للسلطة يحدث في التاريخ المتعاقب ممتزجا بمركبات متغايرة في درجة التعقيد والتركيب . لذلك يصح القول ان هذا النموذج للسيطرة الشرعية يمكن تطبيقه على أمم مختلفة مع مراعاة العبر والتجارب التي استفادتها من التاريخ .

المدلول العلمي للموهبة :

ذكر ماكس فيبر ، عالم الاجتماع الالماني (المتوفي سنة ١٩٢٠) ، عند دراسة نموذج الموهبة كممهد للسلطة ان هذه الموهبة تكون الهية في اعتقاد الناس . وهذا يعني انها يجب ان تنطوي على مضمون من الفضيلة والاخلاق وهي لا تكون كذلك الا في حال تمتع الشخص الموهوب أو الاشخاص الموهوبين بصفات تجعلهم قادرين على الاعتقاد بأفكار

مجتمعهم ونظرياته . وعلى ذلك فانه لا خطر ، في اعتقادنا ، من تفاقم الموهبة وتحولها الى مؤسسة مؤطرة الصفات يستمدها الشخص الحاكم أو تستمدها المؤسسات التي تأخذ بزمام السلطة من معتقدات المجتمع في ميادين الحياة المختلفة والمتنوعة . وهذا ما يصلح لتفسير قول بعض الفلاسفة ان الدولة هي تجسيد أعلى للاخلاق، بمعنى ان المجتمع هو نبع الاخلاق وان الدولة هي خلية نشطة في كيانه وعلى هذا الأساس يصح تسمية «الكاريزما» بالموهبة الاجتماعية . على أن الدساتير الوطنية والوثائق العالمية اهتمت بالحرية والحقوق الطبيعية للانسان . الأمر الذي يتطلب دراسة المفهومين الفردي والجماعي للحرية والحقوق على ضوء مصطلح الموهبة الاجتماعية .

الفردية والجماعيـــــة :

اتخذ الفكر الفردي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شكلا اقتصاديا متميزا واصبحت النظرية الفردية بعد الثورة الصناعية ونمو المشاريع الرأسمالية عقيدة فلسفية وسيكولوجية تطورت الى شعار سياسي واقتصادي اتخذ شكل «حرية العمل وعدم التدخل» فسادت فرضية منذ ذلك الى الآن تفيد بأنه على القانون أن يتحاشى ما أمكن التدخل في حرية العمل الفردي وخاصة العمل الاقتصادي . وقد احتلت النظرية الفردية موضع التأمل والتفكير القانوني مما أدى الى ترجمة هذا التأمل الى عمل بظهور المبدأ القائل ان المجتمع تطور نتيجة الانتقال من الوضع التشريعي الى الوضع العقدي ، وأصبحت حرية الفرد في اجراء العقود التي يشاء هي رمز المجتمع المفتوح المتطور . وعلى أثر ذلك انحصرت سياسة القانون بالحفاظ على هذه الحرية وضرب المحاولات التي تهدف الى التقييد من حرية الفرد الاقتصادية . ولهذا قال انصار هذه النظرية انه من الخطأ ان يحدد المشروع ساعات العمل أو ظروفه في المصانع والمناجم بحجة ان العمال كانوا احرارا في قبول هذه الشروط أو رفضها وهذه الحرية كانت قوام المجتمع المتقدم .

ولكن مهما تكن قوة دعاة مبدأ «عدم التدخل» ، فانهم كانوا ، في الواقع ، يحاربون ضد فلسفة أخرى لا تقل قوة وتنطلق أفكارها من مسلمات الفكر الفردي وتشدد على قيمة الرفاه الاجتماعي وتسمح بتدخل المشرع لخلق الظروف التي لابد منها لتحقيق هذا

الرفاه . وقد استمدت هذه الحركة حيويتها من النظرية النفعية «لجيرمي بنتام» الذي يجعل المساواة في السعادة هي المسألة المقصودة من فكرة القانون الطبيعي والحقوق الطبيعية ، والذي قدم فلسفة تبنت تحسين الوضع المادي للانسان من خلال التركيز على حجم سعادته .

غير أن الفلسفة النفعية لم تتمكن من حسم المعركة لانها انطلقت في صراعها مع الفكر الفردي من مسلمات هذا الفكر ذاته .

لقد كان الطابع الخاص لفلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر وراء ظهور مبدأ عدم التدخل . فقد اتخذت الفلسفة خلال هذين القرنين طابعا استقرائيا وأخذت توجه المجتمع الدنيوي المتحرك الدائم التغيير نحو احترام الحقوق الفردية ونحو اخضاع مؤسسات السلطة الى مفهوم الحرية الفردية التي أصبحت تمثل أعلى درجات الكمال .

على أنه من الملاحظ ان هذا التوجيه الفلسفي نحو الحرية الفردية لم يكن يقصد عند انصاره قطع عرى الفلسفة القانونية عن نزعتها الماورائية أو عن محركها الماورائي المتمثل بالقانون الطبيعي ، بل كان يقصد تحديد وحصر مدلول القانون الطبيعي ذاته «بالحرية الفردية»، أي أن القانون الطبيعي أصبح هو «الحرية الفردية»، وذلك انطلاقا من الاعتقاد بأن هذا المحتوى الجديد للقانون الطبيعي، يؤدي الى انتشال ذاتية الفرد التي كانت ضائعة تحت ركام المفاهيم الضبابية السابقة، والتي كرست السلطة القمعية . والواقع انه لم تكن هناك وسيلة تواجه السلطة المستبدة، وتكون اكثر فائدة ونجاحا، من وسيلة الحرية الفردية، التي استخدمت أحسن استخدام باثبات نسبها من القانون الطبيعي الامثل الذي اعتقد انه ينطوي على المبادىء الثابتة والحقائق القانونية الخالدة، ويعتبر ملهم الاجيال القانونية والمجموعات القانونية، بالحقائق الخالدة والحكم البالغة، وبخاصة عندما اصبح مجتمع السلطة الموحدة والمستبدة في المجتمع الواسع، ينظم على أساس الروابط والعلاقات، بعد ان كان ينظم في المجتمع الضيق على أساس القرابة .

ومما تقدم يمكن القول ان فلسفة الحرية الفردية، ومبدأ عدم التدخل، قد أديا الى تحجيم محتوى القانون الطبيعي من الناحية الموضوعية، بحصر معانيه ومدلولاته

بالحرية الفردية، أو بمبدأ عدم التدخل ، وكذلك من الناحية التقنية أو الفنية، بالتنازل عن مفاهيمه المطلقة وعن العبارات والمصطلحات الدالة على هذه المفاهيم، فظهر مصطلح الحقوق الطبيعية بدلا من القانون الطبيعي .

ونعتقد انه لم يكن الهدف من ذلك ، عند مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر، بعث مفهوم الحق بطبيعته طبقا لما كان سائدا في عمق الفلسفة اليونانية والتفكير اليوناني، حيث كان الفرد اليوناني مثاليا في تصوره ونظرته للاشياء ، كمثل «التفاحة الطبيعية التي لم تكن تعني له تلك التفاحة البرية التي نمت منها التفاحة المزروعة اليوم ، بل كانت تعني له التفاحة الذهبية التي تنمو في حديقة خرافية ، بل كان من نتيجة ذلك، ان المعنى النهائي للقانون الطبيعي لم يكن كما كان في السابق. عبارة عن مبادىء مطلقة خالدة في الزمان والمكان ، ولكنه أصبح يعني الحقوق الطبيعية المستمدة من الصفات التي قيل انها كامنة في الانسان، تلك الصفات التي يكتشفها العقل، والتي يوجد القانون الطبيعي لضمانها وحمايتها، والتي يجب ان يتكفل القانون الوضعي كذلك بحمايتها، باعتباره المعلن الصادق للحقوق الطبيعية، وفقا لهذا المعنى، الذي حدد لها . ولعلنا نوفق اذا قلنا ، استنتاجا من المعطيات المتقدمة ، انه عندما توسع المجتمع، اضمحلت أو ضعفت جذوة الشعور بالقرابة، فنظم المجتمع على أساس الروابط والعلاقات، وعلى أساس من الحرية الفردية، ومبدأ عدم التدخل الذي يرافقها كبديل مصطنع، اعتقد القائلون به انه يكفي لتأمين حماية الفرد التي كانت القرابة تضطلع بتأمينها في المجتمع الضيق . ولعل من الفائدة ان نستنتج من ذلك، انه بقدر ما يتكون لدى الفرد الاحساس بالانتماء الى المجتمع، وبقدر ما تتخذ عضويته في هذا المجتمع شكلا عمليا، بقدر ما يستتب الاستقرار فيه . وهذا لا يكون إلا بأن يكون عمل الدولة منسجما مع طبيعتها باعتبارها «**جهاز للادارة الاجتماعية**» . وفي هذه الحالة يتحدد مفهوم القانون بأنه قواعد معيارية ناظمة للمصالح المشتركة وليس احكاما قمعية، أو بأنه نظام للمعايير وليس نظاماً للأوامر .

وعلى صعيد فكرة الحرية الفردية، ومبدأ عدم التدخل الناتج عنها، أو الذي اقترن بها ، فان أيا من هذين المبدأين، لا يمكن أن يؤمن الحماية للفرد بالمعنى الاجتماعي .

ذلك لأن القائلين بها أرادوا التطبيق في المرحلة التي انعقدت فيها المساواة فلم تتقرر هذه الحرية للافراد جميعهم، وهم بدرجة واحدة من الاستعداد لممارستها بالقدر اللازم من المساواة في القدرة على المساومة والمنافسة . الأمر الذي أدى الى أن تصبح الحرية الفردية وسيلة للظلم الاجتماعي لانعدام التساوي في الفرص، اذ أن «من يحتكر الفرصة يحتكر الحرية» .

على أنه من الجدير بالذكر، ان ربط العدالة بالحرية الفردية، المستمدة من الصفات أو الطبائع الفردية للانسان، أو بما سمي بحقوقه الطبيعية . أدى الى تحقيق بعض المنجزات، التي تجد أساسها في الجانب الفردي للتفكير الحقوقي . ومن هذه المنجزات وضع مشاريع فقهية للحقوق القانونية، ضمنت بموجبها، وبصورة فعالة، المصالح والحقوق والخصائص المرتبطة بالشخصية الانسانية، والمصالح الفردية في الأموال. وفي ظل هذه الفكرة كذلك، انشأ القضاة الانكليز الحقوق الأزلية للمواطنين الانكليز تلك الحقوق التي نجد أساسها في العرف العام، أو القانون العام، الذي يعتبر شرعة الحقوق الانكلو ساكسونية . ولكن على الرغم من ذلك ، فانه لابد من القول ان التفكير الفردي ، الذي ادعى انه استمد من العقل ، يؤدي الى تحجيم العقل بالصفات الشخصية الحادثة، وحاجات الانسان الطارئة، على حساب صفاته الأصلية المتمثلة في ميوله الفطرية الى المساواة والى التعايش بصفة عضوية مع الجماعة ، تلك الصفات والميول المنحدرة، بالضرورة، من حتمية الحياة الاجتماعية كحقيقة كونية، تقتضي المساواة القيمية كضرورة قانونية .

المجتمع كيان عام والدولة رمز لقيمه

من يطلع على كتابات «روسو» يتبين له انه استاء من المفهوم الفردي الصرف للمجتمع ، وحاول شرح وحدة المجتمع عبر مفهومه عن «الارادة العامة»، وذلك بقوله ان المجتمع هو كيان منبثق من ارادة مختلفة ومتميزة عن ارادة الأفراد الاعضاء في هذا المجتمع ، وكذلك أكد «أدموند بورك» فيما بعد، على الأصول التقليدية والتاريخية للنظام الاجتماعي، ورفض لذلك تفسير الدولة الوطنية على أنها «مشاركة في مشروع تجاري»،

وبعد ذلك جاء الفيلسوف الالماني «هيجل»، الذي وضع الأساس الفلسفي للمجتمع واعتبره كيانا ميتافيزيائيا يختلف عن الأفراد الذين يتكون منهم وهو أسمى منهم .

وفيما يتعلق بهيجل، فان نظريته تتصف بطابع تاريخي، وتقوم على تصور مفاده، ان المجتمع البشري يسير وفق نمط مرسوم من قبل . ويعتقد هيجل ، بمثاليته الافلاطونية ، وبحق، ان الافكار هي أكثر حقيقة من العالم المادي المحسوس ، وان الفكرة التي تحكم التاريخ البشري هي العقل . وهذه الفكرة تحقق ذاتها بشكل تدريجي في التاريخ الانساني الى أن تصل الى أعلى درجاتها في الدولة الوطنية التي هي تجسيد للعقل . وهذه الدولة هي حقيقة وليست خيالا، لانها ثمرة تطور العقل . وهي حقيقة أكبر من حقيقة المواطنين الذين تتألف منهم . ولهذا فان المواطنين يجب ان يخضعوا كليا لأهداف الدولة العليا لكي يمكن استغلال كل الطاقات الكامنة في الانسان .

وكان هيجل يعتبر نفسه رسولا للحرية، مع ان حريته ليست تلك الحرية الفردية، وانما هي الحرية الاجتماعية والسياسية والثقافية، التي لا يمكن تحقيقها الا عن طريق الدولة الوطنية، التي تمثل قمة الحضارة . ويصر هيجل على أن الدولة هي الانجاز التاريخي الاجتماعي العقلي، الذي يحقق الحرية والذي يعتبر أسمى تعبير عن ثقافة الانسان وحريته .

ولا يشترط هيجل شكلا معينا للدولة الوطنية التي تحقق الحرية ، وانما يعتبر الدولة على انها قمة العمل التاريخي الصاعد الى المرحلة التي تجسد فيها العقل الاجتماعي . وفي هذه الحالة ينتفي مبرر الصراع بين الأفراد والدولة، لانهم يدركون بثقافتهم ووطنيتهم ووعيهم، انها رمز القيم السامية والعقلانية لمجتمعهم، وانها دوما على حق . وفي هذه الحالة ايضا ينتفي مبرر اللجوء الى القانون الطبيعي كمحرك ايديولوجي للمساس بالدولة ، لانها والحال هذه ، تعتبر صرحا عقلانيا أعلىٰ ومدرسة للأخلاق والوطنية . الأمر الذي يقتضي القول، أن هيجل لم ينكر وجود القانون الطبيعي، لاظهار ميدانين مستقلين للقانون والاخلاق ، وانما لدمج القانون الطبيعي باعتباره مرادفا للاخلاق في عالم قانون الدولة ، لذلك يرى ، بحق كما نعتقد ، ان قانون الدولة، وفق ما وصفها، يشكل معيارا للاخلاق، لانه يجسد اعلى تطور لفكرة العقل . وعلى ذلك فانه لا يمكن ان توجد الاخلاق

وخاصة اخلاق الفرد ، خارج اطار الاخلاق الجماعية المتمثلة في الدولة وقانونها .

ونعتقد انه ليس صحيحا ما يقال ان مذهب هيجل شكل الاساس لعديد من الايدولوجيات «التوتاليتارية»، التي ازدهرت في هذا العصر، «كالفاشية» و«النازية»، ذلك لأن المبدأ الجديد الذي استندت عليه هذه الايدولوجيات، لم يكن من خصائص الهيجلية . فهيجل كان عقلانيا، لدرجة الايمان بأن عقلانيته اصابت الحقيقة بطريقة اكبر بكثير مما حققته عقلانية القرن الثامن عشر المصطنعة، التي وصفت بأنها مستنيرة . بينما الفاشية والنازية جمعتا كل القوى غير العاقلة، بل والمضادة للعقل، التي برزت الى المقدمة عندما انقضى القرن التاسع عشر وبدأ عصرنا الحالي ، فمثل عقيدة «الانسان المتفوق لنيتشه» . ومثل الايمان بالدم والعِرق بدلا من الذكاء، حيث انبثق الرأي القائل ان القانون نفسه ما هو الا تعبير حدسي لأوامر العِرق والأمة العرقية .

وكذلك ليس صحيحا ، في اعتقادنا ، ما قيل ان فلسفة هيجل العقلانية قادت الى مذهب غير عقلاني، ينغمس في مفهوم «الكاريزما»، الذي عرفته العصور الأولى، التي كانت تؤمن بالقائد والملهم . وذلك لان فكرتنا عن «الكاريزما» كما سبق ان أوضحنا لا تقوم على الايمان بشخص يفرض سجاياه الغريبة، على مجتمعه وانما بالشخص أو الدولة التي تجسد عقل المجتمع واخلاقه، حيث يكون قانونه نظاما للتطبيق العادي للمعايير الاجتماعية، وليس نظاما للأوامر والأحكام القمعية .

ثانيا : القــــوة :

تحدثنا فيما سبق عن عنصر السلطة الشرعية الضروري لقيام القانون بأداء وظيفته الاجتماعية . والآن لابد من أن نقول شيئا عن رديف السلطة أي عن عنصر القوة وعن دورها في قيام القانون بأداء هذه الوظيفة .

قلنا ان الدولة دون النظر لشكلها ولا لمؤسساتها، هي قمة العمل الصاعد الى المرحلة التي تصل فيها الى تجسيد العقل الاجتماعي . ومن هنا قلنا ان الدولة هي رمز القيم الخلقية والعقلية للمجتمع . وهذا ما يضفي عليها الصفة الشرعية، وهو أساس حقها في

السلطة، التي يجوز أن تستخدمها لهدف غير اجتماعي . فالدولة اذن تمارس ما يصح ان نسميه «السلطة الاجتماعية»، التي يتحدد الهدف من استخدامها في تنظيم المراكز القانونية للافراد، وفي تحديد قيم المجتمع المتمثلة بمبادئه الاساسية في التنظيم، أو بأسسه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تكون المعتقد الاجتماعي العام والتي يقوم عليها مجتمع معين في وقت معين .

على أن هذا الدور للسلطة الشرعية يحتاج الى مؤيدات تستخدمها الدولة، لتتمكن من القيام به على الوجه الأكمل . وبهذا تتضح علاقة السلطة بالقوة . وقبل ان ندخل في التفصيل حول وصف هذه العلاقة . لابد لنا من القول : ان القوة هي الوجه الآخر للسلطة ، وبما ان السلطة يجب ان تكون شرعية، فلابد من ان تكون القوة التي تستخدم للدفاع عن أهداف السلطة شرعية كذلك . وهذا يعني ان الدولة التي هي رمز الاخلاق والقيم، تتضطع بدور تنظيمي وبدور تربوي . ومن خلال دورها التربوي أو التأديبي، تستخدم القوة لحماية مبادىء المجتمع وأسسه واهتماماته .

ومع هذا فان هناك مجتمعات سادت فيها سيطرة، دون أن يكون لدى الرعية أي ايمان بشرعيتها . وهذا لا ينسحب بالضرورة على كل المجتمعات التي يتألف سكانها من الرعايا العبيد . كما كان الحال في سبارطة القديمة أو الامبراطورية الرومانية التي كان معظم سكانها من العبيد ، ذلك انه حتى في تلك المجتمعات ، وعلى الرغم من المآسي التي كانت قائمة ، فان شرعية السلطة التي كانت تمارسها الدولة كانت موضع ايمان السكان جميعا .

ومع ذلك ، فان عدم وجود الفوضى لدى السكان الذين لا يؤمنون بشرعية السلطة التي تسيطر عليهم في أوقات استثنائية ، ليس دليلا على امكانية المحافظة على السيطرة بالاستناد الى القوة الغاشمة وحدها وبدون عنصر الشرعية . هذا وان كانت القوة قد استطاعت وحدها ان تحقق ذلك ضمن اوضاع خاصة وفي فترات محددة كما يحصل في الديكتاتوريات، وكما حصل خلال الحرب العالمية الثانية. اذ احتلت المانيا النازية العديد من البلاد، حيث كان النازيون يملكون القوة لفرض ارادتهم على السكان . ولكن هؤلاء السكان المحتلين رفضوا شرعية سيطرة النازيين . وحتى لو انتصر النازيون في هذه

الحرب ، فانهم كانوا سيحتاجون الى وقت طويل لكي تزول عنهم صفة الغرباء ويظهرون في أعين السكان انهم يتحلون بالصفة الوطنية وبالتالي لخلق الاعتقاد بشرعية حكمهم .

جدال حول القوة أو الطابع القسري للقانون

هل يجب ان يفسر القانون دائما بمعيار القوة وحدها ؟ وهل صحيح ما نسب الى جمهورية افلاطون وهو يتحدث عن العدل بأن القانون هو «حكم الأقوى» وهل القانون هو مجرد تلك الأحكام والقواعد التي يفرضها القسر ؟

في الحقيقة هناك اعتراضات كثيرة على هذه النظرة منها : ان ارتكاز هذه النظرة على حالة قوى الاحتلال النازية، هو محاولة لزج القانون بمفهوم القوة في شكل هامشي، ووضع استثنائي، بدلا من فهمه في شكله المتميز . وعلى ذلك فان الاحكام التي فرضت في ظروف الاحتلال النازي تفتقر الى الأساس الشرعي والخلقي للمجتمع المفروضة عليه . وهي لذلك لا ترقى الى مستوى القانون ، بل هي شبيهة بالأحكام التي يفرضها رجال العصابات أو المنظمات الارهابية كالمافيا في صقلية . والواقع انه في فترات الحرب والثورة الاستثنائية يحكم المجتمع خلالها بالقوة والارهاب . ولكن لا ريب في ان هذه الحالة لا تشكل سببا مقنعا في اعتبار القانون على أنه تجسيد للقوة .

وهناك مقولة تفيد ان القوة أو العنف خطأ في حد ذاتهما ، وان القانون الذي يرتكز كليا على العنف ينتهك مبادىء الاخلاق . وفي هذه الحالة تكون القوة نفيا للقانون وتحطيما له . وتفيذ هذه المقولة ايضا ان العنف يقع خارج اطار القانون، وانه عنصر غريب ودخيل، يتم اللجوء اليه عند تعطيل حكم القانون .

ومع ان مثل هذه المعالجات معللة ومفهومة، فقد وجد من يقول عنها انها تخلق الاضطراب . ولا تسهم في فهم وظيفة القانون ، وتثير ضبابا كثيفا على نميزات مهمة للقانون، بدونها لا يمكن ان تستوعب دور القانون في المجتمع البشري .

ولكن، قبل ان ندخل في تحليل الموقف لابد من الاشارة الى أن الربط بين القانون

والاخلاق بأية علاقة، يؤدي الى أن يصبح دور القوة في النظام القانوني ثانويا، وهو كذلك، ليس لان القوة غير مهمة نسبيا، بل لانها ثانوية من الناحية التكتيكية .

وهناك مقولة في علم النفس على لسان فرويد، تركز على دور العوامل الباطنية غير الواعية، في تكوين سيكولوجية الانسان . ومن بين هذه العوامل الباطنية، التي يجب حسبانها، ليس فقط العوامل التي تدعو الى التعاون الاجتماعي التي يشير اليها «ارسطو» في مقولته الشهيرة «الانسان حيوان سياسي» ، بل الحوافز العدوانية الجبارة، التي يجب كبحها بشدة لكي يخضع الانسان لحاجات النظام الاجتماعي . ومن هنا ، كما تفيد هذه المقولة ، تبرز الحاجة الى القسر . وقد آمن فرويد انه من الممكن كبح هذه الحوافز العدوانية، لا القضاء عليها، كي تظل المدنية تنطوي باستمرار على صراع بين الحوافز الاجتماعية والحوافز العدوانية . وقال فرويد انه في الوقت الذي يمكن اقصاء الحوافز العدوانية نكون وصلنا الى العصر الذهبي الذي من المشكوك الوصول اليه اطلاقا . وعلى ذلك يقول انه يبدو أكثر احتمالا ان كل ثقافة يجب ان تستند الى القسر لنبذ وانكار الغرائز . وأكد رأيه بالقول ان «الناس ليسوا مخلوقات لطيفة ودودة يدافعون عن أنفسهم حين يهاجمون ورغبتهم في العدوان يجب دائما أخذها بالحسبان باعتبارها جزءا من غرائزهم الفطرية» . ويصل فرويد الى القول انه من المستحيل الاستغناء عن القواعد الاخلاقية اذ لولاها لما قامت الحضارة ولكنها ، كما يقول في الوقت نفسه تعيق بشكل محزن اعمق حوافز الانسان، ولهذا السبب يصر فرويد بشدة على الربط بين المجتمع المتحضر والنظام الاجتماعي القسري .

ومن جهتنا، فاننا نلاحظ التردد في هذه المواقف : فصاحبها يحرص على مجرد كبح الغرائز العدوانية في الانسان، كما يسميها دون القضاء عليها . وحينا آخر يعتبر الوقت الذي تنتهي فيه هذه الغرائز عصرا ذهبيا يستبعد الوصول اليه .

وكذلك، يعترف باستحالة الاستغناء عن القواعد الاخلاقية باعتبارها سبب قيام الحضارة، ولكنه يقول في الوقت نفسه، ان هذه القواعد تعيق بشكل محزن اعمق حوافز الانسان .

وتعقيبا على ذلك، فانه يمكننا الاستغراب والتساؤل، كيف تضعف قوة القواعد الاخلاقية، على صعيد تنظيم المجتمع وعلى صعيد الانصاف، اذا كانت تحتل وحدها المساحة الاجتماعية ، وكيف تكون قوية على هذا الصعيد، اذا كانت تُزاحمها وتحد منها الحوافز العدوانية في الانسان على هذه الساحة ؟

في اعتقادنا ان وجود جحافل القواعد الاخلاقية وحيدة على الساحة الاجتماعية يؤدي الى انتاج مردود ، على صعيد تحقيق اهدافها ، اكبر بكثير مما لو اضعفتها الحوافز العدوانية في الانسان .

ونعتقد انه ليس هناك صراع بين القواعد الاخلاقية والحوافز المشروعة لدى الانسان . ونتساءل هل يقبل أحد قولا يفيد ان الاخلاق تعيق اعمق حوافز الانسان ؟ في الحقيقة ان الاخلاق هي حوافز تصدر من أعماق الانسان، وان اي قول بغير ذلك لا يصدر الا من نظرة خاصة للاخلاق، تماثل النظرة الى القوانين القمعية، وتقوم على اعتبار الاخلاق مجرد نمط من التفكير الداخلي والسلوكي الساكن والمتحجر، مع ان الاخلاق هي في الحقيقة معايير عدالة وانصاف، وهي في حركتها كاملة الحرية، وبشكل معياري ملائم لمراحل المستوى الثقافي والفكري والحضاري للناس، وبالقدر الكافي لتلبية الحوافز المشروعة والضرورية للانسان . فهي اصدق تعبير عن القانون الحي للمجتمع، وبالتالي تكون أصدق من القوانين الوضعية ، التي لم يراع في وضعها النظام الخلقي ، في احترام هذه الحوافز .

ونعتقد ان ما يخفف من هذا التناقض في تحليل فرويد، انه انما يعالج حالة خاصة، دون ان يبحث عن حقيقة عامة . ونعتقد انه لم يتسامح في أمر هذه النزاعات العدوانية، لمجرد عدوانيتها، بل يمكن ان يضر حرصه عليها لما تنطوي عليه من طابع دفاعي ومن جذوة قانونية اجتماعية .

موقفنا من القوة أو من الطابع القوي للقانون

التسليم بعقلانية الدولة واخلاقيتها، يعني فقط انها تمثل المستوى العقلي والخلقي لمجتمعها، بمعنى انها ليست أكثر من خلية كثيرة الحيوية، تنبض باستمرار بأخلاق

المجتمع وقيمه، وتتصف بخاصة الاستعداد الدائم لتمثل نظرته الديناميكية الى المستقبل القانوني والحضاري . وهي من أجل ذلك لا تترك مجالا لافعال وعلاقات، يكون من شأنها افساد المجتمع، وعرقلة برامجه الحضارية . وذلك بأن تتدخل بموعد بطلان مثل هذه العلاقات، وبشعار مكافحة الجريمة، ومنع المخالفة لمثل هذه الافعال، وهذه هي القوة الملزمة للقانون .

على ان المجتمع بنظرنا هو مصنع لما يمكن ان نسميه «بالقانون الحي»، بمعنى انه ـ أي المجتمع ـ عبارة عن ايدولوجية قانونية ابداعية، تجسد باضطراد موقفا وحكما من وعلى الظواهر والعلاقات والافعال . وهذا القانون الحي، لا يعيش الا في مناخ شرعية الدولة، أو حرية المجتمع، التي تعني المشاركة الفعالة لأفراده في مجمل الانشطة الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

وعلى ذلك، فانه لا سبيل الى امتلاك الحق في هذه المشاركة، من مجتمع تحتكر فيه الدولة وضع القوانين بعيدا عنه، حيث يتحول عملها في وضع القوانين ، عندئذ ، الى عمل مهني، وتضمحل، في هذه الحالة، الجذوة الابداعية في القانون، بسبب غلبة الطابع الاجرائي والنمطي في وضعه ، وبسبب ما يشعر الافراد ، والحال كذلك ، من حياد مفروض . وفي هذه الحالة، تتخلف الدولة عن ركب المجتمع فتمشي الاخلاق، ويقف القانون، وتنشأ المعارضة، وتلجأ الدولة الى القمع أو القسر غير القانوني .

ان اضطلاع الدولة بدور قيادة المجتمع، هو الذي أدى الى الاعتقاد بأنها تجسيد أعلى للاخلاق . وعلى هذا فإن استخدامها للقانون كأداة للقمع، يؤدي الى منع حركتها، والى وقوفها، وعدم قدرتها على مسايرة المفاهيم القانونية المعيارية، التي تتطلع دائما الى المستقبل .

فالقانون هو كائن حي كثير التنقل ، فهو كالمسافر يجب أن يكون مستعدا للغد، ويجب ان يحمل بذرة تطوره في ذاته . فهو كائن حي، بمعنى انه من حيث وجوده ، حقيقه حية، لانه ليس وليد الصدفة وليس نتاج الاتفاق، بل هو مقارن لوجود الانسان على الأرض، لانه صوت ضميره، واختلاج عاطفته، وأمر عقله، ومضمار حركته ونشاطه، ونهج تفكيره،

وخط سيره على طول سفره عبر التاريخ .

وهو يحمل بذرة تطوره في ذاته لانه فرصة المجتمع الوحيدة لتصور مستقبله القانوني . تلك الفرصة التي تستمر في التحريض عليها خاصة الالزام في القانون . وبناء على ذلك يتضح لنا معنى المقولة التي تفيد بأن «حاضر الشعوب القانوني والحضاري ليس إلا مستقبل هذه الشعوب بالنسبة لأمنها» .

وهذا ما ينسجم مع المبدأ الشرعي القائل: «لا ينكر تغير الاحكام بتغير الأزمان» .

وبناء على ما تقدم فانه يكون من حق الدولة، ان تدافع عن خاصة الالزام في القانون، مادامت تستخدم السلطة الشرعية والاخلاقية .

فالقوة العادلة والهادفة تستخدم في الدفاع عن الزامية القانون، كشكل من أشكال الادارة الاجتماعية، ولا تستخدم على انها اقتدار وقمع وانتقام ، بل لانها هي في ذاتها أداة لحماية أيديولوجية قانونية حضارية، وبالقدر الذي يمنع دورها من الحد من الفكر القانوني الابداعي .

(٣)

روح الشريعة الاسلامية وتأثيرها على القانون الوضعي

تأثير الشريعة الاسلامية على أحكام القانون الوضعي أثناء وضع النصوص وفي مجال التطبيق .

لتوضيح هذا الموضوع، نقتصر على جانب المعاملات، في مجال القانون الخاص، وعلى بعض مفاهيم القانون العام، وذلك بأن نأتي على ذكر حالات من هنا وهناك، تكون على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر، خاصة وان الشريعة الاسلامية، هي شرعة الحياة بكافة جوانبها، وتدخلها في كافة جوانب الحياة والعلاقات والمواقف والافكار والمؤسسات لا يقع تحت حصر .

أولا : في مجال النصوص (المعاملات)

أ ـ في مجال العقد

عرّف الفقه الاسلامي العقد ، وهو الطريقة الشرعية الأكثر التصاقا بعلاقات ومعاملات الناس ، بأنه «ارتباط ايجاب وقبول على وجه مشروع، يظهر اثره في محلّه» . فمن خلال هذا التعريف، ظهر مصطلح أو قاعدة «العقد شريعة المتعاقدين» . وظهرت فكرة الاثر القانوني للتصرف القانوني، كمصطلح وضعي ، وبين التعريف للمفكرين والقانونيين فكرتي الايجاب والقبول، الأمر الذي ساعدهم على تحليل العملية العقدية الى عناصرها .

وأشار التعريف إلى فكرة الالتزام الناشىء عن العقد بتعريف هذا العقد، بأنه ارتباط أي بأنه علاقة قانونية .

وبين التعريف محل العقد أي المحل الذي تنصرف إليه إرادة المتعاقدين من عملية التعاقد . وهذه التسمية هي أكثر دقة ودلالة على المراد من موضوع العقد ، لان الموضوع يشمل العملية العقدية التي أشار اليها التعريف، بألفاظ ارتباط الايجاب والقبول . أما المحل فهو ما ينصرف إليه موضوع العقد . ويغلب ايراد لفظة المحل عند الفقهاء والكتاب والقضاة الوضعيين لبيان المراد من العملية العقدية .

وأهم ما أشار اليه التعريف الفقهي هو مفهوم النظام العام أي المبادىء والأسس الاجتماعية الدينية والأسرية والاقتصادية والسياسية والخلقية التي يقوم عليها المجتمع . وذلك بأن أوجب أن يكون ارتباط الايجاب والقبول «على وجه مشروع» أي بما لا يحرم حلالا وبما لا يحل حراما ، أو بما لا يؤدي الى المساس بالأسس والمعتقد والمبادىء التي تعتبر الشريعة الحيَّة للمجتمع .

ب ـ في مجال الملكية :

حُدّد المقصود الشرعي للملكية وعرفت بأنها «اختصاص حاجز يبيح لصاحبة التصرف الا لمانع» وهذا التعريف ينسجم مع قوله تعالى «لله ملك السماوات والأرض وما بينها» وقوله تعالى «لله ملك السموات والأرض وما فيهن» . فقد أودعها سبحانه لدى الانسان، واستخلفه عليها، لتكون ملكا حلالا لا استغلال فيه، ولكي تكون قاعدة لحفظ التوازن في المجتمع . لذلك أوضح التعريف ما يفيد بأن الملكية في الاسلام هي اختصاص وليست سلطة، كما تعرفها بعض القوانين الأوروبية . فحق الملكية في الاسلام هو اختصاص وليس من قبيل السلطة المطلقة على الشيء المملوك كما في بعض القوانين الأوروبية . ولفظ الاختصاص يفيد وجود جهة تخصيص هي الله سبحانه وتعالى، وأولو الأمر الذين يمثلون الأمة أو الجماعة الانسانية المسلمة . وقد قال تعالى «أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» صدق الله العظيم .

ومن الواضح في التعريف الشرعي ان هذا الاختصاص، أو هذه الملكية، تبيح التصرف، ومن باب أولى، فهي تبيح الاستعمال والاستغلال . وهذا هو المقصود في

القانون الوضعي للبلاد العربية من الملكية، حيث تقضي القاعدة الوضعية بأن «لمالك الشيء ، في حدود القانون ، حق استعماله واستغلاله والتصرف فيه» .

وقد قيد التصرف بوجود المانع . والمقصود بذلك ان يكون التصرف في الحدود التي يسمح بها القانون . أي بألّا تتعارض الملكية في طرق استخدامها، مع مصالح المجتمع، طبقا لحكمة الشارع الكريم من تقريرها .

ومن جهة ثانية، فاننا نعتقد ان المانع المشار اليه في التعريف، يمكن ان يغطي قاعدة «الشرط المانع من التصرف» في القانون الوضعي وعلى تفصيل نذكره فيما يلي :

الواقع ان المذاهب الاسلامية ، كما يفهم من غالبيتها ، لا تقبل قاعدة الشرط المانع من التصرف : فالاحناف يعتبرون الشرط فاسدا، ويبقى العقد المقترن به صحيحا (المبسوط جـ٣ ص١٥) .

والشافعية : تعتبر الشرط فاسداً، لانه يخالف مقتضى العقد، ويؤدي مثل هذا الشرط ، إذا وجد ، إلى إبطال العقد المقترن به، خاصة وان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد «نهى عن بيع وشرط» . وقد جاء في المهذب للشيرازي (جـ١ ص٢٦٨) «فان شَرَطَ ماسوى ذلك من الشروط التي تنافي مقتضى العقد بأن باع بشرط .. ان لا يبيع المشتري ، أو بشرط أن لا يتصرف .. بطل البيع» .

كذلك الحكم عند الحنابلة الذين هم أكثر الفقهاء تجويزا للشروط . فقد قال ابن تيمية : «ان العقد إذا كان له مقصود يراد في جميع صوره ، وشرط فيه ما ينافي في ذلك المقصود فقد جمع بين المتناقضين ، بين اثبات المقصود ونفيه ، فلا يحصل شيء ومثل هذا الشرط باطل بالاتفاق بل هو مبطل للعقد عندنا» (الفتاوي لابن تيمية جـ٣ ص٣٤٢ ـ ٣٤٣) (وكذلك ورد في المغني جـ٤ ص٣٨٦) .

ومع كل ما تقدم فاننا نعتقد بجواز الشرط المانع من التصرف، ضمن حدود وبما يلائم روح ومقاصد الشريعة الاسلامية السمحة، وفي مجال المعاملات، انطلاقا من الحديث الشريف «لا ضرر ولا ضرار» وإعمالا للمصالح المرسلة، خاصة وانه لا توجد نصوص

قطعية تمنع مثل هذا الشرط، اذا كان مبنيا على بواعث مشروعة، ومحدّدا بمدة معقولة «المادة ٧٧٨ قانون مدني سوري» . وخاصة ان نطاق تطبيق مثل هذا الشرط، يكون في الواقع في عقود التبرع، كالهبات والوصايا ، كما لو ذهب شخص الى صبي واشترط عدم التصرف بالشيء الموهب، الى حين بلوغه سن الرشد، والرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم، نهى عن بيع، وشرط ولم ينه عن هبة وشرط مثلا .

ومن جهة ثانية فانه يمكن تغليب المصلحة المشروعة اذا لم تخالف اجماعا على عكسها . والواقع ان اجماع المذاهب الاسلامية لم يتحقق على صعيد عدم جواز الشرط المانع من التصرف . خاصة وان المالكية وإن عدّوا مثل هذا الشرط فاسدا ومبطلا للعقد في بعض أقوالهم، فانهم يقررون عكس هذا الحكم في حالات معينة ، فهم يقررون فساد الشرط وبطلان العقد في حالة التعميم والاستثناء القليل «كأن يشترط البائع على المشتري الاّ يبيعه جملة، أو إلا من فلان» . وأما اذا خصص ناسا قليلاً فيجوز الشرط ويصح البيع، (كما جاء في كتبهم ومنها بداية المجتهد لابن رشد (جـ٢ ص١٣٣ ـ ١٣٤) حيث جاء فيه «وإما أن يشترط منعا من تصرف خاص أو عام فذلك لا يجوز .. وإما ان يشترط معنى من معاني البر مثل العتق ، فان اشترط تعجيله جاز عنده» . وعلى هذا القانون الأردني (م١٠٢٨) .

ومن جهة ثانية فإن المصلحة المراد تحقيقها من الشرط المانع من التصرف، يجب ان تكون مشروعة ، ولم يشرع القانون الوضعي مثل هذا الشرط، إلا اذا الهدف منه تحقيق مصلحة مشروعة . وعلى ذلك فإن الشرط المانع من التصرف، يكون جائزا اذا كان الهدف منه تحقيق مصلحة تلائم مقاصد الاسلام، أو المقاصد المعتبرة في الشريعة الاسلامية ، وذلك بأن تكون من جنس المصالح المشروعة وليست غريبة عنها . وقد قال سبحانه وتعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» .

جـ ـ في نظرية الظروف الطارئة :

هذه النظرية ليست ذات منشأ قضائي كما قيل، وكما نسب القول فيها لأول مرة إلى القضاء الفرنسي ، ذلك لانها تتوافق مع القواعد الاسلامية، ومع روح الشرع الاسلامي

الذي يقوم على العدل : قال تعالى : «.. واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ..» وقال تعالى : «لا نكلف نفسا إلا وسعها» .. و«اذا قلتم فاعدلوا» .. و«إن الله ليس بظلام للعبيد» .. و«إن الله لا يظلم مثقال ذرة» .. و«لا يظلم ربك أحدا» .. و«قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» .

والظروف الطارئة هي حالة عالجها المشرع الوضعي بقاعدة يسمح بمقتضاها الحد من الالتزام المقرر بالعقد على احد العاقدين، بسبب قيام ظرف طارىء، يجعل تنفيذ الالتزام بالنسبة اليه مرهقا، مادام هذا الظرف قائما، حيث اعطى المشرع للقاضي سلطة تقديرية في ردّ الالتزام الى الحد المعقول .

هكذا نرى أن منشأ هذا الحكم هو العدل، الذي يتجاوز نطاق الحق الانساني، الى حين يصبح ضرورة من ضرورات قيام الملك والملكوت وشرطا لا غنى عنه لانتظام حياة الفرد .. وحياة الأسرة .. ومجتمع الأمة والدولة .. وعالم الانسانية جمعاء ..

لقد نظر الاسلام الى «العدل» باعتباره «الميزان» الذي أمر الله سبحانه وتعالى الكافة ان يقيموه في الكافة وللكافة : الرسول والأمة والمؤمنين .. والكافرين .. والأصدقاء .. والاعداء ! «فالعدل» هو الميزان الذي أنزله الله سبحانه مع الكتاب لتستقيم شؤون الانسان «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» . «وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» صدق الله العظيم .

«فالوسط» أي العدل «جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس» فالوسط هنا بمعنى التمييز وليس بمعنى الظرفية ، أي أمة العدل خاصيتها ، به حياتها الحقيقية، وفي تخلفه مماتها كما قال عليه الصلاة والسلام .

وحدود هذا «العدل» الاسلامي لا يقف بها عند المعاملات والعلاقات، وانما هو شامل للحياة المادية والاجتماعية ..

فالعدل في كل مجال، وهو واجب في «الثروات والأموال»، التي خلقها الله وأودعها بالفيض ، في الطبيعة . فالله هو مصدر الأموال «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا» و«سخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه» . وهو وحده المالك، والانسان

مستخلف عن الله في هذه الأموال، يستثمرها بالعمل المشروع، ويحوز منها من أجل ملكية مستخلفة، ولوظيفة اجتماعية .

د ـ فكرة تبعية المنقول للعقار، التي تطبق عليها القاعدة الفقهية القائلة «التابع تابع» تغني عن فكرة العقار بالتخصيص ، وعلى الرغم من تقنين فكرة العقار بالتخصيص فان الحلول العملية في الواقع تنسجم مع فكرة التبعية، التي يرافقها معيار حاسم للمشاكل التي يمكن ان تثار حول هذا الموضوع، وهو «المنقولات الثابتة في العقار هي من ملحقاته التي تتبعه عند انتقال ملكيته بذكر أو بلا ذكر ، أما اذا كان المنقول غير ثابت مع العقار، فلا يلحقه الا بذكر ذلك في العقد .. وذلك دون ايلاء أهمية لما يطرأ من تحول على ماهية المنقول أو عدم ذلك نتيجة رصده لخدمة عقار، من أجل استغلاله وتحسين الانتفاع به .

هـ ـ فيما يتعلق بالتقادم :

هناك اتجاهان وضعيان في هذا الموضوع :

١ ـ بالنسبة للتشريعين المصري والسوري، فان التقادم يعمل به لاكتساب الحق على المنقول والعقار «ماعدا العقار المحدد والمحرر والمسجل في السجل العقاري» لا لسقوط الحق عن أي منهما، بمعنى انه بعد ثبوت الحق للحائز، يتخلف في ذمة مكتسبه التزام طبيعي برده الى صاحبه، وهو اذا ما قام برده، فانه إنما يقوم بعملية وفاء، لا بعملية تبرع .

٢ ـ وبالنسبة للقانونين الأردني والعراقي، فانهما قد سارا على غرار الفقه الاسلامي فيما يتعلق بالتقادم . فلم ينص أحد منهما على سقوط الحق بالتقادم ، ولا على كسبه به . بل ورد النص بما يعني ان «من حاز عقارا غير مسجل أو منقولا .. فلا تسمع عليه عند الانكار دعوى الملك ، أو الحق العيني (المواد ١١٨١و١١٨٩ أردني ، ١١٥٨ و١١٦٣ عراقي) مجاراة منهما للمادة ١٦٦٠ في مجلة الاحكام العدلية المستمدة من المذهب الحنفي . فلا ينطوي التقادم على معنى سقوط الحق، بدليل ظهوره عند عدم الانكار . فالتقادم وفق هذين التشريعين ووفق الشريعة

الاسلامية قاعدة تتعلق بالاثبات لا بالموضوع .

ونرى انه يوجد في الاتجاهين ما يلائم قصد الشارع في استقرار الأوضاع القانونية وعدم تعطيل الطاقة الانتاجية للاشياء، بالتخلي والترك اللامسؤولين ، ولنا الظاهر والله يتكفل بالسرائر .

و ـ وهناك تطبيق للقاعدة الفقهية «يغفر في البقاء ما لا يغفر في الابتداء» في قانون السجل العقاري السوري، وفي المادتين ١٣ و١٤ منه .

م١٣/٢ تنص على أنه «لا يمكن ان يتذرع بمفعول القيود العقارية الاشخاص الذين عرفوا قبل اكتساب ، وجود عيوب أو أسباب داعية لالغاء الحق أو نزعة من مكتسبه ..» .

والقيود هي أعمال القيد في السجل العقاري، التي تنتج عن عملية التحديد والتحرير مباشرة . حيث نص المشروع الوضعي على الاكتفاء بالعلم البسيط بالعيب لالغاء القيد .

م/ ١٤ تنص على ان «التسجيل يعدُّ مغايرا للأصول إذا جرى دون حق ، وكل من يتحرر من معاملة التسجيل، يمكنه الادعاء مباشرة بعدم قانونية ذلك التسجيل على الشخص الثالث سيء النية» .

حيث اشترط لابطال التسجيل سوء النية، أي التواطؤ بين البائع والمشتري الثاني، للاضرار بالمشتري الأول، الذي لم يبادر فور العقد الى التسجيل، فهنا لا يمكن ابطال التسجيل في مواجهة المشتري الثاني أو ضده لمصلحة المشتري الأول، الذي لم يبادر الى التسجيل فور العقد ، الا باثبات التواطؤ تساهلا في موضوع حسن النية، لابقاء الحقوق العقارية المسجلة بتصرفات لاحقة للقيد الابتدائي . أما في المادة ١٣ فهناك تشدد في مفهوم حسن النية، إذ يمكن ابطال القيد ، باعتباره تصرفا ابتدائيا، يعقب اعمال التحديد والتحرير ، بمجرد العلم البسيط . وفيما تقدم تطبيق للقاعدة الفقهية الكلية «يغفر في البقاء ما لا يغفر في الابتداء» . وكل ما تقدم مع مراعاة الشروط المنصوص عليها في القانون .

ز ـ وفي مجال الزواج والطلاق والنفقة والتفريق والارث والوصية .. فان القانون الوضعي أخذ كليا من الشريعة الاسلامية، وهو قانون الاحوال الشخصية .

ح ـ واعمالا لقاعدة المصالح المرسلة يسمح بفرض الضرائب على الناس لتحقيق المصالح العامة .

ط ـ ومراعاة للمصلحة العامة تصدر قوانين الاستملاك للنفع العام، ويؤيد ذلك قاعدة «يدفع الضرر الاشد بتحمل الضرر الاخف ويدفع الضرر العام بتحمل الضرر الخاص» .

وقد صدرت بعض التشريعات بناء على ما فيها من مصلحة، ومن ذلك :

١ ـ ان عقد الزواج الذي لا يثبت بورقة رسمية، لا تسمع الدعوى به عند الانكار .

٢ ـ عقد البيع العقاري الذي لا يسجل لا ينقل الملكية .

٣ ـ يشترط لصحة الموقف صدور اشهاد به أمام الموثق .

٤ ـ ايجاب زراعة نسبة من الأرض ببعض المحاصيل في أيام الأزمات لتوفير حاجة الناس .

٥ ـ تحريم ذبح إناث بعض الحيوانات محافظة على الثروة الحيوانية .

٦ ـ الالزام بحمل البطاقات الشخصية أو العائلية .

٧ ـ الالزام بقواعد خاصة في استخراج جواز السفر والخروج من البلاد ودخولها .

٨ ـ وضع قواعد خاصة للمرور في الطرقات العامة .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالحقوق وبمفاهيم القانون العام وعلى سبيل المثال :

١ ـ الحرية : يجب ان تكون مهذبة اجتماعيا بما يتلاءم مع اخلاق وقيم وقواعد المجتمع العادل ودليل ذلك «استقم كما أمرت واعرض عن الجاهلين» .

٢ ـ السلطة والقوة المؤيدة لها : السلطة في الاسلام هي من الضرورات العامة، ولذلك

فهي من المقررات القطعية لاحقاق الحق، وتأمين العدل بين العباد ومنع الظلم عنهم . ومن المقرر انه اذا اجتمع اثنان فأكثر فيتأمر احدهم. وقد قال تعالى في كتابه العزيز «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون» صدق الله العظيم (البقرة الآية ٣٠) .

على أن السلطة توجد لتحكم بين الناس بما يحقق مصالحهم وفق مقتضيات المصالح المشروعة . وتؤيد السلطة بالقوة التي تستمد من الله سبحانه وتعالى من أجل الرحمة بالناس ومن أجل تنظيم حياتهم . وهي تمارس عملها عن طريق الشورى «وأمرهم شورى بينهم» . وتحمى بالقوة التي توجب الطاعة ولا طاعة في معصية وقد قال تعالى في القوة : «.. ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا ..» صدق الله العظيم «البقرة ١٦٥» فالسلطة يضطلع بها البشر ولكن بقوة الله ورحمته سبحانه وتعالى .

وقد قال الله تعالى في الطاعة «يأيها الذين آمنوا ، اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا» صدق الله العظيم . فقد أمر سبحانه بالطاعة بعد ان حدد الصراط المستقيم، وبعث نبيه رحمة للعالمين فقد قال تعالى لنبيه «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وقال تعالى عنه «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» وقال سبحانه «هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور» ، «وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى صراط مستقيم» صدق الله العظيم .

وقال الصحابي الصديق رضي الله عنه «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» .

ثانيــــا : أثناء التطبيق أو أثناء الحكم (الواقعية القضائية) .

أ - في الشريعة الاسلامية :

عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل قاضيا الى اليمن، سأله صلى الله عليه وسلم «بما تحكم اذا عرض عليك قضاء؟ قال بكتاب الله . قال صلى الله عليه وسلم: فان لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله: قال صلى الله عليه وسلم: وان لم تجد؟ قال اجتهد رأيي ولا آلو» والحقيقة ان الشريعة الاسلامية هي حقيقة ايدولوجية وعقائدية، بما فيها في المفاهيم الانسانية والاجتماعية، وبما تلهمه من قواعد العدالة .

وقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الاشعري مبينا له منهاج القضاء وكيف يحكم بالحق قائلا .. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فإن الحق لا يبطله شيء . واعلم ان مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة، واعرف الاشباه والامثال، ثم قس الامور بعد ذلك ، ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ..

ب - الواقعية في القضاء المعاصر

نتولى دراسة هذا الموضوع وفق مايلي :

القانون الحي وخاصة الالزام في القانون الوضعي

لقد شرح الجانب الاجتماعي بعمق في المانيا وفي البلاد السكندنافية، واقتفى هذا الأثر في دراسة القانون بعض الفلاسفة الامريكيين : فالقانون وفق هذه الفلسفة هو نتاج المجتمع وليس مؤسسة بيروقراطية كما هو في الأنظمة الديموقراطية الحديثة .

فقد شرح الفيلسوف الألماني «فيبر» كيف ان القبول بالقانون كعلم عقلاني قد ارتكز على مسلمات جوهرية شبه منطقية مثل أن القانون **«هو عبارة عن مبادىء شرعية لا ثغرات فيها»، مما يؤدي الى اعتبار «كل قرار قضائي متماسك يتضمن فرضية قانونية**

مجردة على وضع معين» .

أما «أرليخ» الألماني كذلك ، والذي عاصر فيبر ، فقد تعمق في دراسته وجعل هدفه التغلغل الى ما وراء ستار القواعد الشكلية ، أي الى المبادىء الاجتماعية التي تحكم المجتمع في كافة جوانبه، التي اعتبرها رديفا للقانون ورافدا له . تلك المبادىء التي اطلق عليها وصف «القانون الحي» .

ويرى «أرليخ»، بحق ان لكل مجتمع نظاما داخليا لمجموعات الكائنات البشرية التي يتألف منها . وان هذا النظام الداخلي يهيمن على الحياة نفسها، حتى ولو انه لم يثبت في المسائل القانونية للقانون الوضعي . وهذا النظام الداخلي شبيه بما يدعوه علماء الانتربولوجيا المعاصرون «نمط الثقافة» الذي يقرر الايديولوجيات المختلفة للمجتمع، والفلسفة الخاصة لهذه الايديولوجيات عن الانسان والعالم .

وعلى ذلك، فان رجل القانون يحتاج الى التعرف على «النظام الداخلي المعياري للقانون الحي»، الى جانب معرفته بقواعد النظام الوضعية . وهذه مسألة مهمة من وجهة نظر عملية . ومن هنا فان عدم القدرة على فهم العلاقة بين القانون الوضعي والقانون الحي، يؤدي الى أن يتحول القانون الوضعي الى أوامر تعطينا صورة زائفة ومضللة عن النظام الاجتماعي القائم، الى جانب ما يؤدي تطبيقها من مخالفة للعدالة القيمية في المجتمع . مثال ذلك ان يفرض النظام القانوني الوضعي في عالم التجارة نسيجا من القواعد المجردة، التي لا يستطيعُ رجال الاعمال ولا يرغبون في تنفيذها، بسبب ان المبادلات التجارية تكون محكومة بمجموعة من المبادىء الاقتصادية الاجتماعية، التي تعارض قواعد القانون الوضعي المقرر نظريا .

ويركز «ارليخ» على كما كنا قد أكدناه سابقا والذي مفاده ان القانون الحي ليس ساكنا ، بل هو في عملية تغيير مستمرة بحيث يتوجب على القانون الوضعي ان يتكيف معه باستمرار تحت طائلة تنكره لمبادىء التنظيم الاجتماعي المتمثلة في القانون الحي باعتباره انعكاسا للقيم الاخلاقية السائدة في المجتمع .

وبما ان القانون بحاجة مستمرة الى التوفيق بينه وبين الاخلاق السائدة ، فان على المعنيين بتطوير النظام القانوني في أي مجتمع ان يكونوا على اتصال وثيق بجوهر نظامه الداخلي أو قانونه الحسي .

وانطلاقا من الحديث الشريف للرسول العربي الاعظم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي لخص فيه جوهر مبادىء الشريعة الاسلامية السمحة حيث قال صلى الله عليه وسلم : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، فانطلاقا من هذا فان على أية دولة، ومهما كان شكل الحكم فيها، ان تلتمس في قوانينها اخلاق الأمة، لأن أمته صلى الله عليه وسلم «وقد بعث رسولا عربيا للناس اجمعين» ، كما قال صلى الله عليه وسلم «لا تجتمع على خطأ» «ولا تجتمع على ضلالة» . واذا كان من المتفق عليه بل ومن المقرر في الفقه الاسلامي، انه «لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان» ، فانه يتوجب على المتحمسين لدور القانون الوضعي في التنظيم الاجتماعي، ان يقوموا بجس نبض المجتمع عند اصدار التشريعات الجديدة، والاصلاحات القانونية . وهذا الدور يطلب ، كذلك ، من القاضي، والاداري القانوني، ومن يتخذ من القانون مهنة . ومن جميع الذين هم ، من خلال اتفاقاتهم ومفاوضاتهم ومعاملاتهم ، قادرون على تطوير اجزاء من القانون الحي نفسه، وتقرير المدى الحقيقي لاحكام القانون الوضعي، وعلاقتها بالقانون الحي، وذلك كله عن طريق الوصول الى الشرائع الحقة والمثلى .

والحقيقة ان الاسلوب العلمي لا يقوم على دراسة القانون في ذاته، وانما يقوم على دراسته مقرونا أو مرتبطا بايديولوجية عقائدية واجتماعية . وعلى ذلك فإن مساحة الدراسة القانونية قد اتسعت، لدرجة ان المحتوى الاجتماعي للقانون ، الذي يتأثر الى حد كبير بالتطوير التكنولوجي الهائل، وما يعقبه من تأثير بالغ على حياة الانسان الاجتماعية والاقتصادية ، قاد دارسيه المعاصرين الى اعتبار شرح العملية القانونية على أنها شكل من أشكال «الهندسة الاجتماعية» .

فالقانون يكون عميق الجذور في التركيبة الاجتماعية العامة وايدولوجيتها . وتعدد ميادين النشاط البشري يؤدي الى تطور المبادىء الخاصة بالمجتمع تبعا الى تطور المجتمع نفسه . ولقد كان مجتمع القرن التاسع عشر قد اعتبر حرية التعاقد احدى الفرضيات

الأساسية . أما المجتمعات المعاصرة، فانها تشهد اعترافا وتقريرا وحماية لحق الفعل، وحق الحماية القانونية من فقد الوظيفة ، وتتضمن قوانينها احكاما خاصة بعقود الاذعان، تعطي القاضي سلطة تقديرية، في التخفيف من الالتزامات المترتبة على المدين، والمرهقة له من جراء العقد . وكذلك الحال بالنسبة لنظرية الظروف الطارئة ذات المنشأ الفضائي، والتي تعترض تنفيذ الالتزامات الناشئة عن العقد، بأن تجعل تنفيذ هذه الالتزامات يؤدي الى ارهاق المدين، بحيث يهدده بخسارة فادحة، حيث تبنتها القوانين الوضعية، واعطت القاضي في هذه الحالة ، صلاحية تقديرية بأن يرد الالتزام المرهق الى الحد المعقول، وجعل هذا الحكم من متعلقات النظام العام، بأن يقع باطلا كل اتفاق يخالفه . وكذلك الحال بالنسبة لمنشأ قاعدة الاشتراط لمصلحة الغير وقاعدة التعهد عن الغير اللتين تجعلان آثار العقود تنصرف الى غير عاقديها . وكذلك قاعدة الشرط المانع من التصرف، التي تمنع المتصرف اليه من التصرف اذا كان هذا الشرط مبنيا على باعث مشروع، ومدة معقولة، وكذلك الحال فيما يتعلق بما يرتبه القانون الوضعي من آثار قانونية على حسن النية، وعلى سوء النية في التصرفات والوقائع القانونية . فجميع هذه القواعد دخلت القانون الوضعي من قانون المجتمع الحي .

وحتى على صعيد «قاعدة العقد شريعة المتعاقدين» فانه لم يعد من الممكن استخدامها استخداما خاصا غير موجه . بمعنى انه لا يمكن استخدامها بما يؤدي الى الانتقاص أو المساس بمفاهيم النظام العام في المجتمع ، ولا يمكن ، كذلك ، استخدامها بما يخالف المبادىء الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيه . وعلى ذلك فقد تحول مفهوم العقد من اعتباره أداة تداول والتزام والزام إلى اعتباره «خطة تنسيق شاملة للانشطة الانسانية» .

وبناء على ما تقدم، فان العملية القانونية هي شكل من أشكال الرقابة الاجتماعية، التي تجري من خلال عملية فحص أو مراقبة أو قبول أو رفض المصالح المتنافسة والمتعارضة .

وبما ان القضاء هو «الوكيل الاسمى» للقانون في ممارسة وفرض هذه الرقابة ، فان ايديولوجية القضاة في ممارسة وظيفتهم تستمد من «القانون الحي»، أي من مبادىء التنظيم الاجتماعي، ومن قواعد العدالة السائدة في المجتمع .

وفي هذا الاتجاه يسير جانب كبير من الفقهاء والفلاسفة «اهرنج» «وارليخ» الالمانيين و«باوند» الأميركي ، و«دجية» و«هوريو» الفرنسيين، وغيرهم. ويتضح موقف بعض الفقهاء الفرنسيين هذا من اعتقادهم بوجوب تدخل القضاء في الرقابة على دستورية القوانين .

فالرقابة القضائية التي يجب أن تستند الى مبادىء القانون الحي، تمارس من خلال عملية تقييم . وفي هذا المجال يرى الفيلسوف الاميركي «روسكوباوند» ان هناك ثلاثة أساليب رئيسية تجري بها المحاكم عملية التقييم هذه . فإما ان تجري المحكمة على خطى السلف، بما في هذا من نقص يتمثل في أنها تربط نفسها بشكل غير مناسب بأيديولوجية قديمة في الوقت الذي يشهد فيها المجتمع تغييرا . مثال ذلك ان المحاكم الأمريكية ظلت تلزم نفسها بأيديولوجية عدم التدخل في عصر التدخل والعدالة الاجتماعية .

وقد تحاول المحكمة ادراك المبادىء القانونية الأساسية في عصرها، مستعينة لذلك بالفقهاء وعلماء الاجتماع وتقييم النزاعات على ضوء ذلك .

وأما ان تطمئن المحكمة الى حدسها الخاص ، وتحكم على أساس «تمشية الحال»، كأساس صالح للأغراض العملية ولكنه يفتقر الى الصقل والدقة، أو على أساس ضربة على الحافر وضربة على المسمار» أو «ضربة تصيب وضربة تخيب» مستندة في ذلك، ضمنا، على منهجها الخاص في المجتمع، الذي تعمل فيه، وعلى تقييمها الخاص لاحتياجاته .

هذا الأسلوب الآخر كما يقول «باوند» هو الأكثر شيوعا في التطبيق، ولكنه يؤكد حاجة المحاكم لأن تكون على اتصال وثيق بالقانون الحي في مجتمعها، (وليست منعزلة عنه كما هو الحال) .

يضاف الى ذلك كما شدد باوند ، انه مهما كان تأكيد الوضعيين على تمايز القانون والاخلاق والسياسة ، فان هذا لا يغير شيئا من الحقيقة التي مؤداها «ان القرارات القانونية تستند قطعا الى ايديولوجية ما»، «ولهذا فانه من الأفضل مواجهة ذلك ، وبذل جهد واع لادراك القيم الفعالة في مجتمع ما، وتطوير القانون وفقا لها ، وذلك بدلا من محاولة اعتبار جميع القرارات القانونية ممارسات تكنولوجية صرفة بمنطق قانوني» .

والواقع انه عندما يقرر القانون قاعدة فنية ، كالتي تقضي بأن «على المشتري ان يأخذ حذره» أو أنه «لا ضمان على عيوب المبيع» ، فإن هذا يفيد ان القانون يقوم على فلسفة حرية العقود، أو على مبدأ عدم التدخل . فكيف يطبق هذا المبدأ بتكنولوجية صرفة، اذا كان يتعارض مع مبدأ الحلال والحرام، ومع اخلاقيات الناس في المجتمع الذي يطبق فيه ؟

وفي الواقع هناك محامون وقضاة وأساتذة قانون يقولون انه ليس لديهم فلسفة قانونية ، وان القانون هو القانون ـ ونحن مع الذين يعتقدون ان الفرق بين عالم القانون الذي له فلسفة وبين الذي يطلع على القانون ولا فلسفة له ، هو أن الأول يعرف فلسفته وبالتالي يكون أقدر على جعل منطقه واضحا ومبررا ، فيما يسرده من وقائع عن خبرته وحكمه على تلك الوقائع . وعلى ذلك فإن تقييم أي نزاع طبقا لايديولوجية راسخة أو مسلم بها ، يجب أن يخضعها الى نوع من الضمانة الخلقية العليا .

الواقعية القانونية (أو الايديولوجية القضائية)

ان المعالجة الاجتماعية في مجمل العملية القانونية، نشأت كرد فعل واقعي على الاسراف المنطقي والشكلي للوضعية القانونية . الأمر الذي أدى الى نشوء مدرسة (القانون الحر) في أوروبا ، والتي تقوم على اعتبار القرار القضائي والاداري، لا يستند الى قواعد، وانما هو مسألة سياسية، واختيار يستمد من ايديولوجية معينة، ومع الاعتراف بأن القاضي مقيد بأحكام لا يملك تبديلها أو تغييرها، الا انه يملك الحرية في تضييقها وتفسيرها حسب ايديولوجيته أو حسب حسه الاجتماعي، أو حسب عقائده .

وظهرت كذلك ، على طريق الواقعية القانونية في أمريكا، بعد الحرب العالمية الأولى ، الفلسفة «الذرائعية»، أو «المذهب العلمي» الذي يعتمد على علم الاجتماع والتكنولوجيا كمفتاح لحل مشاكل الرفاه البشري، وهذه الفلسفة تمثل العقيدة الأساسية لنمط الحياة الأمريكية، وتقوم على الاعتقاد بأن البحث عن الحقيقة، هو عملية تجريدية لاكتشاف ما هو مفيد، أو ما هو ناجح منها . وعلى ذلك، فان العملية هي عملية مستمرة لا تنتهي

باصدار القانون الوضعي . وهي تكييف تجريبي لصنع القرارات للوصول الى حلول صحيحة . أي ان العملية القانونية تعمل في المجال الاجتماعي الذي تسري فيه .

ويعتبر من أعظم مفكري الواقعية القانونية الامريكية، القاضي «أوليفر هولمز» رئيس المحكمة الاتحادية العليا . وقد قال «ان القانون ليس نسيج الأحكام القائمة ، وانما هو فن وأسلوب التنبؤ بالقرارات التي تصدرها المحاكم . وعلى ذلك فان المحامي العصري ليس هو الذي يطلع على مجموعة الأحكام النظرية التي يقال انها ملزمة للمحاكم ، بل هو الذي يفسر كل العوامل الاجتماعية والنفسية المؤثرة على صنع القرار» .

ومن هنا فان تشديد المحامي التقليدي على أحكام القانون الوضعي ذاتها، دون الأخذ بعين الاعتبار العوامل الأخرى التي اعطت لهذه الاحكام حقيقتها الاجتماعية ، هو أمر مرفوض، لانه مجرد عمل مهني ضيق وقاصر، ومضر للمهن القانونية نفسها، وللجمهور الذي يفترض ان تكون هذه المهن من أجل خدمته .

والى جانب الواقعية الامريكية، هناك الواقعية السكندنافية التي بدأت بعد الحركة الواقعية الامريكية بقليل، وبتأثير من هذه الواقعية . وهي تشترك مع سابقتها في خصائص كثيرة : فهي تشدد على الحاجة الى البحث عن الأساس الاجتماعي للقواعد القانونية ، وتشرع الصلاحية القانونية في مجتمع ما باعتبارها تنبؤاً بما يحتمل ان تقرره المحاكم في قضايا معينة ، وتسلم بالحاجة الى استقصاء الطريقة الفعلية التي تسير بموجبها مختلف اشكال العملية القضائية والادارية، وتؤكد على ان هذا يجب ان لا يكون محدودا بدراسة الأحكام التي تلزم القضاة وتوجههم على الورق فقط .

ولقد واجهت الواقعية القانونية مقاومة شديدة من قبل المحامين التقليديين الذين يستسلمون للاعتقاد بأن العمل القانوني ينطلق من القواعد القانونية الوضعية الصارمة دون الأخذ بعين الاعتبار، عملية تصنيف القاضي، أو دوره الاجتماعي . وفي هذا الصدد نقول انه لا حاجة للوقوف امام جمود المحامين التقليدي . ونكتفي بالقول ان التفكير القانوني الاجتماعي بما فيه من حركة واقعية ديناميكية، يقود باستمرار الى رؤى داخلية، مفادها «أن الاشياء لا يمكن ان تبدو كما هي مرة ثانية»، ولعل هذا المضمار، مع

الاعتراف بغيره من مجالات النجاح، حققتها وتحققها الدراسة القانونية المتحركة مع المجتمع ، هو المضمار الذي يمثل اسهاما أكثر فعالية وتأثيرا على فلسفة القانون . وفي الحقيقة ان هذه الواقعية القضائية، ليست أكثر من اجتهاد من شرائع القاضي المجتهد، أو من قانونه الحي . والقاضي المسلم اجتهد ويجتهد اسوة باجتهاد الصحابي الجليل معاذ بن جبل، فقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عندما ولاه قاضيا على اليمن بما تقضي اذا عرض عليك قضاء ؟ قال بكتاب الله. فقال صلى الله عليه وسلم، وان لم تجد؟ فقال: بسنة رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: وان لم تجد؟ قال «اجتهد رأيي ولا آلو» . وقد أحالت قوانين الشعوب الاسلامية الوضعية الى الشريعة الاسلامية السمحة، باعتبارها «القانون الحي الاسلامي» وبمصادرها الأربعة، وبخاصة منها كتاب الله، القرآن الكريم، الذي اشتمل على احكام العبادات ، وأحكام المعاملات، التي تشتمل على جميع ما يدخل في جميع القوانين المعروفة الآن ، مدنية ، وجنائية ودستورية ، ودولية ، واقتصادية ، وغيرها . وفصل القول فيما لا تتغير أحكامه بتغير الأزمان والاحوال من مقررات قطعية ، واجمله فيما تتغير فيه المصلحة باختلاف البيئة والزمان . وقد أشار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، الى جوانب اعجاز القرآن المجيد، عندما قال، صلى الله عليه وسلم: انها ستكون فتنة. فسئل صلى الله عليه وسلم، فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، عن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ فيه الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن لما سمعته حتى قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن هدى به هدى الى صراط مستقيم . (اخرجه الترمذي) .

دور المشرع الوضعي في ظل النظرية التاريخية والنظرية الاجتماعية للقانون، وأثر ذلك على خاصة الالزام في القانون :

ظهر المذهب التاريخي في فلسفة القانون في بداية القرن التاسع عشر، بعد ان كان قد

هيأ له «مونتسكو» الفرنسي، «وفيكو» الايطالي .

وينطلق هذا المذهب من الفكرة القائلة أن القانون لم ينشأ نتيجة التشاور والاتفاق، ولا دخل للارادة في تكوينه . بل ينشأ بطريقة عفوية لا شعورية، عن طريق العرف البدائي . وهو لذلك لا يستمد من المبادىء الماورائية التي تقع خلف مملكة الملاحظة ، وانما يتمثل اساسه المركزي في العرف العفوي . وعندما تتعقد الحياة الاجتماعية، وتتطلب نوعا من تنظيم القانون العفوي، فان ذلك يتم بتدخل رجل القانون، الذي يجب ان تتحدد مهمته وينحصر دوره، في مجرد اعطاء شكل ملائم لموضوع قائم لم يشترك هو في ابداعه، وانما فقط في اخراجه بهذا الشكل الملائم . وكذلك الحال بالنسبة للمشروع ، فهو يجب ان يكون آخر من يتدخل في الموضوع، ومهمته تبقى ثانوية، ومبنية على احترام القانون العفوي، الذي يعد خلاصة ميول واخلاق واحداث وفكر الشعب، تماما كما هي لغته .

وعلى ذلك فان التشريع الذي يتعارض مع مصالح الشعب أو المجتمع، يبقى بحكم العدم . ومن هنا فان خاصة الالزام بالقانون ترتبط بالعرف العفوي، وبمصالح المجتمع، وبالتالي فان أي قانون لا يتصل بالعرف العفوي، الذي قد يتغير كذلك بعفوي،ة لا يكون ملزما، ولا تجب حمايته بالقوة . والدليل الأكثر قوة على ارتباط القانون بالعرف الاجتماعي العفوي، هو أن الضغط الاجتماعي العفوي، هو الذي يولد اعرافه العفوية . وكثيرا ما يحصل الضغط الاجتماعي بطريقة ديناميكية، تنسجم مع مواقف المجتمع المعيارية، من الظروف والظواهر والعلاقات المتغيرة .

وعلى ذلك، فان القانون الذي يبدو موافقا لمصالح شعب من الشعوب الآن، قد يكون ضرره أكبر من فائدته في الواقع ، ذلك لأن فائدة القانون المنظورة الآن، قد تحول دون تطوره الذي يجب ان يحصل بالضرورة، بسبب طبيعته العفوية . ثم ان ثبات القانون بمنعه من التطور، لا يمكن ان يكون الا على حساب عفويته وعفوية المجتمع الذي يضعه .

وفيما يتعلق بمنهاج المذهب الاجتماعي الذي ولد من رحم النظرية التاريخية، فاننا نجد ان الفيلسوف دوركهايم، قد حدد له اسسا ثلاثة تهيمن على مفهوم القانون، وهي :

الأول : هو الحادث الاجتماعي : ويرى دوركهايم ان القانون هو أصدق مثال نموذجي للحادث الاجتماعي، وتتم دراسته ومعالجته، كأي أمر عادي بطريقة الملاحظة، وهي الطريقة المتبعة في دراسة الظواهر الطبيعية ، اذ لا فرق يذكر بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية، من حيث أسلوب أو طريقة دراستها . ومن هنا يجب ادماج العلم الاجتماعي في المنهاج العام، أو الاطار العام للعلوم الطبيعية .

والأساس الثاني الذي يهيمن على مفهوم القانون هو الضغط الاجتماعي، الذي يعد سببا أساسيا لمجموع الظواهر الانسانية، سواء منها ما يتعلق باللغة أو الفن أو الفكر ، أو ما يتعلق بالاخلاق أو الدين أو القانون . وهذا الحكم لا يتغير حتى في حال نسبة هذه الظواهر الى تفكير الافراد ، لانه في حال القول، ان هذه الظواهر هي ثمرة تفكير الافراد ، فالأمر لا يتغير، خاصة وان تفكير الأفراد لا يعدو أن يكون مجرد تصور أو تعليل ذي خاصة جماعية، لانه يسهم في تكوين الادراك الجماعي للظواهر .

ومن هنا فان المذهب الاجتماعي يقوم على موضوع ثالث، وهو أن الظواهر الانسانية، تنطوي على أفكار أو على عناصر تحريض ذات صفة جماعية تهيىء الادراك الجماعي لهذه الظواهر .

وعلى أية حال فاذا ما طبق هذا التحليل على القانون، فاننا سنحصل على نتائج مشابهة لتلك التي قال بها اصحاب المذهب التاريخي، وذلك وفقا لما يلي، وبخاصة ما يتعلق بخاصة الالزام في القانون :

أولا : التسليم بالضغط الاجتماعي، يتضمن التسليم بالعرف كظاهرة قانونية أولى، باعتباره شكلا من أشكال هذا الضغط ، أو باعتباره يتمتع بأوضح طابع اجتماعي، بسبب تكوينه العفوي، وهو في نفس الوقت، يخضع من أجل اكتشافه ومعرفته، الى منهاج الملاحظة . والفارق بين المذهب التاريخي والمذهب الاجتماعي بهذا الشأن، هو أن المذهب التاريخي يعتمد في تأكيد تاريخه عرف شعب على الملاحظة والتجربة، في حين أن المذهب الاجتماعي لا يقوم من أجل معرفة العرف على منهاج الملاحظة وحده، بل يعتمد الى جانب هذا المنهاج طريقة تحليل الحادث الاجتماعي .

ثانيا : القانون في ماهيته ، ليس حادثا اجتماعيا مستقلا، وانما هو حادث اجتماعي مترتب على احداث اجتماعية . ولذلك فان دوره يقتصر على مجرد ترديد القواعد القانونية، التي يجب أن تكرس . واذا ما انطوى القانون على شيء من التكيف، فان ذلك يكون فقط في تنظيم وترتيب القواعد القانونية . واذا انحرف المشرع، أو القانون الوضعي، عن هذه الحدود، فانه سوف يزول ويلغى، بسبب عدم قدرته على مقاومة التيار الاجتماعي العميق، أي بسبب عدم مواكبته أو ملاءمته لعوامل الضغط الاجتماعي .

ثالثا : الاسلوب الوضعي للقانون، يجب ان يحافظ على عرى ارتباطه بالعناصر المركزية المتمثلة بالضغط الاجتماعي . وبالتالي، فاننا لا نحتاج لدراسة الحلول التشريعية والقضائية لعملية ربط هذه الحلول بأسبابها أو بحقائقها المركزية، اذا لم تكن هذه الحقائق مدينة بوجودها الى المؤثرات الاخلاقية والسياسية والعاطفية والدينية والاقتصادية، التي تحيط بالمجتمع، والتي تتمحور حولها الاحداث والظواهر الاجتماعية . ومن هنا يمكن القول، ان ما يمكن أن نسميه «الجامع الاجتماعي»، المتكون من عناصر الحادث والضغط والادراك الاجتماعية ، لا يقتصر دوره فقط على تهيئة عناصر اللوحة الحسية الاجتماعية، من أجل تطبيق منهاج الملاحظة، وبالتالي ترديد القواعد القانونية التي يجب ان تكرس ، وانما يعمم هذا الدور ليشمل مرحلة تطبيق القواعد القانونية أمام القضاء، بالطريقة التي تحافظ على عفوية القانون وارتباطه بالأحداث والظواهر الاجتماعية وبالضغط الاجتماعي .

بعد ما تقدم نصل الى الأسئلة الآتية : هل يردّ الالزام في القاعدة القانونية الى مضمون هذه القاعدة أو الى سلطتها القانونية ؟ أم هل يرد هذا الالزام الى الهدف أو الى الغاية الاجتماعية من القانون ؟

للاجابة على هذه الأسئلة لابد من توضيح المقصود بمبادىء النظام الاجتماعي، وتوضيح ماهية القاعدة القانونية .

مبادىء النظام الاجتماعي وعلاقتها بالقانون الوضعي

المقصود بمبادىء النظام الاجتماعي تلك القواعد الاصولية التي تستند اليها اجهزة الادارة الاجتماعية، (أي الدولة)، في قيادة وتوجيه النشاط الاقتصادي والفكري اجتماعيا . أو هي تلك المبادىء التي يقوم عليها تنظيم الروابط والعلاقات الانسانية، تنظيما يحقق المصالح المشتركة . والمقصود بالقانون الوضعي: القانون الذي ينطوي على قواعد قانونية مكتوبة، وصادرة عن جهات مختصة في الدولة، وفقا لاصول معينة .

والتساؤل الآن يدور حول ماهية العلاقة بين مبادىء النظام الاجتماعي والقانون الوضعي .

فالفكر الانساني يستخلص من مفاهيمه عن النظام الاجتماعي المرغوب فيه ، المبادىء الجديرة بالاتباع من أجل تحقيق ذلك النظام ، والربط بين تلك المبادىء وغايتها، يحقق شرعة تحويلها الى قواعد وضعية ملزمة .

فقيمة مبادىء النظام الاجتماعي، تنحصر في تقصي القانون الذي ينسجم معها، ولذلك فهي سوف تأخذ طريقها الى أن تصبح قواعد وضعية، من أجل ان تكتمل لها قوتها الملزمة . ومن هنا يمكن القول : ان النظام الاجتماعي الذي هو هدف كل نظام قانوني والمبرر له، يقف حائلا بين كل تفرقة بين القانون الوضعي من ناحية ، وبين مجموعة المبادىء التي يقوم عليها تنظيم الروابط الانسانية تنظيما يحقق المصالح المشترك من ناحية أخرى ، اذ أنه في النظام الاجتماعي يلتقي التصور الذي يوجده أو يعتقده المجتمع، مع التنظيم الذي يقيمه أو يرسيه . لذلك يكون القانون ملزما، والا فهو قانون قمعي .

القاعدة القانونية قيمة اجتماعية لأنها تحقق غاية سببية

القاعدة القانونية هي قيمة اجتماعية ناتجة عن عملية فكرية انسانية، لتوظيف القواعد السببية، من أجل تحقيق المصالح الاجتماعية . فهي كذلك، بمعنى انها نتاج

عمل فكري، يهدف الى الربط بين النظام الاجتماعي المراد المحافظة عليه أو تشييده، وبين المعطيات والعوامل الموضوعية التي تحقق هذا الهدف . وبعبارة أخرى، هي عامل تكييف وملاءمة بين الظواهر الموضوعية، والعقائد والمبادىء القائمة، وبين غايات الانسان التي تسعى القاعدة القانونية الى تحقيقها .

فالقاعدة القانونية بعبارة أعم ، هي انتاج عملية تقييم لجميع القواعد السببية، التي تربط بين الشروط والظروف المحيطة، التي سبق استنباطها أو ملاحظتها، واخضاع تلك القواعد السببية لخدمة المصالح المشتركة، باعتبارها الغاية الاجتماعية للقانون . وبذلك يكون الهدف الاجتماعي للقانون: هو مبرر وجوده دون ايلاء أية أهمية لمضمون قواعده ولا للالزام الذي يصاحبها . وبعبارة أخرى ، فان أهمية مضمون القاعدة القانونية، والالزام الذي يصاحبها، يقودان الى الغاية من وجودها، ويتمثلان في تحقيق غايتها الاجتماعية . ومن هنا فانه ليس في مضمون القاعدة القانونية، ولا في الزاميتها، ما يجلو خصيصتها . ولا يتم التوصل الى خصيصة القاعدة القانونية، الا بتجاوز كل من مضمونها، وصفتها الالزامية، حيث لا يوجد في القاعدة القانونية المضمون والالزام، الا من أجل الوصول الى الغاية الاجتماعية، التي تبرر القاعدة القانونية، وخاصتها الالزامية .

نصل الى القول ان ظاهرة الخضوع للقاعدة القانونية، تبررها ضرورة تحقيق المصالح المشتركة العامة والخاصة للجماعة الانسانية، التي تطبق فيها تلك القاعدة، ولافرادها . ومن هنا، فان الذي يولد الالزام في القانون، هو تصور للنظام الاجتماعي، الذي يلائم مقتضيات هذه المصالح . فالالزام في القاعدة القانونية، يجد اساسه في الغاية الاجتماعية، التي نسعى الى تحقيقها . وبعبارة أخرى، فان الهدف النهائي للقاعدة القانونية هو الذي يقود السلوك الانساني في اتجاه مضمونها .

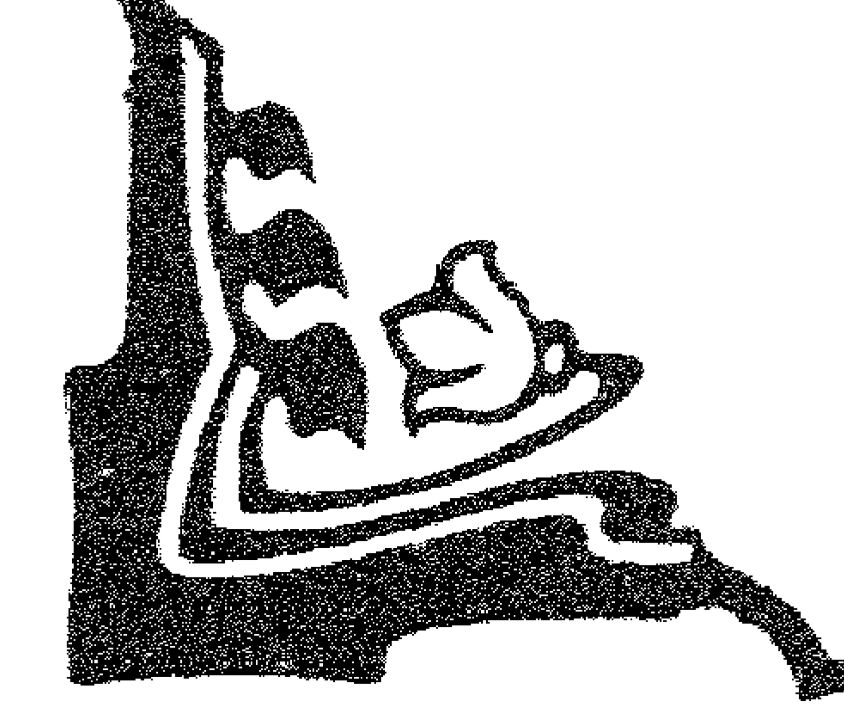
ومما تقدم نخلص الى القول :

أولا : انتفاء التلازم بين مضمون القاعدة القانونية أو حكمها، وبين قوتها الملزمة .
ثانيا : القاعدة القانونية تستمد قوتها الالزامية، من تعلقها بالهدف الاجتماعي، الذي تسعى الى تحقيقه .

المحاضرة التاسعة

الاعلام والتوازن الاجتماعي





للدكتور / زكي الجابر

الدكتور زكـــي الجابـــر

* من مواليد البصرة بالعراق ١٩٣١ .
* انهى الدراسة بكلية الآداب العربية والتربية ١٩٥٤ .
* حصل على درجة الماجستير في البرامج الثقافية للراديو والتلفزيون ١٩٦٠ من جامعة انديايا ـ بلومنكتن في الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦٠ .
* حصل على درجة الدكتوراة في الاتصال بالجماهير . عام ١٩٧٨ وذلك من جامعة أنديانا ـ بلومنكتن بالولايات المتحدة الأمريكية .
* شغل العديد من المناصب أهمها :

- العديد من وظائف التدريس في وزارة التربية والتعليم العراقية .
- شغل العديد من الوظائف في مجال البرامج في كل من راديو وتلفزيون بغداد ومصلحة السينما والمسرح وفي مجال الصحافة والطباعة ٦٣ ـ ١٩٧٩ .
- مدير ادارة الاعلام في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٠

* أهم المؤلفات :

- نظرة على تطبيقات الاعلام الاسرائيلي (باللغة الانجليزية) ـ العراق ١٩٧٠ .
- الصراع العربي الاسرائيلي واتجاهات الصحافة (باللغة الانجليزية) ـ العراق ١٩٧٠ .
- الاتصال التربوي وفلسفة وسائل الايضاح ١٩٥٦ .
- الدخول في المحطات التي فارقها القطار ديوان شعر ١٩٧٢ .
- تبادل الطلاب دائرة في الوحدة العربية ١٩٧٩ .
- استخدام الشبكة الفضائية العربية في تعليم الكبار .
- الاعلام والتوازن الاجتماعي ـ الرياض ١٩٨٢ .

* كما له العديد من المقالات الصحفية والمعالجات الفكرية والقصائد .
* شارك في العديد من المؤتمرات أهمها :

- مؤتمر وزراء الثقافة في فيينا ١٩٧٠ .
- الحوار العربي ـ الأوروبي ١٩٧٩ .
- مؤتمر التعليم والأدب في الوحدة العربية بغداد ١٩٧٩ .

الاعلام والتوازن الاجتماعي

أولا : تمهيـــــد

تستهدف هذه الورقة تقديم بعض الاجتهادات في مجال الاعلام، ودوره في تناسق التوازن الاجتماعي، بالتعرف على مسارات الاتصال، وتقديم عدد من الآراء، في أسباب فشل الحملات الاعلامية وصولا الى تحقيق النجاح الاعلامي، في معركة الوجود، التي تخوضها الامة حفاظا على قيمها وتراثها، وتحقيقا لطموحها في الحياة الآمنة الكريمة .

ثانيا : تأطير نظري

في الدراسة التي عقدها فرانك هاراري Frank Harary لدراسة الموقف في الشرق الأوسط عام ١٩٥٦ ، تعديل لنظرية هيدر Heider المعروفة بنظرية التوازن، وصولا الى تصور حول كيفية مشاركة الدول من خارج المنطقة وداخلها، في خلق حالة التوازن (١) . وعلى أساس هذا التطبيق ، من الممكن توظيف هذه النظرية المعدلة، ضمن اطار الاجتهاد، الذي يذهب الى ان وظيفة الصراع في خلق التكامل، تتمثل في توازن القوى ضمن منطقة الشرق الأوسط (٢)، هذا التوازن يمكن تمثله في علاقات الايجاب بين الاقطار العربية، والعلاقات السلبية بين العرب وخصومهم .

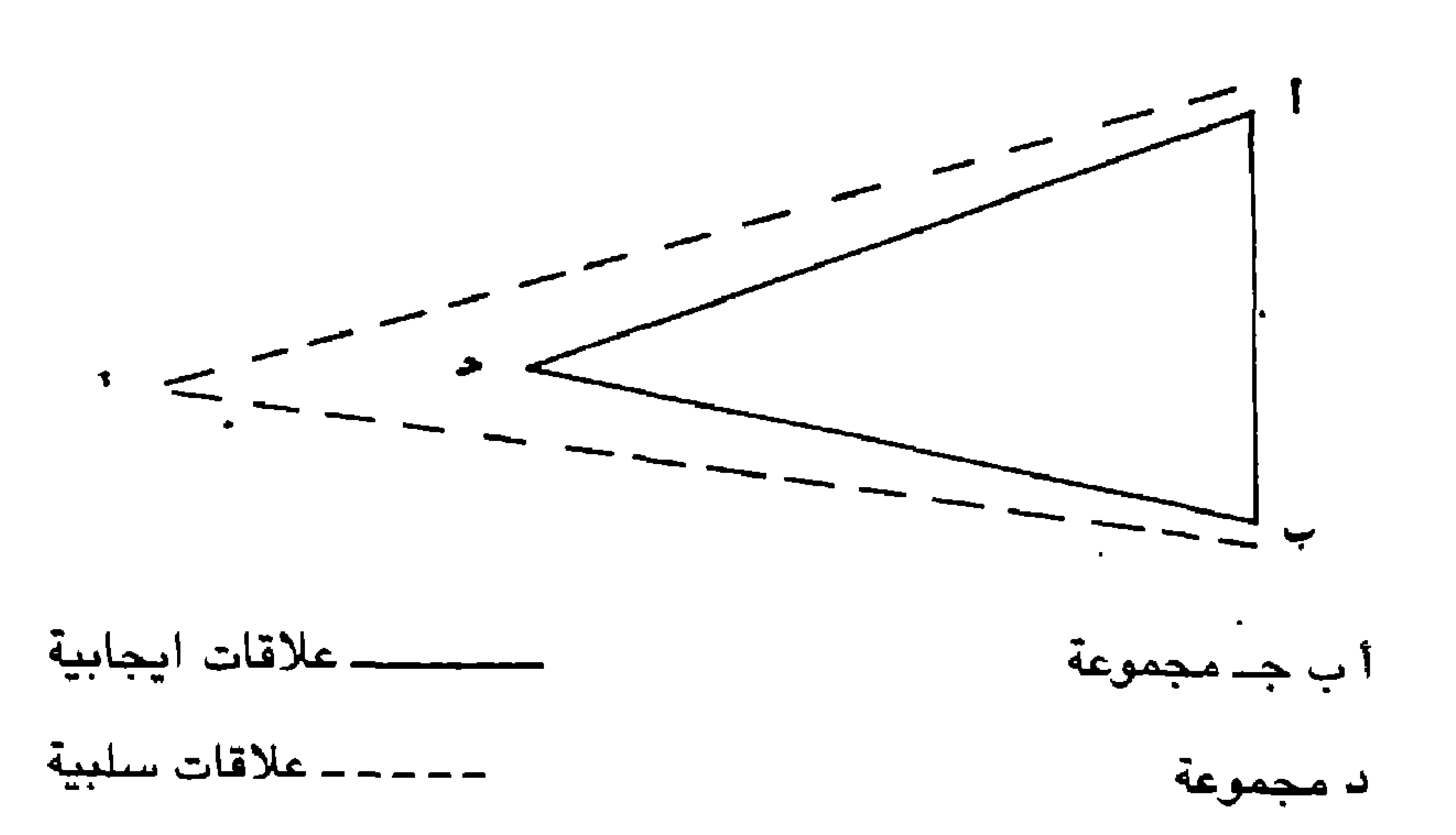
ان نظرية هيدر التي تم تطبيقها في المختبرات السيكولوجية، هي ضرب من التنظير في حقل الاتساق الادراكي، المبني على افتراضات نفسية اجتماعية، حول السلوك المتبادل بين الاشخاص.

تذهب النظرية الى القول بأن علاقات المودة بين شخصين (أ و ب)، يمكن ان تؤثر عليها علاقات اي منها بكيان ثالث هو (جـ)، فان كان (أ) يميل الى مودة وتأييد (جـ)، وتم تقييم (جـ) بأنه (سيء)، فالعلاقة بين أ ، ب ، جـ في حالة عدم توازن . وهنا يحدث

ضغط لجلب الحالة الى التوازن ، وهذا الضغط قد يغير العلاقات بين (ب وجـ)، أو (أ وجـ) ، أو (ب وأ) . وبالأساس ، فان العلاقة بين العناصر الثلاثة، تعتمد على العلاقات بين الكيانات الثلاثة، في حالة توازن، حينما تكون العلاقات الثلاث موجبة، أو اثنتان منهما سالبتين، وواحدة موجبة (٣) .

كارترايت وهراري Cartwrait and Harary (١٩٦٣)، عرضا نموذج هيدر في بناء نموذج نظري من خطوط بيانية، يمكن تطبيقه على عدد غير محدد من الكيانات ، ففي الوقت الذي اتجهت فيه نظرية هيدر الى البناء الادراكي للفرد ، فانه من الممكن توظيف نظرية الخط البياني لوصف تجمعات من مختلف الانماط، مثل شبكات الاتصال، والدول، ومنظومات القوة . وترى النظرية ان حالة التوازن، تتوفر اذا امكن تقسيم البناء الى مجموعتين ، بعلاقات سلبية بين عناصر المجموعتين، وعلاقات موجبة بين عناصر ذات المجموعة . واذا لم يتوفر هذا البناء ، فان عناصر أية مجموعة تعاني التوتر . وحينما تكون العلاقات بين عناصر أية مجموعة ايجابية ، فان اي عنصر ضمن المجموعة يميل الى اظهار سلوك تكاملي مع المجموعة (٤) .

وفي ضوء هذه النظرية، فانه من الممكن مثلا رؤية خط بياني، يرمز الى النسق في الشرق الأوسط ، ينقسم الخط الى مجموعتين بينهما خطوط سالبة : العدو ـ الاعلام المضاد والاقطار العربية ، ويفترض ان ثمة علاقات موجبة بين الأقطار العربية، نشأت وتطورت عبر التاريخ، وان هذه العلاقات، متغيرة مع تفاوت كمية الصراع، بين هذه الأقطار والعدو والوان اعلامه المضاد .



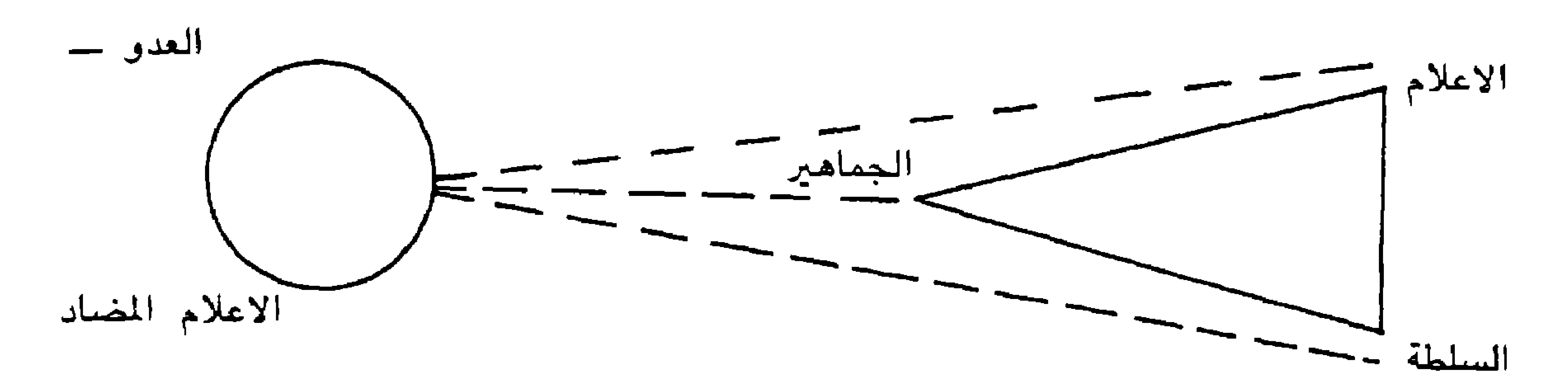
وترجع الجذور الاجتماعية لتصور مساهمة العلاقات السلبية، مثل التهديد والضغط من (الخارجيين)، على ضم الناس سوية، الى ما أورده دركهايم Durkheim في مؤلفه الكلاسيكي الانتحار Suicide ، حين أشار الى ان التكامل Integration استعمل للاشارة الى الدرجة التي تكون فيها افراد المجموعة ، موجهة الى المجموعة، بدلا من التوجه الى ذات الفرد، وقد ارجع دركهايم تقلص نسب الانتحار في الاحداث ، مثل الثورات السياسية والحروب ، الى ازدياد التكامل بين الأفراد في هذه الأوقات (٥) .

وفي هذا الاطار ، ذهب كل من سيمل Simmel (١٦٥٥) ، وكوسر Coser (١٦٥٦) الى اعتبار صراع المجموعة مع الآخرين عاملا موحدا، يساهم في تأكيد هوية المجموعة (٦).

وفي حقل الدراسات النفسية الاجتماعية ذهبت العديد من الدراسات، الى القول بأن الضغط المتزايد يجعل عناصر المجموعة، تميل الى اظهار مواقف تكاملية ، وان هذه الخلاصة، تتفق مع نظرة الفرد الاعتيادي، الى أن الكوارث تؤدي الى ضعف التناجر والانقسام بين المجموعات الرياضية ، والأسر ، والمدن . والأمم .

ثالثا : التطبيـــق

ان تطبيقا لهذا الاطار النظري يدفع الى تصور لموقف الاعلام في الأزمات وارتباطه مع السلطة وقواها الامنية والجماهير، في نسق متلاحم ديناميكي، لمواجهة التحدي الذي يفرضه العدو، والقوى الخارجية الطامعة .



على أن وضع عملية التلاحم هذه يقودنا الى وضع تصور الى ما يمكن ان يستثمره العدو من أجل الوصول الى خلق حالة اللاتوازن داخل المجموعة، اي عن طريق تهشيم

احد خطوط العلاقات الايجابية داخل المجموعة ، وعلى صعيد الساحة العربية يمكن تصور المنافذ الآتية :

١ ـ الثنائية : المتمثلة في مسألة الفصل بين الفكر ـ القول والواقع اسلوب الحياة ، وتجسدت هذه الثنائية من باب التمثل في احتقار العمل اليدوي واحترامه ، واستصغار دور المرأة واكباره .

٢ ـ تعزيز صورة المجتمع الموازييك المتنافر : ثقافات مختلفة متعارضة ، وحضارات تهيمن عليها بشكل غير مشروع ، حضارة عربية اسلامية ، هي في حد ذاتها مقتبسة عن حضارات اكثر تطورا وعراقة !!

٣ ـ تبني المشروع الغربي للتنمية المتمثل في ان التخلف هو طبع الانسان في البلد النامي ، وانه ، أي التخلف ، ليس حصيلة استغلال القوى الخارجية ، ويتمثل المشروع الغربي كذلك ، في تكثيف رأس المال الاجنبي عن طريق القروض والمساعدات الخارجية المسيسة ، واستيراد التكنولوجيا بكل قيمها السلعية الاستهلاكية .

٤ ـ اقامة مجتمع الاستهلاك، المعتمد على ما تصدره الدول المصنعة من مواد وبضائع وكماليات ، والترويج لاستهلاك مبتعد عن الترشيد، بما تبثه اجهزة الاعلام عن طريق الاعلان المباشر أو غير المباشر، المتجسد في تقليد الحياة الغربية .

ويبدو ان المسارات التي يسلكها الاعلام المضاد، بكل أشكاله، تأخذ انماطا متعددة، ضمن شبكة تتكون من ستة عشر خطا من خطوط الاتصال، تمتد بين أربعة أركان، هي :

١ ـ الحكومـــة .
٢ ـ المؤسسات غير الحكومية .
٣ ـ الفـــرد .
٤ ـ ثقافـــة .

وكمثال على ذلك، فهناك خط اتصال يمتد من الحكومة، يأخذ الشكل الآتي :

أ - بين حكومة · أ · وحكومة · ب ·
ب - بين حكومة · أ · ومؤسسة غير حكومة فـ·ب·
جـ بين حكومة · أ · وفرد في · ب ·
د - بين حكومة · أ · وثقافة · ب ·

وكمثال ثان :

١ - بين فرد في · أ · وحكومة · ب ·
٢ - بين فرد في · أ · ومؤسسة غير حكومية في · ب ·
٣ - بين فرد في · أ · وفرد في · ب ·
٤ - بين فرد في · أ · وثقافة · ب ·

وكمثال ثالث :

١ - بين مؤسسة غير حكومية في ·أ· وحكومة ·ب·
٢ - بين مؤسسة غير حكومية في ·أ· ومؤسسة غير حكومية في ·ب·
٣ - بين مؤسسة غير حكومية في ·أ· وفرد في ·ب·
٤ - بين مؤسسة غير حكومية في ·أ· وثقافة ·ب·

وفي الأقطار النامية التي تفتح أبوابها للعالم، مستقبلة رياح الاعلام الخارجي، الذي يأتي من الدول المصنعة، في وقت تكون فيه أجهزة الثقافة والاعلام الوطنية لا تملك الانتاج الوفير خبرا وثقافة وتسلية ، يظل أمرا ممكنا ان تتحقق بشكل أو بآخر، معظم انماط الاتصالات التي سلف ذكرها، وعليه فان الحفاظ على استمرارية العمل، من أجل المجتمع المتوازن المتميز بالحيوية والفاعلية ليس بالأمر السهل ، كما ان تعبئة المواطنين وتوعيتهم، لتحقيق طموحاتهم في الحياة الكريمة، يحتاج الى مزيد من الجهد في التنظيم أولا ، والاعلام ثانيا .

واذا ما ابتعدنا عن تركيز الجهد في محال الاقناع، بسبب من الانصراف عنه عمليا

ونظريا في هذه الايام على الأقل ، وأكدنا على أن مهمة الاعلام تتركز في بناء مفكرة المواطن أو (أجندته)، عن طريق ابراز بعض الموضوعات، وحذف بعضها الآخر، فان التساؤل الذي يتردد هو، لماذا فشلت هذه الحملة أو تلك؟ مع انها تحمل الوفير من المعلومات . وقد بذل لاعدادها والانفاق عليها غير القليل من الجهد والمال ؟

رابعا : .لماذا تفشل الحملات الاعلامية ؟

في محاولة للاجابة عن هذا التساؤل، اجتهد هربرت هايمن وبول سيشلي من الباحثين في السياسة والاجتماع، وذهبا الى القول بأن فشل حملات المعلومات، يرجع الى عوائق سيكولوجية اكثر منه الى عوائق مادية .

فمن أجل زيادة معرفة الجمهور بموضوع، ليس مهما فقط تقديم المعلومات، بل أيضا تعرض الجمهور لها، واستيعابها . ومن أجل تحقيق جانبي التعرض والاستيعاب، ينبغي ان تكون الخصائص والسيكولوجية للفرد موضع الاعتبار ، ان توافر عدد من الناس الذين لا يعلمون الا القليل، بالرغم من كثرة المعلومات المعروضة، يحتم التعرف على أسباب ضعف الرغبة لدى هؤلاء ، بما يؤدي الى معرفة السبل الكفيلة بالتوصل اليهم، ومن هذه الاسباب :

١ - ان الناس عموما يبحثون عن معلومات تنسجم ومواقفهم المسبقة .
٢ - ان الناس يختلفون في تفسير المعلومات غير المختلفة .
٣ - ان المعلومات لا تؤدي بالضرورة الى تغيير المواقف .

وقد أورد (دورين كارترايت) مجموعة من الشروط لتكييف البنية الفكرية للافراد عن طريق توظيف وسائل الاتصال الجماهيرية، لتحقيق الغرض المنشود ، ومن المكن تلخيص هذه الشروط بما يأتي :

١ - ان الرسالة (معلومات واخبار ..) يجب ان تصل الى الاعضاء الحسية للاشخاص المستهدفين .

٢ ـ يختار مجمل الموقف من المثير أو يرفض على أسس من الانطباعات، حول الخصائص العامة لذلك الموقف (تسلية ، اخبار ، اعلانات ..) .

٣ ـ لتحديد مجمل الموقف ، يوظف الشخص معايير تجنح الى ابعاده عن التغيير غير المرغوب (غير المتفق مع بنيته الفكرية) .

٤ ـ حينما يتسلم الشخص الرسالة، فانه يرفضها أو يقبلها، استنادا الى معايير أكثر اتساعا، من المعايير التي تظهر بها تلك الرسالة .

٥ ـ حينما لا تتفق الرسالة مع البنية الفكرية السائدة عن الشخص، فانها : (أ) ترفض (ب) تحرف من أجل قبولها (ج) تحدث تغييرا في البنية الفكرية .

٦ ـ من أجل اتخاذ قرار عن طريق الاقناع بوسائل الاتصال الجماهيري، فان الشخص يرى في العمل طريقا لتحقيق هدف معين لديه .

٧ ـ ان الشخص لا يرى في العمل طريقا لتحقيق هدف معين لديه، الا اذا انسجم مع بنيته الفكرية الشاملة .

٨ ـ اذا لم يكن العمل مؤديا الى هدف مرغوب، أو مؤديا الى هدف غير مرغوب فيه فليس ثمة أمل كبير بتنفيذه .

٩ ـ كلما ازداد عدد الأهداف التي يمكن نيلها عن طريق واحد، فثمة احتمالات اكثر لاتباع الشخص هذا الطريق .

١٠ـ قد لا ينفذ العمل المؤدي الى هدف مرغوب، اذا كان ثمة ما يشير الى صعوبة الوصول أو غلاء السعر أو توفر عمل مرغوب فيه يؤدي الى الهدف ذاته .

١١ـ لدى التحرك الى عمل معين ، ينبغي ان يكون النسق الادراكي والعاطفي للفرد، منسجما مع سلوك الشخص، في نقطة معينة من الزمن .

١٢ـ كلما كان طريق العمل للهدف محددا زاد الاحتمال بتمكين البنية الادراكية والعاطفية من التوجه نحوه .

١٣ـ قد تتمكن البنية الفكرية من توجيه السلوك، في الوقت الذي يكون فيه الشخص بين موقفين : خذ أو لا تأخذ .

وقد تكون ثمة محاولات أخرى للاجابة على التساؤل الذي طرحته هذه المقالة عند الاستهلال ، ولكن قد يكون في كل ما سلف ضرب من الاجابة لمن يلح في التساؤل ويطلب الجواب العاجل .. وتبقى نظرية بناء مفكرة المواطن أو (أجندته) قائمة، فالاعلام قد لا ينجح في تحقيق (بماذا يفكر المواطن)، بل (فيما يفكر حوله على الأقل) .

ومن هنا يبدو أمرا مهما ان نضع في مركز الاهتمامات مايأتي :

أولا : تحديد مدى تعرض المواطنين ، ومدى اكتراثهم بالدعاية القادمة من الداخل أو الخارج .

ثانيا : معرفة الوزن النوعي لاجهزة الاعلام الوطنية في تقديم الاخبار المحلية والعالمية للمواطنين .

ثالثا : تحديد حملة العوامل النفسية الاجتماعية المؤثرة على (جماهيرية) برامج الاعلام الوطني . (٧)

والتعامل الذكي مع أجهزة الاعلام، أمر تفرضه حساسية الرأي العام خلال الاحداث الهامة، التي قد تؤدي احيانا الى تحويله من طرف الى آخر :

— فالرأي العام يتقرر ويأخذ شكله بقوة الاحداث أكثر من قوة القول .
— والتعليم والتثقيف من العوامل المساعدة على تكوين الرأي العام الصلب ، وان مشاركة الجماهير في صنع القرارات مأمل فعال في الدفاع عنها وتأمينها .(٨) .

ولكي تكون وسائل الاتصال الجماهيرية ، جماهيرية حقا، لابد ان تجد الجماهير فيها ، وضمن اطار العمل الجماعي صغر حجمه أم كبر ، منطلقا الى الهدف الذي بنيغي :

١ ـ ان يكون في مركز البؤرة من الرؤية صافيا واضحا ، وطالما مررنا بأشياء، ولكننا في ساعة ما من الاختبار والتذكر، نجد أنفسنا غير محيطين واقعا بتلك الاشياء . ان الهدف، بحد ذاته، يشكل دليل عمل يُحتكم اليه في تحديد الخطوات والمراجعة وتقويم المسار .

٢ - الا يكون ثمة تناقض أو تصور لتناقض بين الهدف وما تطمح اليه الجماهير، فالحرية مثلا ، انما تقوم لمصلحة الجماهير وكرامتها وحريتها وخبزها ، ومثل ذلك يمكن ان يقال عما يتصل بالحرية من أهداف .

٣ - ألا يكون هناك تناقض بين الوسائل الموظفة لتحقيق هذا الهدف ، وان التنسيق بين الوسائل من صحافة واذاعة وتلفزة ووسائل اعلام تقليدية، ينبغي ان يكون مستمرا وفاعلا .

وأخيرا فان الاجهزة الاعلامية لن تستطيع العمل على تحقيق التوازن ، ومن ثم الوصول الى الهدف الكبير، المتمثل في تعبئة الجماهير، ما لم توظف الموارد الفكرية والمادية التي تمكنها من العمل الناجح .

الهوامـــــش

1. Frank Harary "Structural Analysis of the situation in the Middle East in 1986," J. of Communication, (June, pp. 167 – 178.

2. Louis Cantori and Steven Spiegel, "The Analysis of Regional International Politics : the Integration Versus the Empirical System Approach,". International Organization, 7 (Autumn 1973), pp. 465 – 94.

3. Fritz Heider, "Attitude and Cognitive Organization," 2 J. of Psychology, 21, (January 1946), pp. 107 – 12.

Theodore M. Newcomb, "An Approach to the Study of Communication Acts,". Psychological Review, 60 (Nov. 1953), pp. 393 – 404.

4. Frank Harary, "Structural Analysis of the Situation in the Middle East,".

Robert K. Leik and Barbara F. Meeker, Mathematical Sociology (New Jersey : Prentice – Hall, 1975), p. 60.

6. Georges Simmel, Conflict Trans. Kurt W. Wolff (Illinois : The Free Press, 1975) ; and Lewis A. Coser, the Function of Social Conflict, (Illinois : the Free Press, 1964).

Karl Deutsch, Nationalism and Its Alternatives, (New York : Alfred A. Knopf, 1969), p. 3.

٧ ـ فورفيتش : التأثير النفسي ـ الاجتماعي للدعاية الاذاعية (علم النفس الاجتماعي)

8. B. Berclson and Gary A. Steiner. Human Behaviour. Harcruit Brace and World. N. Y. 1961, p. 56.

المحاضرة العاشرة

مصادر الشعر القديم وقيمتها النقدية



للأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحمن

الأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحمن محمد ابراهيم

* من مواليد بنها القليوبية في ٣٠/٤/١٩٢٩ بجمهورية مصر العربية .
* حصل على ليسانس الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٤ .
- درجة الماجستير في الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٩ .
- درجة الدكتوراة في الآداب جامعة لندن ١٩٦٤ .
* عمل كمعيد بكلية الآداب من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ ثم مدرس ٦٣ ـ ٧١ وأستاذ مساعد ٧١ ـ ٧٦ ثم أستاذ للأدب والنقد اعتبارا من ١٩٧٦ .
- رئيس قسم اللغة العربية وأدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس ٧٦ ـ ٧٩ ومن ٨٣ إلى الآن .
- مدير مركز الخدمة العامة بجامعة عين شمس اعتبارا من ١٩٨٤ .
- أستاذ معار بجامعة الكويت من ٦٧ إلى ٧٠ ومن ٧٩ ـ ٨٣ .
* أهم وأبرز المؤلفـــات :
- ابن قيس الرقيات : حياته وشعره .
- الشعر الجاهلي : قضاياه الفنية والموضوعية .
- الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق .
- بين القديم والجديد : دراسات في الأدب والنقد .
- له سلسلة من المقالات والبحوث نشرت في المجلات المصرية والعربية .
* أهم المؤتمرات والندوات التي شارك فيها .
- مؤتمر المسلمين بالهند .
- ندوة القاهرة للابداع العربي .

مصادر الشعر القديم وقيمتها النقدية

لا يستطيع المرء في مثل هذه المحاضرة العامة، أن يقدم دراسة مفصلة للمصادر الادبية القديمة ، تتناول مشكلاتها وترصد قضاياها المختلفة ، فذلك موضوع يحتاج الى وقت وجهد، لا أظن أن محاضرة واحدة تكفي لعرضه، أو أن واحدا بمفرده يقدر عليه ، فالمصادر الأدبية القديمة من الكثرة والتنوع، بحيث تحتاج لدراستها دراسة منهجية، على أسس علمية حديثة ، الى «فريق عمل» من المتخصصين ، ومن ثم فسوف أقصر حديثي على نوع بعينه منها ، هو مصادر الشعر والشعراء .

ومراجعة يسيرة لصنيع الرواة والمؤلفين في هذه المصادر لكفيلة بأن تطلعنا على هذه الحقيقة ، وهي أن الرواة قد عمدوا الى جمع الشعر وتدوينه ، ثم تفسير هذا الشعر تفسيرا لغويا خالصا حينا ، ولغويا أدبيا حينا آخر .

(١)

وفيما يتصل بجمع الشعر وتدوينه ، فقد بدأ بداية مبكرة تعود الى منتصف القرن الأول الهجري ، في مرحلة نستطيع ان نطلق عليها اصطلاحا «مرحلة التجميع»، وقد دعت الى هذه العناية أسباب عديدة، يهمنا منها الأسباب السياسية ، فقد تعلق الخلفاء الأمويون برواية شعر الجاهلية وأخبارها، لأسباب عصبية، تعود أولا ، الى تلك المنافسة السياسية التي ثارت بين الشام والعراق والحجاز، منذ أن انتقل الأمويون بالحكم الى الشام، متخذين من «دمشق» بدلا من الكوفة والمدينة ، حاضرة للدولة الاسلامية الجديدة ، كما تعود ثانيا ، الى هذه السياسة التي اتبعها خلفاء بني أمية، في احياء العصبية القبلية باستثارة القبائل اليمنية، وحملها على نصرتهم في صراعهم مع الثائرين

على سلطانهم في الحجاز والعراق . وهي سياسة كانت لها آثارها الطيبة في احياء ماضي الجاهلية ، وجمع تراثها الشعري والاخباري ، كما كانت لها آثارها المدمرة، في فصم وحدة المسلمين السياسية والدينية ، وتفريق كلمتهم .

وبصرف النظر عن حقيقة الأسباب التي حملت خلفاء بني أمية على العناية بجمع أشعار الجاهلية وأخبارها ، فان هذه الحركة العلمية قد ازدهرت على أيديهم ازدهارا عظيما ، حمل الجاحظ على الاعجاب بها فوصفها بقوله :

«ان العرب كانت أوعى لما تسمع ، واحفظ لما تأثر ، ولها الأشعار التي تقيد عليها مآثرها ، وتخلد محاسنها . وجرت من ذلك في اسلامها على مثل عادتها في جاهليتها ، فبنت بذلك لبنى مروان شرفا كثيرا ، ومجدا كبيرا ، وتدبيرا لا يحصى» .

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من استن ذلك لبني أمية ، فقد كان شغوفا برواية الشعر ومعرفة أخبار الجاهلية وكتابتها ، وقد كان يمتحن فيه من يفد عليه ، فان وجد في أحدهم علما به زاد في عطائه ، وقدمه ودعاه الى مجلسه . كما كان له غلمان يكتبون ما يرويه عليه من يستقدمهم الى مجالسه من العارفين بأخبار الجاهلية وأشعارها وانسابها وأيامها ، وكان يرتبهم فيكتب كل واحد منهم نوعا بعينه من الروايات أو الأخبار .

ويروى عنه في ذلك أخبار كثيرة ، منها أنه «جرى بين عبدالله بن الزبير وعتبة بن أبي سفيان لحاء بين يدي معاوية ، وجعل ابن الزبير يعدل بكلامه عن عتبة ويعرّض بمعاوية حتى أطال وأكثر في ذلك ، فالتفت اليه معاوية متمثلا ، وقال :

ورام بعوران الكلام كأنها نوافر صبح نفرتها المراتع
وقد يدحض المرء الموارب بالخنا، وقد يدرك المرء الكريم المصانع

ثم قال لابن الزبير : من يقول هذا ؟ قال : ذو الاصبع ، فقال : أترويه ؟ قال : لا ! قال : من ها هنا يروي هذه الابيات ؟ فقام رجل من قيس فقال : أنا أرويها يا أمير المؤمنين ، فقال : أنشدني ، فأنشده حتى أتى على قوله :

وساع برجليه لآخر قاعد ومعط كريم ذو يسار ومانع
وبانٍ لاحساب الكرام وهادم وخافض مولاه سفاها ، ورافع،
ومغضٍ على بعض الخطوب وقد بدت له عورة من ذي القرابة ضاجع!

فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة ، قال : اجعلوها ألفا ..!

وقد تابع خلفاء بني أمية من بعده هذه العناية برواية الشعر وجمع الأخبار ، وقد بلغ عبدالملك بن مروان في ذلك الغاية ، وكان كما يصفه الرواة من العلماء بالشعر الجاهلي ، والعارفين بأخبار الجاهلية .. ولعل خير ما يصور شغف هذا الخليفة بأخبار الشعر والشعراء ما يرويه ياقوت من أنه كتب الى الحجاج يقول : «أنظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام ، عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، استأنس به وأصيب عنده معرفة ، فوجهه الي من قبلك . فوجه اليه الشعبي ، وكان أجمع أهل زمانه . قال الشعبي : «فلم ألف واليا الا وهو يحتاج الي ولا أحتاج اليه ما خلا عبدالملك ، ما أنشدته شعرا ، ولا حدثته حديثا الا وهو يزيدني فيه ، وكنت ربما حدثته وفي يده اللقمة فأمسكها ، فأقول : يا أمير المؤمنين أسِغ طعامك فان الحديث من ورائه ، فيقول : ما تحدثني به أوقع بقلبي من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة ..!

ولا نستطيع بالطبع أن نمضي في وصف هذه المجالس التي كان يعقدها خلفاء بني أمية لرواية الشعر والأخبار ، وتدوينها ، فهي كثرة مفرطة ، ولكنا نمضي الى تسجيل حقيقة لها خطرها وأهميتها في فهم طبيعة هذه الحركة ، هي أنه قد أخذت تنشأ ، تحت الحاح خلفاء بني أمية على طلب الشعر والأخبار ، طبقة من الرواة المحترفين الذين كانوا يعمدون الى اعداد أنفسهم لهذه الوظيفة ، أو فلنقل لهذه الحرفة التي اشتد طلب الأمويين على أصحابها في مجالسهم الأدبية . ومن هؤلاء ، وهم كثيرون، عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يقول واصفا كيف أعد نفسه اعدادا علميا جعل منه راوية محترفا يدعى الى مجالس الخلفاء والولاة الأمويين : «قدم عبدالملك بن مروان ، وكان يحب الشعر ، فبعث الى الرواة فما أتت علي سنة حتى رويت الشاهد والمثل وفضولا بعد ذلك . ثم قدم الحجاج ، وكان يدني على القرآن فحفظته في سنة..»

ويتضح لنا حين نضم هذه الأخبار بعضها الى بعض أن رواية الشعر والسير قد تحولت منذ هذا الوقت المبكر الى حرفة مربحة ، وأن الرواية الشفوية لم تعد الوسيلة الوحيدة لحفظ التراث القديم ، فقد أخذت الكتابة تلعب دورا خطيرا منذ خلافة معاوية في تدوين ما يروى في مجالسه من سير وأخبار وأشعار ، فكثرت «المدونات» وانتشرت في بيئات الخلفاء والولاة والرواة كثرة تشكل ظاهرة حضارية لها أهميتها ، ولعل من خير ما يصور ذلك ما يروى من أن «عروة بن الزبير» كان يخلط رواية الحديث برواية السير والمغازي والأشعار ، وكانت له في ذلك «مدونات» كثيرة يصفها ابنه بقوله :

«أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب الي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي» !

وكانت لعروة هذا كتب غيرها في المغازي والسير ، ومن أخباره أنه كان يطيل الاشتغال بالنظر في كتبه عن كل شيء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوما : «والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر» وقد بلغت كتبه من الكثرة في خزائن الوليد بن يزيد ، أنها حملت على الدواب حينما قتل» .

وهذا كله : نشأة الرواية بدوافع سياسية في بلاط الأمويين ، وتحولها الى حرفة على أيدي الرواة الذين أغرتهم عطايا بني أمية ، والاعتماد على الكتابة في حفظها كان له أثره الذي نستطيع تلخيصه في أمرين ـ الأول : أن الرواية قد أصبحت «سلعة» يتاجر بها الرواة في قصور الخلفاء والولاة ، أكثر منها عملا علميا له أصوله وقواعده ، والثاني : أن الرواة حرصوا في جمعها على أن يتخيروها تخيرا خاصا بحيث تحقق أغراض الأمويين السياسية من ناحية ، وترضي أذواقهم الفنية من ناحية أخرى ، فاختلطت بسبب ذلك الروايات الصحيحة بالروايات الموضوعة ، والجد بالهزل ، والحقيقة بالخيال اختلاطا شديدا .

وورث رواة القرن الثاني الهجري هذا التراث المختلط ، فحاولوا استكماله من ناحية وتصويبه والفصل بين أنواع المعارف فيه من ناحية أخرى ، ولكنهم لم يستطيعوا على الرغم مما ألزموا به أنفسهم من قواعد وشروط ، أن يخلصوا رواية الشعر والأخبار

والسير من الاختلاط والاستطراد وغيرهما من الآفات الأخرى ، الا في بعض الحالات ... ومن ثم فمن المألوف أن نجد في هذه المصادر الخبر ونقيضه ، والشعر منسوبا لقائله حينا ، ولغير قائله حينا أخر ، في روايات حرص القدماء على اثبات أسماء الذين حملوها الى مرحلة التدوين !

(٢)

١ ـ وقد صدر القدماء في تفسير ما كانوا يروونه من أشعار عن منهج بعينه ، يتلخص في قراءة هذا الشعر قراءة معاصرة ، بمعنى أنهم أخذوا يفسرونه في ضوء دلالات لغوية حديثة، تطورت اليها الدلالات اللغوية القديمة، التي نظمت فيها هذه الاشعار ، كما أنهم ألحوا في المقابلة بين حيوات الشعراء وآثارهم الشعرية مقابلة مسرفة، انتهت بهم الى التسوية بين الوجود الشعري للواقع ، وبين الوجود الحقيقي له، على الرغم من أنهما عالمان مختلفان ، بل ومتناقضان في أغلب الأحيان !

وقد كان لهذا الاتجاه الغالب في رواية الشعر وتفسيره ، وجمع الأخبار وتدوينها ، آثاره السيئة كما قلنا على المصادر الأدبية القديمة ، وكتابات الدارسين المحدثين الذين اعتمدوا عليها وقبلوا رواياتها ، دون عناية جادة بنقد هذه المادة المتنوعة نقدا تاريخيا مثمرا على نحو ما سوف نرى .

ونرى الآن ان نرصد شيئا من هذه الآثار السيئة، كما تظهر في المصادر القديمة من ناحية ، وما أدت اليه من نتائج وأرسته من أفكار وآراء ثابتة، تدور دورانا غريبا في الدراسات الحديثة للتراث القديم من ناحية أخرى ـ وهي محاولة شاقة ، كما أنها ليست الأولى من نوعها ، فقد سبقتني اليها دراسات جادة أثارت ولا تزال تثير عواصف نقدية عنيفة من العاشقين للتراث القديم والمؤمنين بقيمته في ذاته بصرف النظر عما فيه من أخطاء وتجاوزات . ولعل محاولة أستاذنا العظيم الدكتور طه حسين في تقويم رواية الشعر الجاهلي وتأصيل نصوصه، من أخصب هذه المحاولات وأكثرها اثارة وأبعدها اثرا في الفكر الأدبي المعاصر في العالم العربي ، فقد اصطنع فيها صاحبها منهجا علميا قويا ، هو «المنهج الفيلولوجي» وانتهى فيها الى نتائج قيمة . ولكن هذه المحاولة النبيلة ،

مثل أي محاولة نبيلة أخرى في عالمنا العربي ، قد فتحت على طه حسين بابا واسعا من أبواب الارهاب الفكري الذي تنوعت وسائله ، واختلفت طرائق أصحابه . ولكن هذا الشر لم يثن طه حسين عن غايته ، فقد مضى في تقويم هذا التراث في دراسات ومقالات غيرت كثيرا من وجه التفكير الأدبي في العالم العربي الحديث ، على الرغم من معارضة الكثيرين لها .

وهذه المحاولة التي نقدمها ليست في الحقيقة سوى خطوة أخرى على هذا الطريق العلمي، نحو «تقويم» المصادر القديمة، ودرء أخطارها في الدراسات الحديثة . وهي خطوة سوف نقصرها على الوقوف عند مصدرين قديمين ، نتخذ من أولهما ، وهو ديوان الشاعر الأموي عبيد الله بن قيس الرقيات، نموذجا نشخص من خلاله ما أصاب رواية الشعر في دواوينه المفردة من خلط وتحريف، بسبب العصبيات القبلية والسياسية التي قلنا انها كانت تحكم رواية التراث الأدبي القديم ، ومن الآخر ، وهو موسوعة أدبية من تلك الموسوعات التي أخذت تكثر منذ القرن الثالث الهجري ، والتي أفادت من عمل الرواة الأوائل في مرحلة التجميع ، مثلا لهذه المصادر التي تضلل أخبارها التاريخية وحكاياتها الشعبية الدارسين المحدثين وتغريهم باصدار أحكام غريبة على الشعر والشعراء ، نقصد به كتاب الاغاني لمؤلفه المشهور «أبي الفرج الاصبهاني» .

(١) وقارىء ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات في أصوله المخطوطة ، يلاحظ العبث والتحريف اللذين أحدثتهما العصبيات القبلية، والأهواء السياسية والمذهبية ، سواء في رواية القصائد أو نسبتها الى أصحابها من الممدوحين ، فقد انغمس هذا الشاعر في الأحداث السياسية، التي شغلت المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، واتصل بحكم شهرته الشعرية بثلاثة من البيوت القرشية المتصارعة حول خلافة المسلمين ، وهم : الزبيريون ، والهاشميون ، والأمويون .

وفيما يتصل بنسبة القصائد ، فعلى الرغم من أنه قد ثبت ثبوتا تاريخيا قاطعا أن ابن قيس الرقيات لم يتصل بـ «عبدالله بن الزبير» اتصالا سياسيا ، وأن «عبدالله» هذا كان لا يفتح أبوابه لشعراء المدبح ، وأن اتصاله الحقيقي كان بأخيه «مصعب بن الزبير» الذي أغرى الشاعر بشجاعته وعطاياه ، فان رواة ديوانه قد تصرفوا في نسبة بعض

قصائده، فنقلوها من مدائح في الأمويين أو الهاشميين الى مدائح في عبدالله بن الزبير ! وليست غايتنا هنا أن نرصد جميع قصائده التي اضطربت نسبتها بفعل الرواة ، ولكن غايتنا أن نقدم بعض الأدلة على هذا النوع من العبث برواية الشعر القديم ، ومن ثم نكتفي بهذين المثلين الدالين :

الأول : قصيدته الهجائية التي مطلعها :

أنت معتلج البطـ ـاح، كديها فكدائها

وهي قصيدة يقولها أصلا في مديح عبدالملك بن مروان ، ولكن راوي الديوان نسبها الى مديح ابن الزبير بقوله : «وقال ابن قيس وخرج الى عبدالله بن الزبير رحمه الله وافدا» . وقد وقع محقق الديوان ، الدكتور يوسف نجم في نفس الخطأ فأثبت القصيدة على أنها في مديح ابن الزبير ـ ومن يتأمل أبيات المديح يتضح له أنها في مديح الخليفة الأموي عبدالملك ، فقد نسبه في أحد أبياتها الى أمه «عائشة بنت معاوية بن المغيرة» وهي أموية ، ولذلك نراه يمتدحها بنسبتها الى جدودها المعروفين بالأعياص ، فيقول :

ولدتك عائشة التي فضلت أروم نسائها
متعطف الاعياص حو ل سريرها وفنائها

ومن الغريب ان محقق الديوان لم يلتفت الى هذا المعنى ، فقال في التعريف بعائشة هذه ، بأنها عائشة أم المؤمنين ، وكان ابن الزبير ينسب اليها لأنها خالته والخالة أم .

والمثل الثاني الذي نقدمه ، قصيدته النونية التي يقولها في مديح عبدالله بن جعفر ، والتي مطلعها :

زودتنا رقية الأحزانا يوم جازت حمولها سكرانا

فقد عنون لها بقوله : وقال ابن قيس يمدح عبدالله بن الزبير ..

وقارىء هذه القصيدة يكتشف انها في مديح عبدالله بن جعفر لأسباب كثيرة نوجزها

في ملاحظتين :

الأولى : أن الشاعر كما قلت من قبل لم تثبت صلته بـ «عبدالله بن الزبير» ، ولم يقل في مديحه شعرا .

والثانية : أن ما قاله من غزل في رقية في مقدمات القصائد ، كان قبل اتصاله بمصعب ، وقبل رحيله الى العراق .. وقد انقطع عن ذكرها بعد ذلك في المرحلة التي اتصل فيها بـ «مصعب بن الزبير» وأخذ يذكر بدلا منها في غزله في مقدمات القصائد أسماء جديدة أكثرها لنساء الأمويين ليغيظهم ويضايقهم !

ومن المعروف أن صلة الشاعر بـ «عبدالله بن جعفر» أقدم بكثير من صلته بـ «مصعب بن الزبير» وعبدالملك بن مروان !

أما القصائد التي تدخل الرواة في تحريف نصوصها لأسباب سياسية ومذهبية فكثيرة نختار منها قصيدة مشهورة ، هي الهمزية التي قالها في مديح مصعب بن الزبير وقد خصص الشاعر قسما كبيرا منها للحديث عن مأساة قريش بعد مقتل عثمان وانفتاح باب الحروب الأهلية على مصراعيه بين القرشيين ، فقد لعبت العصبية دورا في تشويه بعض أبياتها ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في هذه الأبيات التي يمدح بها سهيل بن عمرو ، الصحابي المعروف ، فيقول :

ورجال لو شئت سميتهم ، منـ	ـا ، ومن القضاة والعلماء
منهم ذو الندى سهيل بن عمرو	عصمة الجار حين حسب الوفاء
حاط أخواطه خزاعة لما	كثرتهم بمكة الأحياء ،
حين قال الرسول: زولوا فزالوا	شرع الدين ليس فيه خفاء !

والشاعر كما هو واضح ، يشيد بموقف سهيل بن عمرو من بني خزاعة حين عدت عليها بنو بكر بعد صلح الحديبية ، وكان فيه أن من أحب أن يدخل في عقد الرسول وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل ، فدخلت بنو خزاعة في عهد الرسول ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، ولكن بني بكر نكثت بهذا العهد وعدت

الى الخزاعيين فقتلت منهم كثيرا من الرجال ، وكان سهيل بن عمرو من الذين قاتلوا مع بني بكر وأمدوها بالسلاح ـ وهذا يناقض ما جاء في هذه الأبيات التي يمدحه الشاعر فيها بأنه كان عونا لبني خزاعة وحاميا لهم من أعدائهم . ومن الغريب ان الذين حققوا ديوان الشاعر لم يفطنوا الى هذا التناقض فنشروه كما جاء في أصول الديوان المخطوطة !

ولكننا نستطيع حين نراجع هذا الحدث التاريخي الذي مهد لفتح مكة ، في مصادره التاريخية الموثقة، أن نلاحظ شيئا أخر يكشف لنا حقيقة هذا التحريف ، هو أن الرسول أمر بني خزاعة بعد هذه الوقعة، أن يخرجوا من مكة استعدادا لفتحها ، بقوله : «ارجعوا فتفرقوا في الأرض» ! ففهم القرشيون من ذلك أنه قد انتوى فتح مكة .. فحازوا خزاعة ، أي ردوها عن التفرق وأمسكوها في مكة، محاولين استرضاءها لاصلاح ما فسد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونستطيع على هذا الأساس أن نصحح رواية البيت بأن «حاط» محرفة عن «حاز» .

حاز أخواله خزاعة لما كثرتهم بمكة الاحياء !

ولعلنا نستطيع ان نتصور الآن كيف يمكن أن يضل الدارس المعاصر، حين يستخدم مثل هذه النصوص الشعرية في كتاباته دون أن يصححها ، أنه من غير شك يقع في كثير من الأخطاء العلمية القاتلة، حيت يصدر أحكاما غير صحيحة، يؤسسها على نصوص محرفة . وليس ديوان ابن قيس الرقيات وحده هو الذي تعرض لهذا النوع من التحريف ، فلا يختلف حال الدواوين والمجاميع الشعرية الأخرى عن حاله في قليل أو كثير ، ولولا خشية الاطالة ، والاملال لوقفنا عند شواهد من دواوين أخرى .

٢ ـ ولا تقل أخطاء الرواة القدماء في تفسير الشعر ورصد معانيه اللغوية تضليلا للقارىء والباحث المعاصرين عن أخطائهم في روايته ، فقد قرأوه وفهموه من خلال لغتهم المعاصرة بدلالاتها الجديدة . وفي عبارة أخرى ، انهم قرأوا الشعر الجاهلي بلغة اسلامية تطورت دلالاتها تطورا عظيما ، كما قرأوا شعر العصور الاسلامية الأخرى بلغة العصور التي تليها . وكان لذلك أثره الذي لا يمحى ، وهو هذه الفوضى الدلالية التي عمت شروح القدماء للشعر العربي ، وهي فوضى قد انتقلت على أيدي اللغويين اللاحقين الى المعاجم

اللغوية ، فملأتها بفيض من المفردات اللغوية التي يمكننا تصنيفها في ثلاثة أنواع متمايزة :

الأولى : ألفاظ مجازية الدلالات ، بمعنى أن المعاني التي أثبتها اللغويون لها في هذه المعاجم ، ليست معانيها الحقيقية كما هي في جذورها اللغوية الأصلية ، ولكنها «استعمالات شعرية» انتقلت فيها الدلالات الأصلية الى دلالات مجازية ، عن طريق الاستعارة وتراسل الحواس ، وغيرهما من وسائل الشعراء الفنية .

والثانية : ألفاظ مترادفة المعاني ـ ونقصد بها تلك المفردات التي تختلف جذورها اللغوية وتتفق دلالاتها المعنوية .. وهذا النوع من الألفاظ يؤلف ، في المعاجم والشروح اللغوية للشعر ، تراثا ضخما لظاهرة لغوية تحتاج الى دراسة تقويمية ، هي ظاهرة الترادف ، فمن المعروف أنه ليس في اللغة ترادف بالمعنى اللغوي الدقيق لهذا المصطلح ، ولكن فيها حالات وأنواع مختلفة من المعاني ، وأن هذا الذي نسميه ترادفا ، ليس سوى حالات مختلفة من المعاني لم نعن أنفسنا بالكشف عنها !

والثالثة : ألفاظ أضداد ، وهي ألفاظ ذوات معان متقابلة ، تعكس المعنى ونقيضه ! وهذا النوع من الأضداد في اللغة قد فتن القدماء بدراسته ، ولكنها فتنة وقفت عند حد ملاحظة هذه الظاهرة اللغوية وتسجيلها ، بوصفها مجرد ظاهرة طريفة على نحو ما فعل الجاحظ في كتبه ورسائله . وطبيعة اللغات بوصفها أرقى الوسائل التي توصل اليها الانسان للتخاطب والتعبير ، لا تعرف «التضاد» بهذا المفهوم الذي نواجهه في المعاجم العربية القديمة ـ ولكنه هو الآخر لون من الاستعمالات الشعرية للغة .

ومن هنا تصدمنا هذه الحقيقة ، وهي أن اللغة العربية ، في شروح الرواة للشعر وصنيع اللغويين في المعاجم ، قد تحولت الى لغة مجازية خالصة ، تفتقر الى التعبير اللغوي المحدد والمباشر في كثير من مفرداتها . وأن هذا الفيض من «الدلالات المجازية» قد انتقل اليها من اللغة الشعرية على نحو ما فهمها وشرحها اللغويون القدامى . ومع تسليمنا بأن الاستعمالات الشعرية من وسائل تطوير اللغة وتنميتها ، فانه تبقى هناك حقيقة لها خطرها وهي أن استعمال اللغة ليس وقفا على «ميدان الشعر» وحده ، ولكن

هناك ميادين أخرى تستخدم فيها اللغة استخداما علميا دقيقا ، ومثمرا في الوقت نفسه . وهو ما لم يلتفت اليه كثيرا مؤلفو هذه المعاجم عند جمع مادتها اللغوية ، كما أنهم لم يرتبوا هذه «المادة المجازية» ترتيبا تاريخيا .

ويعزى ذلك كله ، أو قل يعنينا من ذلك كله أمران ، أشرنا اليهما مرارا فيما مضى :

أولهما : أن شروح القدماء للشعر هي منبع المادة اللغوية التي تؤلف المعاجم التي بين أيدينا .

وثانيهما : أن دلالات هذه الشروح دلالات عصرية ، بمعنى أنها نابعة من معاني الشعر كما قرأه هؤلاء اللغويون وفهموه وشرحوه بلغة عصرهم ، لا بلغة الذين قالوه من الشعراء .. وقد جرى المحدثون على نفس الضرب ، فاستعانوا على فهم هذا الشعر بشروح القدماء حينا ، ولغة المعاجم حينا آخر ، مما كان له أثره في أحكامهم النقدية والموضوعية على هذا الشعر ، ومفهومهم لطبيعته الفنية .

ونستطيع لكي نتبين هذا الأثر ، أن نعود الى شروحهم للشعر الجاهلي لنجدها في أكثرها ، شروحا مضللة ، تنبع من لغة مختلفة الدلالات عن لغة العصر الجاهلي ، ومفهومات جديدة لم تكن معروفة من قبل ـ وبعبارة مختصرة ، ان هذا الشعر قد قرىء وشرح بعقلية اسلامية ، هي عقلية رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين ، قصدت الى تنقيته من كل آثار الوثنية الجاهلية وبقاياها . وقد اتخذ هذا القصد الى التنقية أشكالا ووسائل مختلفة ، منها حذف أسماء الأصنام وصفاتها ، واسقاط الأبيات التي تصف شعائر الديانة الوثنية وغير ذلك من الاشارات الصريحة الى الوثنية الجاهلية ـ ولكن هذه المحاولة من التصفية قد اصطدمت بنوع من الصعوبة التي تتمثل في المادة المجازية التي تتألف منها لغة الشعر الجاهلي ، الكامنة في التشبيهات والاستعارات وغيرها من وسائله الفنية الأخرى .

ففي هذه المادة المجازية اشارات وثنية خفية وعميقة ، ولذلك اتجه شراح الشعر القديم الى طريقة أخرى للتخلص منها ، وذلك بعزلها عند تفسيرها ، عن أصولها الميثولوجية (الوثنية) التي نبعت منها ، مما ساهم كثيرا في تضليل القارىء ، وتزييف معاني الشعر الجاهلي خاصة والقديم عامة .

ولا يتسع المجال بطبيعة الحال للوقوف عند هذه المحاولة من التصفية في صورتها العملية التي طبقها شراح الشعر القديم ، ولكنا نكتفي هنا برصد أثرها العام، من خلال أمثلة قليلة دالة، نختارها اختيارا، لنشخص عن طريقها هذا الاتجاه في تفسير الشعر ، ونكشف عن التعمية التي أحدثها بطمس أصوله الوثنية .

ونستطيع دون الدخول في تفاصيل معقدة أن نقرر أن الوثنية الجاهلية، قد اتخذت في الفترة المتأخرة ، التي سبقت ظهور الاسلام شكلا بعينه ، هو نفس الشكل الذي نجده في ديانات الشعوب الأخرى المجاورة ، وهو المعروف بـ «عبادة الكواكب» التي تتألف من ثالوث سماوي هو : القمر والشمس والزهرة ـ وهو يؤلف عائلة صغيرة ، يلعب فيها القمر غالبا ، دور الأب ، والشمس دور الأم ، والزهرة دور الابن أحيانا والابنة أحيانا أخرى على رأي بعض الروايات .

وهذا الثالوث الوثني قد انتقل الى العرب من عبادات الامم المجاورة ، فقد ذاعت عبادة القمر في المناطق الرعوية ، كما عرفت عبادة الشمس في المناطق الزراعية .

أما عبادة الزهرة فيظهر أنها انتقلت اليهم من عبادات الشرق القديمة ، التي عرفت فيها عند اليونان بـ «أوديت» ، وعند الرومان بـ «فينوس» وعند السومريين بـ «نينا» وعند الساميين عامة «عشتار» والعرب خاصة «عثرت» !

ولما كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية الأخرى لا يتعبدون الا لآلهة مجسمة ، فقد عمدوا الى تجسيد هذه الآلهة السماوية ، التي لم يستطيعوا الاقتراب منها ، واتخذ هذا التجسيد مظهرين مختلفين :

المظهر الأول : تجسيد هذه الآلهة الثلاثة : القمر والشمس والزهرة وغيرها من النجوم الأخرى ، التي تعبدوا لها في أشخاص وحيوانات وأشجار بعينها من حيوان هذه البيئة ونباتها .

والمظهر الثاني : أنهم اتخذوا لكل اله عددا من الأصنام التي تشخص صفاته المختلفة ، على نحو ما كانوا يرونها فيه ، وبذلك تعددت الأصنام ، وكثرت كثرة توهم من ليست له معرفة تاريخية دقيقة بالوثنية الجاهلية ، أنهم كانوا يعبدون الأصنام لذاتها .

وهذا العالم الوثني بنجومه السماوية وأشخاصه وحيوانه وأصنامه ، قد اتخذ في العصر الجاهلي ثلاثة مستويات منفصلة من الناحية المادية ، ولكنها متصلة من الناحية الروحية :

المستوى الأول ، مادي ويتمثل في هذه النجوم البعيدة التي كانوا يتعبدون لها ، والأصنام والأشخاص والحيوانات والنباتات التي جسموها فيها .

والمستوى الثاني ، رمزي ، ويتمثل في العلاقات الروحية والمادية التي كان الجاهليون يقيمونها بين آلهتهم وبين رموزها على الأرض ، من الانسان والحيوان والنبات والأصنام ! أما المستوى الثالث ، فيتمثل في الآثار التي تركتها هذه العبادة الوثنية في أشعارهم ... ونقصد بها تلك الصور التشبيهية والاستعارية التي تحفل بها القصائد الجاهلية ، والتي جمع فيها الشعراء الجاهليون ، بين أطراف تشبيهية لا تجتمع في الواقع الحقيقي ، ولكنها تجتمع في أساطيرهم الوثنية .

ومن هذه الصور المألوفة في الشعر الجاهلي ذوات الأصول الاسطورية ، صورة المرأة التي يشبهها فيها الشعراء بالغزالة ، والشمس ، والبقرة الوحشية ، ويشبهون شعرها بقنو النخلة وقرن الغزالة وأشعة الشمس !

فالشاعر الجاهلي في هذه الأبيات يجمع بين أشعة الشمس وجمال المرأة وشعرها وقرون الغزالة فيقول :

تمنح المرأة وجهها ضاحكا	مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون ، وطرفا ساجيا	أكحل العينين ، مافيه قمع !
وقرونا سابغا أطرافها	غللتها ريح مسك ذي فنع

فقرن الغزالة الجاف هو أشعة الشمس الصافية وشعر المرأة الناعم ووجهها الجميل في آن واحد !

ويقول الشاعر واصفا جمال امرأة أحبها فشبهها بغزالة أم ترعى وليدها :

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

خذول تراعى ربربا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل ، دعص له ندى

سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف ، ولم تكدم عليه بإثمد !

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه ، نقى اللون لم يتخدد !

وهذه صورة يجمع فيها الشاعر بين الشمس الآلهة المعبودة ، وبين المرأة والغزالة اللتين تجسدانها على الأرض ، جمعا تهب فيها الشمس لهذه المرأة عناصر الخصوبة والجمال ، بما سقت به أسنانها من ماء الحياة !

ولعل في هذا ما يوضح زيف هذه التفسيرات البلاغية ، التي حرص فيها البلاغيون على «خلق» وجوه شبه غريبة بين أطراف هذه الصور ، التي لا تجتمع في الواقع الحقيقي ، وهي وجوه شَبَهٍ غايتها تصفية هذه التشبيهات من عناصرها الوثنية القديمة كما رأينا .

(٣)

وحين نترك الشعر الى الأخبار والأحداث ، الى تلك المادة التاريخية والاخبارية التي تفننت المصادر الأدبية في جمعها ، فاننا في الحقيقة ندخل الى أخطر المصادر العربية ، التي أضرت بالدراسات الحديثة حول الشعراء القدامى ضررا بالغا ، ونختار من هذه المصادر ، واحدا لا تكاد تخلو دراسة حديثة حول الشعر والشعراء من الاعتماد على رواياته وأخباره ، أعنى «كتاب الأغاني» لمؤلفه أبي الفرج الاصبهاني !

وسوف نقتصر في حديثنا عن هذا الكتاب على ناحيتين ، هما : منهج المؤلف في جمع الأخبار والأحداث ، وأثر هذه المادة في دراسات المحدثين التي اعتمدت عليه .

وفيما يتصل بمنهج المؤلف في جمع مادته الغزيرة ، فقد وصفه هو نفسه وصفا دقيقا في مقدمة كتابه فقال : «هذا كتاب ألفه علي بن الحسين .. وجمع فيه ما حضره وأمكنه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها الى قائل شعره ، وصانع لحنه

وطريقته من ايقاعه .. على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه ، وما لا غنى عنه من علل اعرابه وأعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه .. واعتمد في هذا الباب على ما وجد لشاعره أو مغنيه ، أو السبب الذي من أجله قيل الشعر ، أو صنع اللحن ، خبرا يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه ، على أقصر ما أمكنه وأبعده من الحشو !... وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ولمع تليق به ، وفقر اذا تأملها قارئها ، لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا بها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية ، والخلفاء في الاسلام ، تجمل بالمتأدبين معرفتها ، وتحتاج الأحداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، اذ كانت منتخلة من غرير الأخبار ، ومنتقاة من عيونها ، ومأخوذة من مظانها ..» .

ويقول مصورا طريقته في اختيار الألحان والأخبار :

«فصدر كتابه هذا وبدأ فيه بذكر المائة الصوت المختارة لأمير المؤمنين الرشيد .. وأتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن ، اذ ليس لكل الأغاني خبر ، ولا في كل ماله خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ، ويلهي السامع ...» .

ويقول معللا ظاهرة الاستطراد التي تغلب على روايات الكتاب : «... وكذلك تجري أخبار الشعراء ، فلو أتينا بما غنى به في شعر شاعر منهم ولم نجاوزه حتى نفرغ منه لجرى هذا المجرى ، وكانت للنفس عنه نبوة ، وللقلب منه ملة ، وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود الى مستجد ، وكل منتقل اليه أشهى من النفس من المنتقل عنه ... واذا كان هذا هكذا فما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ، ومن قصة الى سواها ، ومن أخبار قديمة الى محدثة ، ومليك الى سوقة ، وجد الى هزل ، أنشط لقراءته وأشهى للتصفح فيه ..» .

وقد أطلنا الاقتباس من مقدمة الكتاب لأهميتها في بيان طبيعة المنهج الذي اتبعه أبو الفرج في تأليفه ، والذي نستطيع تلخيصه في عنصرين أساسيين ، هما :

أولا : حرص المؤلف على الاستطراد في رواية الاخبار والاستقصاء في جمعها .

وثانيا : القصد الى انتقاء الأخبار الطريفة التي لها على حد قوله ، قصة تستفاد وحديث يستحسن ! إذ ليس لكل «ماله خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع» .

وقد أثمر هذا المنهج، كما قلنا، مادة تاريخية واخبارية وقصصية عظيمة ومتنوعة ، يختلط فيها الصحيح بالزائف ، ويلعب فيها الخيال الشعبي دورا بارزا ، مما جعل من «الأغاني» كتابا في الأسمار ، وما يحويه من قصص وأحداث وأساطير نصوصا أدبية خالصة ، قيمتها الحقيقية في خصائصها الفنية ، وفي اختصار ، جعل ذلك كله من «كتاب الأغاني» كتابا أدبيا تشخص مادته المتنوعة طبيعة النثر الفني من الناحيتين الموضوعية والفنية في القرن الرابع الهجري !

ولعله من الطريف الذي يحسن ذكره هنا ، على طريقة أبي الفرج الأصبهاني ، أن هذه «المادة الأدبية» ، القصصية والشعبية، قد أغرت الدارسين المحدثين على اختلاف طبقاتهم ، وتنوع ثقافاتهم، بالاعتماد عليها في دراساتهم . ومن هؤلاء الدارسين اثنان ، الدكتور طه حسين الذي لم يستطع ، على الرغم من دقته والتزامه بنقد الروايات القديمة ، وشكه في صحة ما رواه أبو الفرج في كتابه منها ، أن يفلت من الاعتماد على «الأغاني» في دراساته الشيقة عن الشعراء القدماء ؛ وعباس محمود العقاد الذي اتخذ من روايات الأغاني عن جميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ، مادة علمية موثقة اعتمد عليها في رصد أحوالهم النفسية بطريقة مسرفة في التصحيح والإثبات !

ونقف لبيان خطر هذا الكتاب على الدراسات الحديثة، عند شاعرين معروفين ، هما : الحطيئة الشاعر المخضرم المعروف ، والآخر عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي، الذي شق طريقا جديدة في شعر الغزل في القرن الأول الهجري .

وفيما يتصل بالحطيئة ، فقد حشد أبو الفرج الأصبهاني حول حياته وخلقه ودينه وشعره مادة اخبارية وقصصية وفنية متناقضة في ذاتها أولا ، ومتناقضة حين نقابلها بأشعاره التي اجتزأها المؤلف من قصائده ثانيا . وهذه الاخبار جميعها ، على الرغم من

تناقضها واضطرابها ، مروية بإسناد صحيح الى رواتها . وقارىء هذه المادة الاخبارية تنطبع في ذهنه للحطيئة صورتان متباينتان :

الأولى : صورة شاعر هجاء بذيء اللسان ، مشكوك النسب ، رقيق الدين ، قليل الوفاء ، شديد الطمع .

والثانية : صورة شاعر ، عف اللسان ، صحيح النسب ، عميق التدين ، عظيم الوفاء .

وهذا التناقض نابع في الحقيقة من منهج أبي الفرج في اختيار الاخبار والأحداث التي قصد أن تكون غريبة وطريفة ، وهي أخبار وروايات استقاها من مصادر مجهولة للقدماء والمحدثين ، فلم يرد منها في المصادر التي سبقته الا أقل القليل وفي صورة مختصرة وغير موثقة . وهي أخبار على كل حال لا تثبت للنقد ، قصد بها المؤلف ، مثل صنيعه في سائر أخبار الكتاب الأخرى ، أن ترضى القاريء وتسر السامع ، واغترفها في الغالب من تلك القصص الشعبية التي كانت رائجة في أوساط القصاص ومجالس السمار .

ولعلنا نستطيع ، حين نراجع بعض هذه الأخبار ، أن نتبين مدى الزيف والتخليط اللذين يغلبان عليها :

فأبو الفرج يتخذ من هذه الأبيات التي ينسبها الى الحطيئة دليلا على رقة دينه ، وارتداده عن الاسلام ، وهجائه لأبي بكر في قوله :

ألا كل أرماح قصار أذلة ... فداء لأرماح ركزن على الغمر
فان الذي أعطيتم أو منعتم ... لكالتمر أو أحلى لخلف بني فهر
فباست بني عبس وأفناء طي ... وباست بني دودان ، حاشى بني نصر
فدى لبنى ذبيان أمى وخالتي ... عشيّة ذادوا بالرماح أبا بكر
أبوا غير ضرب يحطم الهام وسطه ... وطعن كأفواه المرقعة الحمر
أطعنا رسول الله اذ كان صادقا ... فيا عجبا ! ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وندخل الى مناقشة هذه الأبيات عن طريقين :

الأول : طريق نسبتها الى الحطيئة ، فلم ترد في مصدر قديم قبل الأغاني منسوبة اليه ، الا في «الشعر والشعراء» حيث روى منها بيتين دون سند ، مما يقلل من قيمتها التاريخية . وعلى العكس من ذلك ، فقد وردت الأبيات في تاريخ الطبرى منسوبة الى من يسميه بـ «الخطيل» ، وهو على نحو ما يفهم من كلام الطبري ، من المرتدين الذين هجوا أبا بكر والمسلمين ، وعارضوا خلافته .

والطريق الثاني : ما تشير اليه الأبيات من أحداث تاريخية ، خاصة بارتداد القبائل وحصارها للمسلمين في المدينة . ومهما تكن حقيقة قائلها ، أهو الحطيئة أم الخطيل كما يروي الطبري ، فان طريقة رواية الأحداث تؤكد انها أبيات موضوعة ، كما تؤكد أن واضعها ليست له معرفة صحيحة بأحداث هذه الفترة ، وأنه لذلك لم يكن من الذين شاركوا فيها .. فهو يهجو بني عبس وأفناء طيء وبني دودان ، لأنهم أحجموا عن المشاركة في هذه الحروب ، وقبلوا أن يدفعوا الزكاة التي رفضتها غيرهم من القبائل .. ومن الثابت تاريخيا أن هذه القبائل نفسها قد اشتركت في حصار المسلمين في المدينة في خلافة أبي بكر ، بقيادة طليحة ، على نحو ما هو معروف ـ كما أن قائلها المجهول ، من ناحية أخرى ، يشكك في نوايا أبي بكر عن طريق ايهامنا بأنه يسعى لتوريث ابنه خلافة المسلمين ، ولم يكن لأبي بكر ولد اسمه بكر ، على نحو ما خدعت كنيته واضع الأبيات !

لعل في هذا كله ما يؤكد لنا زيف هذه الأبيات ، وزيف ما يرتبه أبو الفرج عليها من نتائج ، فمن غير المعقول أن يجهل الحطيئة دور قبيلته في حروب الردة وحصار المدينة ، أو يخطىء في تفسير كنية أبي بكر فينسب اليه ابنا غير موجود !

ومن الغريب ان أبا الفرج لم يبد شيئا من الشك في رواية هذه الأبيات ، على الرغم من تناقضها مع أحداث التاريخ وواقع الحال كما رأينا ، في الوقت الذي كان فيه يقيم الدنيا ويقعدها لتصحيح نسبة بيت ، أو زمن حادثة مما لا يرقى بأهميته وخطورته الى مثل ما ترقى اليه هذه الأبيات !

ومن الأخبار التي حرص أبو الفرج على تدوينها وتأكيدها أن الحطيئة كان مشكوك

النسب ، وأنه هو نفسه لم يكن يعرف أباه أو عمه أو خاله ، وأنه حاول أن يعرف حقيقته من أمه ولكنها خلطت عليه .. ونسب اليه في ذلك شعرا ، يحسن بنا قراءته ، فهو يقول واصفا اضطراب نسبه :

تقول لي الضراء لست لواحد ولا اثنين ، فانظر كيف شرك أولئكا
وأنت امرؤ تبغي أبا قد ضللته هبلت ، ألمّا تستفق من ضلالكا !

ولكن هذا «الحطيئة» الذي لا يعرف أباه، لا يلبث أن يهجوه ويهجو أمه، في شعر يرويه أبو الفرج منسوبا اليه ، فيه ما يؤكد معرفته به معرفة دقيقة :

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك ، فساءني في المجلس

ويؤكد ابن قتيبة هذه المعرفة الواسعة بأبيه وسلوكه بهذه الأبيات التي ينسبها اليه :

لحاك الله ثم لحاك حقا أبا ولحاك من عم وخال !
فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم لا حياك ربي وأبواب السفاهة والضلال !

وبصرف النظر عما في هذه الأبيات من هجاء لأمه وأبيه ، فان فيها على عكس ما تقص الابيات الأخرى، ما يؤكد معرفته بهذا الأب معرفة حملته على الشكوى منه . وهي أبيات على كل حال ركيكة ليست من جنس شعر الحطيئة ، ويظهر أن القدماء من الرواة قد قصدوا من ترويجها، أن تؤكد هذه الصفة التي ألصقوها الصاقا بالحطيئة ، صفة الهجاء الفاحش ، معللين ذلك ضعة نسبه وضعف خلقه .

وقضية الهجاء الفاحش هي الأخرى في حاجة الى وقفة ، فعلى الرغم مما يرويه أبو الفرج من أنه كان هجاء بذيء اللسان ذا شر وسفه ، فليس ، فيما صحت نسبته اليه من الشعر ، قصيدة في الهجاء بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح ، ولكن فيه شعر اختلط فيه المديح بالعتاب اختلاطا جعل منه لونا بعينه، لا يستطيع الدارس أن يغامر بنسبته الى الهجاء الخالص، على نحو ما نجد في أشعار المعاصرين له من شعراء الهجاء . وقد أدرك

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك ادراكا عميقا، ووصفه بقوله : «ما أسمع هجاء ، وانما أسمع معاتبة» !

وهذه الأبيات هي قوله :

والله ما معشر لاموا امرأ جنبا في آل لأي بن شماس بأكياس
ما كان ذنب بغيض لا أبا لكم في بائس جاء يحدو آخر الناس
لقد مريتكم لو أن درتكم يوما يجيء بها مسحي وابساسي
وقد مدحتكم عمدا لأرشدكم كيما يكون لكم متحي وامراسي
لما بدالي منكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمعت يأسا مبينا من نوالكم ولن يرى طاردا للحر كالياس

إلى أن يقول :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي !

والأبيات كما هو واضح ، تصف تجربة جعل الحطيئة نفسها مركزا لها ، هي نزوله أول الأمر ، على سيد من سادات العرب، وعده ولكنه أخلف وعده معه وتخلى عنه ، فاضطر الى نقل جواره الى سيد آخر ، أعطاه وأجزل له في العطاء .. واتخذ الحطيئة من هذه التجربة طريقا، أو فلنقل وسيلة فنية الى مديح صاحبه والثناء عليه ، بالمقابلة بينهما ، وهي وسيلة فنية جعلت لشعره مذاقا خاصا ، وأثرا عميقا !

ونستطيع أن نمضي في مناقشة هذه الأخبار التي جمعها أبو الفرج عن الحطيئة في كتابه ، لنكتشف زيفها وأثرها المدمر على سمعة الحطيئة وفنه ، ورسم صورة بغيضة له . ومن المؤسف أن هذه الصورة البغيضة هي التي استقرت وتمكنت من عقول الدارسين المحدثين ، على الرغم من وجود صورة أخرى مناقضة يمكن استخلاصها من خلال رصدنا لهذا التناقض الذي يغلب على روايات الأغاني ، وهذا ما يفعله قليل من الدارسين !

(٢) وحين ننتقل الى الشاعر الآخر ، أعني عمر بن أبي ربيعة ، فانما ننتقل الى وصف

طريقة أبي الفرج في خلق القصص وتزييف الاحداث من الشعر . وفي عبارة أخرى الى طريقة أبي الفرج في شرح الشعر القديم شرحا قصصيا وحديثا طريفا ومسليا . وهي طريقة قد خلقت للشعراء صورا غريبة ، وزيفت لهم تاريخا حافلا بالمغامرات والأحداث . بل نستطيع أن نقول ان هذه الطريقة في تفسير الشعر تفسيرا قصصيا ، قد جعلت من حياة المسلمين الاجتماعية في القرون الأربعة الأولى في بيئات العامة والخاصة ، حياة لاهية قد انصرف أصحابها الى المتعة بالخمر والغناء والنساء . وهي صورة قد استقرت في عقول الدارسين المحدثين، الذين انصرفوا الى تأكيدها بطريقة جعلت قيمة الفن الشعري لديهم رهينة بقدرته على الافصاح عنها ، كأنه مرآة تنعكس على صفحتها الصافية صور الحياة في دقة ووضوح ! وليس هناك من شك في أن قارىء أخبار هذه المرحلة التاريخية الخطيرة في حياة المسلمين، يكتشف أنه لم تكن هناك حياة واحدة ، ولكن كانت هناك حياتان : حياة جادة ووقور ، تشخصها هذه الحركة العلمية التي نشأت في القرن الأول الهجري حول العلوم الدينية واللغوية ، وأثمرت ثمرات طيبة في جمع الحديث وتفسير القرآن وتقعيد القواعد ، ورواية الشعر والسير والأخبار ، ثم تطورت في العصور التالية الى حركة علمية وعقلية واسعة، في العلوم اللغوية والأدبية والدينية والفلسفية من ناحية ، والعلوم التجريبية من ناحية أخرى .

أما الحياة الأخرى ، فهي الوجه اللاهي الذي يقابل الوجه الجاد في أي مجتمع حقق قدرا ما من المدنية والتحضر ، ولم يحدث أن غلب اللهو على الجد في حياة المسلمين طوال القرون الثلاثة الأولى على الأقل ، والا ما كانت الحياة العقلية قد أثمرت هذا النشاط الخصب في مختلف العلوم والفنون والآداب ، ولكن أبا الفرج، لأمر ما، قد جعل من اللهو في الحياة الاسلامية ابان حكم الأمويين والعباسيين لونا «فاقعا» ، وصورة غالبة على سلوك الناس !

فاذا عدنا الى أخبار أبي الفرج عن نشأة عمر بن أبي ربيعة وحياته وجدناه يرسم له صورة غريبة عمادها : الحب والشعر ، فقد نشأ ثريا مدللا وعاطلا ، يلزم المغنين والمغنيات ، ويطارد النساء خاصة في مواسم الحج . وكان لابد أن يؤدي ذلك كله الى أن تسوء سمعة عمر بين القدماء ، وأن تنتقل أخباره السيئة تلك الى المحدثين من الدارسين

الذين أغرتهم أخبار الأغاني بالمقابلة بين أشعاره وحياته العملية ، مقابلة ورطتهم في مواقف متناقضة عن شخص عمر وخلقه ودينه وشعره ، فهل كانت حياة هذا الشاعر على هذا النحو من التحلل من القيم والجرأة على التقاليد والاعراف الدينية والاجتماعية ؟ وهل تشخص أشعاره صورة حقيقية للمرأة الحجازية والحياة الاجتماعية على أيامه ؟

تحتاج الاجابة عن هذين السؤالين الى أن نفرق في دراسة عمر بن أبي ربيعة بين أخبار الأغاني عنه وبين حياته وشعره من ناحية ، وبين طريقته الفنية في نظم أشعاره ، وسلوكه العملي في الحياة من ناحية أخرى .. وأن نفرق بين معاني غزله وقصص أبي الفرج الأصبهاني التي استخلصها من هذا الغزل . وفي اختصار ، ان الصورة التي يرسمها عمر للمرأة الحجازية في أشعاره ، ليست صورة حقيقية للمرأة الحجازية ، ولكنها «صورة فنية» أو شعرية ، استوحاها الشاعر من بيئة المغنين والمغنيات ، ولكنه أعاد خلقها خلقا جديدا ، جعل منها صورة أخرى تلائم حاسته الفنية ، وترمز الى مواقفه من الحياة والبيئة من حوله . والصورة التي استخلصها أبوالفرج من هذا الغزل لـ «عمر بن أبي ربيعة» هي الأخرى صورة فنية تعود الى شيئين : أحدهما ، المقابلة المسرفة بين حياة الشاعر وشعره ، والآخر ، هذه الصيغة الفنية الخاصة التي تميزت بها أشعار عمر الغزلية ، فقد كان حريصا مثل غيره من الشعراء ، على اختيار أحداثه ومعانيه ولغته وصوره الشعرية من جنس أحداث الحياة في صورتها الشعبية ، وصياغتها صياغة قصصية في لغة حوارية شيقة ودالة .

ومعنى ذلك أن هذه النزعة القصصية واللغة الحوارية، والمعاني والأحداث المماثلة لما يوجد في الواقع، والرغبة في تسلية القارىء ، هي التي أدت الى ما أدت اليه فعلا من مقابلة أبي الفرج بين حياة الشاعر وفنه ، والالتفات الى وصف مغامراته الشعرية ، وتفصيل الحديث فيها، أكثر من التفاته الى تحليل أشعاره والكشف عن مقوماتها الفنية . وفي عبارة أخرى أشد وضوحا وأكثر تحددا ، ان هذا كله قد حمل أبا الفرج على أن يجعل من الصور الأدبية في شعر ابن أبي ربيعة صورا حقيقية لواقع الحياة ! يقول عمر متغزلا :

قال الخليط غدا تصدعنا ... أو بعده ، أفلا تشيعنا !
أما الرحيل فدون بعد غد ... فمتى تقول : الدار تجمعنا !

لتشوقنا هند وقد علمت علما بأن البين يقرعنا
عجبا لموقفنا وموقفها ويسمع تربيها تراجعنا ،
ومقالها ، سر ليلة معنا نعهد! فان البين فاجعنا
قلت العيون كثيرة معكم ، وأظن أن السير مانعنا
لا ، بل نزوركمو بأرضكمو فيطاع قائلكم وشافعنا
قالت : أشيء أنت فاعله؟ هذا لعمرك ، أم تخادعنا ،
بالله حدث ما تؤمله واصدق فان الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلا نعدّ له اخلاف موعده ، تقاطعنا !

ومع أن هذه الأبيات لا تختلف في شيء عن غيرها من أبيات الغزل الأخرى ، لا في أسلوبها الحواري أو نزعتها القصصية ، ومعانيها المألوفة التي خلقت هذه الاحداث خلقا فنيا ، فان أبا الفرج قد نسج حولها قصة مسلية جعل منها تجربة حقيقية من تجارب الشاعر في الحب فقال : «حجت فاطمة بنت محمد بن الأشعث فراسلها عمر بن أبي ربيعة فواعدته أن تزوره ، فأعطى الرسول الذي بشره بزيارتها مائة دينار ، فلما جاءته ومعها أمها ، أرسلت بينها وبينه سترا رقيقا تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يحدثها .. فاستخفها الشعر فرفعت السجف فرأى وجها حسنا في جسم ناحل، فخطبها وأرسل الى أمها بخمسمائة دينار ، فأبت وحجبته .. فغم الفتاة ذلك ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد به فتزوجيه ! قالت ، لا والله لا يتحدث أهل العراق خلفي أني جئت ابن أبي ربيعة أخطبه ، ولكن ان أتاني الى العراق تزوجته .. وفيها يقول الأبيات» .

وواضح أن القصة ملفقة وأنها اذا ما قورنت بالأبيات لم تزد عن أن تكون نثرا لها ! فهند ليست فاطمة بنت الأشعث ! وكل ما في الأمر أن الشاعر يريد بهذه الصيغة الشعرية المركبة من الحوار والقصة والمعاني المألوفة ، أن يصوغ موقفا دراميا يعطي فيه للمرأة دورا ايجابيا .. ويتخذ من هذا الدور معادلا موضوعيا على موقف خاص له من واقع الحياة من حوله .. وهذه الصيغة الشعرية المركبة كثيرة التكرار في غزله ومنها قوله :

فمـــا أنس من ود تقــادم عهــده ... فلست بناس ما هدت قدمي نعلي
عشيــة قــالت والـدمـوع بعينهـــا : ... هنيئا لقلب عنك لم يسلــه مسلي
لقد كان في اقراضك الودّ غيرنـا ... وفعلك ناه لي لو ان معي عقلي !
فهــذا الذي في غــير ذنب علمتــه ... صنيعك بي حتى كأني أخو ذحل
هل الصرم الا مسلمي ان صرمتني ... الى سقم ما عشت أو بالغ قتلي
سـأملك نفسي ماستطعت فان تصل ... أصلك ، وان تصرم حبالك من حبلي
أكن كالذي أسدى الى غير شاكر ... يدا، لم يثب فيها بحمد ولا بذل !

ولا تختلف دلالة القصة التي صيغت حول هذه الأبيات عن دلالة القصة الأخرى ، بل لا تختلف عن غيرها من القصص الممتع الذي ينتزعه أبو الفرج انتزاعا من أشعار ابن أبي ربيعة المختلفة ، فهي جميعا تعكس موقفا بعينه يتخذ الشاعر فيه من هذه الصورة الايجابية التي يرسمها للمرأة، والتي تتكرر من مقطوعة الى أخرى ، وسيلة فنية للتعبير عنه ..

وبعد ، فلم أقصد بما قدمته من ملاحظات على طبيعة ما وصل الينا من تراثنا الأدبي، وطريقة القدامى في جمعه وتدوينه وتفسيره ، أن أقلل من قيمته ، أو أتشكك في قدرته على الافادة والبقاء ، ولكني قصدت أن نعيد قراءته في ضوء المناهج الحديثة ، قراءة تجعل منه تراثا متجددا وخالدا .. ولن يتأتى لهذا التراث أن يحقق شيئا من ذلك، الا اذا نقيناه مما دخله من وضع وتزييف ، وأعدنا فهمه وتفسيره وانتقينا منه ما يلائم عقولنا وحياتنا، ويقدر على البقاء ومواجهة التطورات التي تجد على حياتنا المعاصرة .. وفي اختصار، أن نعيد النظر في موقفنا من التراث ، فقد حال حبنا له وتعلقنا به بيننا وبين نقده وتقويمه ، كما حال هذا الحب بيننا وبين الثقافات الحديثة ،ومن الحب ما يقتل في بعض الأحيان ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

المحاضرة الحادية عشرة

الاعجاز الطبي في القرآن الكريم



للدكتور / محمد علي البار

الأستاذ الدكتور/ محمد علي البار

* من مواليد عدن في ١٩٣٩/١٢/٢٩ .
* حصل على درجة البكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة القاهرة ١٩٦٤ .
* درجة دبلوم الأمراض الباطنية ١٩٦٩ .
* رئيس المركز الثقافي الاسلامي في عدن ٦٥ ـ ١٩٦٨ .
* رئيس قسم الأمراض الباطنية في مستشفى جدة الوطني ٧١ ـ ١٩٧٣ .
* مستشار واخصائي الأمراض الباطنية (عيادة خاصة) من ١٩٧٤ .
* مستشار قسم الطب الاسلامي بمركز الملك فهد للبحوث الطبية بجامعة الملك عبدالعزيز من ١٩٨٤ الى الآن .
* عضو الكليات الملكية للاطباء في لندن وجلاسجو وارينو منذ ١٩٧١ .
* أهم المؤلفات :
  - خلق الانسان بين الطب والقرآن .
  - الخمر بين الطب والفقه .
  - التدخين وأثره على الصحة .
  - العدوى بين الطب وحديث المصطفى .
  - عمل المرأة في الميزان .
  - دورة الارحام .
  - الوجيز في علم الاجنة القرآني .
  - الصوم وامراض السمنة .
  - المسلمون في الاتحاد السوفييتي .
  - الامراض الجنسية أسبابها وعلاجها .
* اشترك في العديد من المؤتمرات الطبية وآخرها مؤتمر الاعجاز الطبي في القرآن الكريم في القاهرة سبتمبر ١٩٨٥ .

* الاعجاز الطبي في القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، وآله الطيبين المباركين .

القرآن الكريم مليء بالكنوز، وكنوز القرآن الكريم تظهر في كل زمان. القرآن معجزة الله الخالدة، كان مظهر الاعجاز فيه عندما نزل الاعجاز البلاغي، لان الامة العربية في ذلك الوقت أمة بلاغة وشعر وأدب، فكان الاعجاز البلاغي هو أول ما أخذ بالالباب، حتى سموا القرآن سحرا وسموا الرسول صلى الله عليه وسلم .. ساحرا، ونهوا الناس عن الاستماع اليه حتى لا يسحرهم بيانه، وبقي القرآن الكريم معجزة خالدة، يتحدى القرون المتوالية المتتالية في اعجازه البلاغي وفي اعجاز أحكامه، وفي اعجاز تشريعاته، ثم اعجازه العلمي ، ظهرت بعض آيات الاعجاز العلمي في القرن العشرين، وسنستعرض في هذه الليلة شيئا يسيرا من هذا الاعجاز العلمي، الذي يتجلى في خلق الانسان .

الله سبحانه وتعالى عندما استعرض في كتابه الكريم خلق الانسان، لم يستعرضها من أجل العلوم الطبية، إنما كان الاستعراض لها لتعميق حقيقة الايمان، وخاصة الايمان بالله سبحانه وتعالى واليوم الآخر .

وسنعيش في ظلال آيتين، ثم تنسحب المحاضرة كلها على هاتين الايتين: يقول الله تعالى في الآية الخامسة من سورة الحج: «يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» .

---

* المحاضرة بالكلمة والصورة (عرض شرائح ايضاحية) .

صورة كاملة للخلق الانساني، من التراب الى النطفة الى العلقة، الى المضغة، حتى مرحلة الولادة، ثم الطفولة، ثم الشيخوخة.

الصورة المقابلة لها الاية الثانية عشرة في سورة «المؤمنون» يقول تعالى: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين».

وفي الآية العشرين وما بعدها من سورة المرسلات، يقول تعالى: «ألم نخلقكم من ماءٍ مهين فجعلنا في قرار مكين الى قدَر معلوم».

نريد أن ندرس القرار المكين الذي هو الرحم، هذا هو الرحم، وهاتان قناتا الرحم، وهذا المبيض. وهذا المهبل، الرحم كمثريّ الشكل، ثلاث بوصات في الطول، بوصتان في العرض، وبوصة واحدة في الثخانه ٣×٢×١. هذا القرار المكين محاط بأغشية كثيرة.

وهنا صورة أخرى مقلوبة، لكن تستطيع أن ترى فيها كيف يكون قرارا مكينا. وهذا الرحم، وهذه عظام الحوض، وهذه الأربطة التي تربط الرحم، والرحم مثل الجسد المعلق، تربطه من أمام، وتربطه من خلف، وتربطه من جميع الجهات. وهذه الألياف المحيطة به، وهذه العضلات، عضلات العجان، تمسك الرحم في هذا المكان، هذا عنق الرحم، وهذا المهبل، وهذا الفرج. هناك هذه توضح معنى قوله تعالى «في قرار مكين».

الرحم عضو عجيب جدا، ذكره القرآن في أكثر من موقف.

لا يتسع رحم المرأة العادي قبل الحمل الا الى (٢ ملمتر)، ويتضاعف حجم الرحم من ٢ ملمتر الى (٧٠٠٠ ملمتر)، اي يتضاعف أكثر من ٣٥٠٠ مرة.

وزن الرحم قبل الحمل يكون ٥٠ جراما فقط، وفي نهاية الحمل يصل وزن الرحم الى ١٠٠٠ جرام، اي يتضاعف عشرات المرات. فهو ينمو نموا رهيبا، ولا يوجد أي سرطان هذا النمو السريع الذي ينمو به الرحم .. الله سبحانه وتعالى عظم شأن الارحام حين قال:

«واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام»، وكلمة الرحم اشتقت من الرحمن، ولا

يوجد أي عضو في جسم الانسان له هذه المكانة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للرحم، واشتقت من اسم الرحم: الرحمة ، وصلة الارحام، كل هذه اشتقت من اسم الرحمن :
«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار» (الرعد ١٣) هذه الاية معجزة من المعجزات الربانية العظيمة جدا .

هذه صورة الرحم ومواقعه، وهذا الجهاز العظمي، وهنا الامعاء، وهذه تعلقات الرحم المختلفة، توضح لنا مدى الاية الكريمة التي تقول «ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين» كل هذه توضح لنا هذا القرار المكين، الذي ينمو نموا رهيبا، ومع هذا لا يزال قرارا مكينا في غير فترات الحمل. فلو أخذ شخص سكينا وطعن بها امرأة، لما استطاع أن يصل الى الرحم، ولو سقطت إمرأة من شاهق وتحطم الحوض، فانه نادرا ما يصاب الرحم، فالرحم فعلا في قرار مكين جدا. ولا توجد لفظة أخرى تعبر عن القرار المكين .

«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار» (الرعد ١٣) كان الاعتقاد السائد لدى المفسرين ان الغيض هو النقص في اللغة العربية ، ما تحمل كل أنثى وما تغيض: يعني تنقص، وتزداد قالوا: تغيض تنقص بالولادة أو بالسقوط، تزداد بالحمل، تزداد وتغيض يعني في نقص وزيادة ، ولكن هناك في الواقع نقصا وزيادة مستمرين ، هذه الصورة تمثل الغشاء الداخلي للرحم ، لا تزيد عن نصف ملمتر فقط، بعد هذا بواسطة الهرمونات التي تأتي من الغدة النخامية ، ينمو الغشاء المبطن للرحم ويتضاعف الى ٧ ملمترات ويزداد الى ٧ ملمترات ثم يعيد الدورة .. الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وماتزداد، يعني في غيض وزيادة مستمرة طوال حياة المرأة التناسلية. بل حتى في فترة الطفولة، يتغير الرحم شكلا وموضوعا من فترة الطفولة الى فترة المراهقة الى فترة البلوغ الكامل، ثم من فترات البلوغ الى سن اليأس يمر الرحم بدورات شهرية، لكل دورة شهرية من الغيض والزيادة دورة مستمرة. هذا المعنى العجيب لا يمكن أن تفهمه الا بفهم العلوم الطبية الحديثة.

ننتقل الى نقطة أخرى وهي قوله تعالى: «ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطواراً» الأطوار هذه قال عنها علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، عندما قيل في مجلس عمر أن العزل هو الموءودة الصغرى . قال : لا تكون موءودة حتى تمر على التارات السبع: فتكون

ترابا ثم هي نطفة، علقة، مضغة يعني تراب عظام، لحم يكسو العظام، ثم ينشئه الله خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. هذه هي الأطوار السبعة وفكرة الاطوار لم تكن معلومة في التاريخ البشري على وجه الاطلاق الاطوار هذه مهمة في فهمها. لان هذه الاطوار لم تعلم على المستوى البشري الا في القرن الثامن عشر، حين اكتشفوا ان الجنين يمر بأطوار وقد سميت هذه النظرية الخلق الفوقي، يعني في طور بعد طور. وهذه النظرية عندما قدمت، سخر منها الاطباء والعلماء، ولم تقبل إلا عندما اكتشف شليدون وشوادنيه في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٧٥ وهيرتوج ان النطفة، أي الجنين، يتكون من مرحلة سماها الزابجوت، ثم تمر بمرحلة ثانية ثم مراحل أخرى، فاعترف بذلك علم الأجنة الحديث، في أواخر القرن التاسع عشر. وانتشرت فكرة ان الجنين يخلق من أطوار .

سنتحدث الآن عن النطفة، قال تعالى في الآيات ٣٦ ـ ٤٠ من سورة القيامة: «أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منيّ يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى» والجواب الوحيد الذي يأتي هو «بلى، إنه على كل شيء قدير» .

النطفة في اللغة العربية هي كل ماء قليل صافٍ، ووردت كلمة النطفة في القرآن الكريم في اثنتي عشرة آية . القرآن الكريم قال: «ألم يك نطفة من منيّ يمنى» أي من جزء يسير من المني. ووصف المني بآيه أخرى في قوله في الآية ٥٦ من سورة الواقعة: «أرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» . الفخر الرازي في أواخر القرن الخامس الهجري، وهو أحد كبار المفسرين، صاحب التفسير الكبير الذي يسمى تفسير الرازي، يقول: (ان في المني روحا كثيرة) تصور! اي انه فهم من الآيات القرآنية أن هناك في المني مخلوقات كثيرة. وذكر ذلك في كتابه المباحث المشرقية الجزء الثاني من ٢٧١.

اذن توجد صفتان للنطفة: الأولى إنها جزء يسير من المني والصفة الثانية انها مخلوقات موجودة .

تكوين المني : تتكون الحيوانات المنوية في الحويصلات التي في الخصية، أما الحويصلات تسمى القنيّات المنوية ، وهي لو مدت على طولها الحقيقي لبلغت عدة

كيلومترات. ها هنا تصنع الحيوانات المنوية وتتجمع وتذهب الى البربخ، الذي يسمونه اندنسس بربخ، لغة ومعناها قناة من خزف تحمل الماء، فسميت بربخ كأنها قناة تحمل الماء، بعدها تتجه الى الحبل المنوي، القناة الناقلة للمني، حتى تصل الى الحويصلة المنوية، وتتجمع فيها الافرازات من حويصلة منوية، ثم من بروستاتا، ثم تقذف الحيوانات المنوية التي لا تشكل سوى ٥٪ فقط من مجموع المني . ألم يك نطفة من مني يمنى. ثم ليس ذلك فحسب ولكن الحيوانات المنوية الموجودة في كل قذفة تبلغ ٥٠٠ مليون حيوان منوي ، المصنع هنا مستمر مثل مصنع سيارات أو غيره، يصنع باستمرار، وتمر هذه في القنيّات المنوية، وتتجمع حتى تكون صالحة للسباحة، تبلغ المدة ثلاثة أسابيع، وفي كل دقيقة يصنع حوالي ٢ مليون حيوان منوي. وفي كل دقيقة يخلق الله ويميت ٢ مليون كرة دم حمراء، ويخلق مثلها كرات الدم البيضاء، ومن خلايا الجلد أكثر منها، ومن خلايا الجهاز الهضمي... الله هو الخالق الباريء ...

هذه أيضا قنيّات منوية كثيرة مكبرة بالميكروسكوب الاليكتروني. وهذه توضح لنا كيف تصنع الحيوانات المنوية وما هي صفاتها .

الحيوانات المنوية تصنع في هذا المكان، في هذه القنّيات المنوية العجيبة، والمني الذي يقذفه الرجل سائل مكون من افرازات عديدة لا تشكل الحيوانات المنوية سوى ٠,٥٪ منها . والحيوانات المنوية تسبح في خضم بحر المني المتلاطم، لها رأس، وبعده عنق، والعنق هو مخزن الوقود، وذيل طويل. الرأس تحتوي أسرار الوراثة كاملة، والعنق كمية الوقود، الحيوان المنوي يسبح سباحة سريعة تبلغ ضعف سرعة أحسن عداء في مسابقة المائة متر، في مسابقات الأولمبياد في لوس انجلوس. حجم الرأس ٦ مايكرون .

الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة تقول : «وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» المفسرون القدماء كانوا في حيرة من هذه السلالة، هل تعود للطين؟ السلالة أولا معناها ما استل من شيء، وخلاصة الشيء .. فكانوا يعتقدون انها سلالة من طين، لكن تبين انها سلالة الماء، ومجموعة من الحيوانات المنوية بدايتها مشوهة، وجزء منها صالح، وحوالي ٢٠٪ منها غير صالح. في القذفة الواحدة ٥٠٠ مليون، الصالح منها ٨٠٪، وتمر في صعوبات كثيرة، فإفراز المهبل حامضي يقتل مجموعة كبيرة

من الحيوانات المنوية، وغشاء عنق الرحم المخاطي يقتل مجموعة كبيرة من الحيوانات المنوية، فلا يصل من ٨٠٠ مليون الى البويضة سوى ٥٠٠ حيوان منوي، ثم يختار الله سبحانه وتعالى، ويصطفي واحداً فقط، ثم يجعله نسلا من سلالة من ماء مهين، من خلاصة الماء، والرسول صلى الله عليه وسلم، يقول في الحديث الذي أخرجه مسلم: ماء من كل الماء يكون الولد . هذه الحقائق لم تعرف الا في القرن العشرين .

هذا الحيوان المنوي في المهبل، له رأس مدبب، وعنق، وذيل، فيه صفات الرجولة الكاملة: الاقدام والشجاعة، ينطلق بسرعة رهيبة حتى يصل الى غرضه وهو البويضة، وإن لم يستطع ذلك مات، ولا يهتم بجميع الصعوبات التي يقابلها .

وفي المقابل سنرى البويضة جميلة مثل القمر، ساكنة لا تتحرك، ونرى الصفات الوراثية كيف تختلف حتى على مستوى النطفة وعلى مستوى الخلايا، وعلى مستوى التركيب البيولوجي، وعلى مستوى التركيب النفسي. الله سبحانه وتعالى يقول «وليس الذكر كالأنثى» فمحاولة جعل الذكر متماثلا مع الانثى هي محاولة خاطئة. الحيوانات المنوية التي وصلت الى عنق الرحم بعضها يموت وبعضها لا يزال حيا ، وتموت وتعاني ، هناك خلاصة لهذه الحيوانات المنوية يختار الله، سبحانه وتعالى، منها واحدة فقط لتلقيح البويضة، والله سبحانه وتعالى يصطفي ويختار ، اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم من جميع الخلق، اصطفى الأنبياء، اصطفى من الشهور شهر رمضان، اصطفى من الايام يوم الجمعة، ويوم عرفة، كذلك يصطفي من الحيوانات المنوية، فمن ٥٠٠ مليون حيوان منوي كل واحد بصفات معينة، ليست كل الحيوانات المنوية متشابهة.

نأتي الى صفة أخرى من صفات النطفة أو الحيوان المنوي .. الله سبحانه وتعالى خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى، والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل لا ريب، والحيوانات المنوية، إما حيوان منوي يحمل شارة الذكورة Y، أو حيوان منوي يحمل شارة الانوثة X ، فاذا شاء الله سبحانه وتعالى ولقح أحد الحيوانات المنوية التي تحمل اشارة الذكورة البويضة، كان الجنين باذن الله ذكرا، واذا شاء الله سبحانه وتعالى واختار حيوانا منويا، يحمل شارة الانوثة، كان الجنين انثى، اي أن الذكورة والانوثة هي لله سبحانه وتعالى . وسنتحدث عنها مرة أخرى «لله ملك السموات والأرض

يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور» (الشورى ٤٩) هذه صورة خلية عادية من الجسم فيها ٤٦ صبغا على هيئة أزواج، هذا صبغ الجنس هذا X وهذا Y، كل خلية في جسم الانسان لو فحصتها ستنبئك الخبر اليقين، هذا ذكر، وهذه أنثى، وليس الذكر كالأنثى، صفات تختلف على مستوى الصبغيات، بعد ذلك تختلف الصبغيات على مستوى النطفة: البويضة والحيوان المنوي، ثم تختلف الصفات بعد ذلك على مستوى التركيب الجسدي، ثم على مستوى التركيب الهرموني، ثم تختلف الصبغيات على مستوى التركيب النفسي .. لهذا فان عملية جعل الذكر والأنثى شيئا واحدا خطأ كامل وقاتل بيولوجيا وعلميا. ولله سبحانه وتعالى تقدير النطفة «قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره» (عبس ١٧ ـ ١٩) ما معنى هذا الكلام؟ معنى التقدير ان هناك مرحلتين من الخلق، خلق تطوري : مرحلة بعد مرحلة: نطفة علقة مضغة «ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا» الاطوار خلق طور بعد طور، وقد شرحناها بايجاز شديد.

الصورة الثانية توضح ان هناك تقديرا على مستوى النطفة، فنفس الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة، والبويضة التي ستتلقح بالحيوان المنوي، تحمل صفات وراثية، النطفة اذا وصلت الى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم . الرسول صلى الله عليه وسلم يقول هذا القول. كتبه ابن جرير في تفسيره، معناه ان الصفات الوراثية موجودة داخل هذه الكروموسومات، وهذه صورة رسمية لصبغيات خلية الذكر، وبها الاسرار الوراثية في نواة الخلية، التي تسمى DNA . واكتشف جزء من تركيب DNA، أو التركيب الكيميائي لـ DNA. عام ١٩٥٤ اكتشفه فريك ووستنسن، ونتيجة لذلك نالا جائزة نوبل بجدارة.

في كل واحد من هذه الصبغيات التي يمكن رؤيتها الان بالميكروسكوب، يوجد ٥٠ ألف صفة وراثية، جينات مورثة، سميت مورثات، يختار الله سبحانه وتعالى توافيق وتباديل فيها كما يشاء، ولهذا يختلف الأخ عن أخيه، والأب عن ابنه. ونجد هذا المثال واضحا في نوح عليه السلام. نوح من الانبياء أولى العزم من الرسل، وابن نوح فاجر كافر فاسق، انه ليس من أهله، انه عمل غير صالح، ابراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، ومع هذا

كان أبوابراهيم «آزر» كافراً معانداً محمد صلى الله عليه وسلم، خير خلق الله أجمعين، ومع هذا فعمه أبولهب يصلى نارا ذات لهب .

سننتقل الان الى نطفة الامشاج «انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» (الانسان ـ ٢) أمشاج: مادة مشج الشيء يعني خلطه، قال ابن عباس امشاج يعني أخلاط، واتفق على ذلك أهل التفسير قاطبه، الله سبحانه وتعالى لم يذكر نطفة المرأة في أي آية من الآيات، لكن ابن عباس قال: امشاج أي اخلاط الرجل والمرأة. وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يحدث اصحابه في قريش، فجاء يهودي، فقالت قريش ان هذا محمد صلى الله عليه وسلم، يزعم انه نبي، قال: لأسألنه سؤالا لا يعلمه الا نبي، ثم اتى الى النبي، فقال: يا محمد مم يخلق الانسان؟ فقال: من كلٍ يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة .

هذا الكلام لم يكن معروفا لدى البشرية بعلومها التجريبية أبدا، كان ارسطو يسمى «المعلم الأول» ارسطو كان يعتقد ان الانسان انما يتكون من دم الحيض، كان يرى المرأة لا تحيض، فكان يعتقد ان الحيض يتجمع ويكون الجنين. ما هو دور الرجل؟ قال : مثل الانفحة التي تعقد اللبن فتحوله الى جبن. ان بعض علماء التشريح، وبعض علماء الطب من علماء المسلمين، تأثروا بأرسطو فقالوا مثل كلام ارسطو. فرد عليهم ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) قال: (وزعم كثير من أهل التشريح ان ماء الرجل لا أثر له في عقد الولد، وانما يتكون من دم الحيض، وقد كذبوا لان الله تعالى يقول: إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه. أمشاج يعني من الرجل والمرأة. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من كل يخلق، من نطفة الرجل ونطفة المرأة.

المعارك الرهيبة التي امتدت على تاريخ البشرية حتى بعد اكتشاف الميكروسكوب، ليفين هوك جاء ورأى الحيوان المنوي وتخيل ان الانسان موجودا كاملا في الحيوان المنوي، وإنه عندما يدخل الى الرحم ينمو نموا في الرحم، وليس للمرأة أي دور في تكوين الجنين، وجاءت مجموعة أخرى من العلماء، اكتشفوا ان بعض الحشرات تتكون من البويضة فقط، ولا دور للحيوان المنوي للذكر في تكوين هذه الحشرة، وسموها الولادة بدون اب ، واستمرت المعارك واحتدمت في مجال علم الطب والعلم البيولوجي، في القرن

السابع عشر والثامن عشر الميلادي، بين أنصار البويضة وأنصار الحيوان المنوي، وفي عام ١٩٧٥، تمكن هيرتوج من اكتشاف ان كلًا من نطفة الرجل ونطفة المرأة يساهمان في تكوين الجنين، وبعد هذا مورجان سنة ١٩١٢ اكتشف الكروموسومات. تصوروا ان هذا الكلام كان معروفا منذ عصر قديم، منذ ١٤٠٠ سنة. وبعض الاخوة يسأل، لماذا لم يستفد المسلمون من هذا؟ وجاء البلدي في القرن الثالث والرابع الهجري، وذكره في (كتاب تدبير الحبالى والولدان) وابتدأ لأول مرة ينظر نظرة في تكوين الجنين، وكيفية تكوين الجنين، وذكر هذه المراحل القرآنية واستفاد منها استفادة قصوى. طبعا علماء الفقه والتفسير والحديث وخاصة ابن السقيم ابن حجر العسقلاني توسعا في ذلك توسعا معجزا .

هنا صورة المبيض فيه مجموعة كبيرة من البويضات، بويضة واحدة فقط في الشهر، من مرحلة البلوغ حتى سن اليأس، بويضة واحدة فقط تخرج، تنمو مجموعة من البويضات، ولكن يتوقف نموها، وواحدة فقط يكتمل نموها. وكما هناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوي، وهناك اختيار واصطفاء للبويضة، بويضة واحدة فقط تخرج من المبيض مرة واحدة في الشهر، بعد ان تخرج، الجسم الاصغر يؤثر فيها، هذه هي صورة البويضة، صورة جميلة جدا، بالضبط مثل القمر ليلة ١٤، في منتهى الجمال، هذه مجموعة من الحيوانات المنوية تحيط بهذا القمر، صغيرة الحجم بالنسبة للبويضة، لماذا البويضة كبيرة الحجم، وهي تحتوي على نفس العدد من الصبغيات والاثار الوراثية، يعني ٢٣ كروموسوما، ان السبب هو ان البويضة تحمل غذاء هذا الجنين لمدة أسبوع قبل ان يعلق بجدار الرحم. بويضة ساكنة تخرج من المبيض، تتلقفها أهداب البوق، لا تتحرك، جميلة جدا، تاج مشع يجذب اليها الحيوانات المنوية، تحدث حركة عجيبة في هذه اللحظات، عندما تتجمع الحيوانات المنوية حول البويضة، تبدأ بحركة دائرية عكس عقارب الساعة، كما تفعل الالكترونيات وهي تدور حول البروتون في النواة في أي ذرة عكس عقارب الساعة، الكرة الأرضية تدور عكس عقارب الساعة، المجموعة الشمسية تدور عكس الساعة، ونحن عندما نطوف بالبيت الحرام نطوفِ ونضع البيت على يسارنا، ونبدأ من الحجر الأسود، من ركن الحجر نبدأ الطواف عكس عقارب الساعة. وكذلك الملائكة في البيت المعمور يدورون عكس عقارب الساعة، بنفس الحركة الدائرية العجيبة،

التي توضح ان كل شيء يسبّح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، عملية تسبيح مستمرة، في اللحظة الأولى يبتدىء الانسان التسبيح لله سبحانه وتعالى، صورة عجيبة جدا، سطح القمر من بعيد جميل، لكن عندما نقترب منه نرى سطح القمر فيه وهاد ونجاد وأماكن مرتفعة وأماكن منخفضة، والصاروخ العجيب الشكل الذي يشبه الصاروخ فعلا ، عندما يصل هناك يريد الله سبحانه وتعالى أن تفتح له البويضة كوه ، فتحة، فيدخل برأسه ويلج بالرأس طبعا والذيل ليس له حاجة، فيبقى الذيل معلقا خارج البويضة، وتدخل الاسرار الوراثية ويمتشجان امتشاجا عجيبا جدا. ليس هناك تعبير غير لفظ النطفة الامشاج، احسن تعبير يمكن ان يعبر عن هذه المرحلة هو تعبير النطفة الامشاج، هذه هي النطفة الامشاج بدأت مرحلة الانقسامات تخلع عذارها، وتخلع ذلك التاج المشع الذي كان يغري العشاق وتضع حولها جدارا سميكا، ومع هذا فان الرجل قد يأتي زوجته وتأتي مئات الحيوانات المنوية الى هذه البويضة، فترفض ان تستجيب لهم، وتجعلهم يموتون على جدارها كمدا وحسرة. حتى ولو أنشأوا لها قصائد غزلية طويلة، ومهما قالوا من شعر ومن أدب وفن، تتركهم يموتون كمدا ، لانها لزوجها فقط. فالتكوين ان المرأة لرجل فقط، لزوجها، بينما في الحضارة الغربية المرأة تكون لكل لامس، تكون لهذا وتكون لذاك.

تبدأ مرحلة الانقسامات، وتصبح مثل التوته، تنقسم، تصير مثل الكرة الجرثومية، وفيها فراغ موجود من غير استمداد من الرحم .

الغريب ان ابن حجر العسقلاني وابن السقيم وصفوا هذه المرحلة، وقالوا انها تكون مثل الكرة، وانها مستديرة مثل الكرة، وانها تبقى ستة أيام من غير استمداد من الرحم.

والبويضة تخرج وعليها التاج المشع، فيأتي حيوان منوي يلقحها، فتبتدىء تتكون نطفة الامشاج، وتنقسم خليتين وتكون قد وصلت الى الرحم في هذه الفترة، ويكون الرحم قد استعد نتيجة الهرمونات التي تأتي من الجسم الأصفر، استعد لهذا الضيف الغريب الذي سيأتي، ضيف مهم جدا، تفرش الفرش، ويستعد بالغذاء، وليمة ضخمة جدا.

تصل البويضة الملقحة التي أصبحت كرة جرثومية، وتعلق بجدار الرحم ما بين اليوم الخامس واليوم السادس، فاذا لم يحدث تلقيح، يحزن الرحم حزنا شديدا، ويعبر عن

حزنه ليس بالدموع، ولكن بالدم، دم الحيض. وقد وصفه الامام الشيرازي في المهذب قبل اكثر من الف عام ومائتين بأنه دم أسود اكمد، كأنه محترق. لماذا؟ لأنه يصف ما به من لوعة وحزن، لانه بنا كل هذا البناء، ولكنه يكفكف دموعه، ويعيد البناء من جديد، حتى تبدأ دورة الرحم مرة أخرى، نقص وزيادة، غيض وزيادة، كما شرحنا هذه الآية في الخامسة من سورة الحج، وكما سمعتموها، لكن سنتحدث عن العلقة «يأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة» الان في مرحلة العلقة سنرى شيئا عجيبا، لا توجد كلمة في أي لغة من لغات البشر، تستطيع ان توضح هذه المراحل سوى كلمة علقه. في اللغة العربية علقه تعني تعلق الوحش بالحبالة، علق الثوب على المجدب علقت المرأة الدوية علقة حيوان ظبي، لانها تعلق بجدار الرحم، تنغرس وتعلق بجدار الرحم وتبدأ أول الأمر تعلقها بمجموعة من الاهداب، بحيث انها تتصل بأهداب بطانة الرحم، مثل عملية تعشيق. بعد ذلك تنغرس بالخلايا الآكلة هذه في اليوم السادس والسابع.

صورة حقيقية للرحم، هذه هي العلقة، بداية دخول مرحلة العلقة الصورة التي بعدها تعلق نموا داخل الرحم، وتبدأ في عمل زغبات مشيمية، وكل زغابة من هذه الزغبات، تكون لها أفرع مثل أفرع الشجرة. هذه الصورة من داخل الرحم، هذه هي العلقة ابتدأت تظهر من داخل الرحم. الصور التي بعدها توضح لنا الزغبات المشيمية التي تتكون وكيف تتفرغ هذه الزغبات المشيمية، حتى تصبح مثل فرع الشجرة، وكل فرع منها يتعلق بجزء من الرحم، بعد ذلك يتكون ما يسمى بالمعلاق، لان الجنين يتكون داخل هذه الكرة. هذه الزغبات المشيمية متعلقة بجدار الرحم. وهذا جدار الكرة الجرثومية، محاط بكيس يسمى كيس السلا أو الافيوم. وهذا معلاق يعلق الجنين بأغشية الى جدار الكرة الجرثومية، وجدار الكرة الجرثومية معلق بمجموعة كبيرة من التعلقات، بواسطة الزغبات المشيمية، والزغبات المشيمية تتكون بسرعة، هذه الصورة توضح لنا المعلاق وهنا زغبات مشيمية، وهذا جنين حقيقي، وهنا غشاء الأفيوم ازيل، وهذا في بداية اليوم الرابع عشر من التلقيح، والمرأة لا تدري هل هي حامل أو لا. هذه صورة الزغبات المشيمية المختلفة كأنها في مركبة فضائية. وهذا كيس السلا الموجود على الجنين. وهذا كيس المخ الصغير، ضمن المجموعة الموجودة على التعلقات، ثم يتعلق هذا الجنين بأكياس بالجدار بواسطة

العلاق، ثم المعلاق وهنا الزغبات المشيمية تتفرع مثل أفرع الشجرة، وكل فرع منها يعلق بجدار الرحم، لا يوجد في أي لغة كلمة تستطيع ان تقول كل هذا الكلام بكلمة واحدة؟ عندما عرف هذا أساتذة علم الاجنة العالمية، قالوا لا يمكن ان يقول هذا الكلام لبشر اطلاقا. والبروفيسور ألين بالمر عندما سمع هذا الكلام اعلن اسلامه. وعميد كلية الطب في تايلند، في بانكوك عندما عرف هذا الكلام قال: أشهد ان لا اله الا الله. وأن محمداً رسول الله. هذا هو الجنين، هذا رأس الجنين موجود هنا، وهذه الزغبات المشيمية التي يتعلق بواسطتها هذا الجنين. هذا القلب، قلب بدائي، وقد نبض من اليوم الواحد والعشرين، ويستمر في ذلك لا يتوقف لحظة واحدة حتى الموت. هذه هي العلقة في اليوم ١٤، طبعا من يوم ٧ تبدأ التعلق الى يوم ٢١، ويبتديء يتكون شريط أولى مكون من طبقتين، طبقة خارجية وأخرى وداخلية، يتكون بينهما طبقة وسطى، يسمونها الميزودرم. وتبتدىء تتكثف على محور الجنين، وتبدأ على هيئة أزواج، من يوم ٢١ حتى يوم ٣٥ يتكون حوالي ٤٤ زوجاً، اذا نظرت لها كأنها أسنان انغرزت في مضغة لحم، أو في قطعة لحم، أو حتى في قطعة لبان، لا توجد لفظة أخرى تستطيع ان تعبر عن هذا كله الا كلمة مضغة .

للمضغة هذه الطبقة الخارجية الاكتودرم، والطبقة الوسطى الميزودرم وهذا محور الجنين. وهذه الطبقة الداخلية، تبتدىء تتكثف وتكون كتلاً بدنية، يسمونها الكتل البدنية، لكن التعبير القرآني أدق وأشمل وأروع، يفهمها البدوي ويفهمها عالم الاجنة، ويفهمها أي انسان، وفي أي وقت، وفي أي زمان، تشع باشعاعاتها على حسب قدرة الشخص، وما أعطاه الله من علم، اشعاعات عجيبة جدا، هذه نفس المضغة، الاسنان المنغرزة فيها، مرحلة الكتل البدنية الموجودة على جانبي الجنين. ثم هذه صورة المضغة، الكتل البدنية مستمرة على هيئة أزواج، ثم الاقواس البلعومية ستة، كلمة كتل بدنية في الطب، لا تتحدث عن أقواس بلعومية، ولا تتحدث عن الصفات الداخلية، أيضا يسمونها «قسيموس»، لكن كلمة مضغة تتحدث عن كل هذا بكلمة واحدة معجزة، لا يوجد لها بديل ولا نظير، ولذا، وكما أخبرتكم، تشد انتباه علماء علم الأجنة، وتجعلهم ينبهرون لهذه التعبيرات القرآنية الدقيقة بالفعل. بروفيسور كيث مور يعتبر واحدا من خمسة في العالم، اعترف وكتب هذا في كتابه، في طبعته الأخيرة ، بأن ما ذكر في القرآن ليس له نظير، ولا

يمكن ان يكون من عند بشر، الله سبحانه وتعالى يقول «فخلقنا المضغة عظاما». فهذه المضغة ستتحول الى عظام، لانها تنقسم الى قسمين: قسم هيكلي، وقسم عضلي. والقسم الهيكلي يتحول الى غضاريف تكون العمود الفقري، ويبتدىء يخرج من العمود الفقري في كل منطقة، الاطراف العليا من المنطقة العنقية، والاطراف السفلى من المنطقة القطنية، تبتدي فيها بدايات العظام. سنرى هذا في الصورة التالية، بدايات العظام. فخلقنا المضغة عظاما، هذا هو العمود الفقري، هذا ليس رأس الجنين. ولكن عنق الجنين، وهذا بداية الطرف العلوي، وهذا بداية العمود الفقري. يبتدىء طرف علوي، وطرف سفلي، ويوجد كيس فيه بقايا الزغبات المشيمية، يسبق تكوّن العظام.

سألنا في بداية البحث علماء الاجنة في جامعة الملك عبدالعزيز، قلنا لهم هل يسبق العظم تكوين اللحم؟ فالجواب: لا هما يتكونان من شيء واحد، تنقسم الكتل البدنية الى هيكل عظمي، وقطع هيكلية، وقطع عضلية، لكن عند التدقيق ومواجهة المراجع المتوسعة، تبين ان الهيكل العظمي يسبق تكوين اللحم بأسبوع مثلا. في الاطراف العليا، في الاسبوع الخامس تظهر الغضاريف الأولى، ثم يتبعها اللحم في الاسبوع السادس، ثم الاطراف السفلى، تظهر في الاسبوع السادس العظام، ثم تتلوها في الاسبوع السابع. صورة غير واضحة لتكوين الاطراف، والعظام تتكون أول مرة غضاريف يترسب فيها العظم، ما عدا القحفة. هناك قحفة الرأس، تتكون من طبقة غشائية، ثم يتركز عليها، ويترسب عليها عظم بصورة مباشرة، هذه الصورة رأس الجنين، والعظم الذي فيها غشائي، طبقة غشائية خفيفة، لا يزال المخ يظهر، العينان بارزتان من الجنين، والقلب في الذقن مباشرة. هذا في الاسبوع السادس من تكون الجنين. هذه الغضاريف واضحة وهي في الطرف السفلي والعلوي في الاصابع في اليد، وهذه في القدم. صورة واضحة لتكوّن الغضاريف، واللحم يكسوها بعد ذلك، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

الله سبحانه وتعالى يقول يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، سندرس الان تأثير الظلمة على تكون الجنين، هذا الجنين كأنه في مركبة فضائية، ما هي الظلمات الثلاث.

قال المفسرون ظلمة جدار البطن، ثم ظلمة جدار الرحم، ثم ظلمة الاغشية. وجدار البطن مكون من ثلاث طبقات، ثم الرحم نفسه من ثلاث طبقات، بعد ذلك الاغشية، نفسها ثلاثة أنواع : الغشاء الساقط، والغشاء المشيمي، وغشاء السلا، ثلاثة من ثلاثة في كل واحد ثلاثة من الأغشية ثلاث من الطبقات سنراها في الصورة التالية، هنا ظلمة البطن، يتكون بعد هذه الرحم، يعني ظلمة بعد ظلمة، يخلقكم في بطون أمهاتكم من بعد خلق المراحل. لو تعرض الجنين لاي ضوء، لقد عملوا هذه التجارب على الحيوانات، وأي ضوء يتعرض له الجنين يصبح مشوها، ولهذا فان الاشعة السينية عندما يتعرض لها الجنين تسبب له تشوهات خلقية، وخاصة في المراحل الأولى. التسوية الله سبحانه وتعالى يقول (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك) هناك مرحلة خلق وخلق من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وكل مرحلة نطفة علقه مضغة ثم بعد ذلك تسوية وتعديل وتصوير، ثم تكوّن الوجه العحيب في مراحل عجيبة جدا، هذه الصورة للجنين في الاسبوع السادس، يتكون القلب فوق، والوجه غير واضح، القلب البدائي، والكبد البدائي، هذا الطرف العلوي مثل المجاديف، وهذا الطرف السفلي، والوجه بشع جدا. ولا تظهره الصورة، صورة عجيبة جدا، يخلقكم خلقا من بعد خلق. تبقى صورة أخرى يصوركم في الارحام كيف يشاء. في القلب فتكون مجموعة من الغرف ثم تتحول الى غرف أخرى هذه صورة الجنين، صورة عجيبة جدا العينان هنا عين وهنا عين. وهذا الفك العلوي، وهذا الفم هنا، وهذا النتوء الجبهي، وهذا الفك السفلي، والقوس البلعومي، الثاني، وهذا القوس البلعومي الأول: يتكون الوجه بصورة بشعة، لا يتخيل انسان انه كانت له هذه الصورة ولهذا يأتي العتاب الرقيق الرباني: ياأيها الانسان ما غرك بربك الكريم؟ الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، فلهذا ينبغي أن يكون هناك شعور بالخضوع لله سبحانه وتعالى، ومعرفة قدر الانسان انه شيء تافه ومع هذا فقد كرمه النداء الرباني اللطيف (ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك) هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء، شي عجيب جدا. الصورة التي بعدها توضح لنا تطور هذا الجنين، في هذا الشكل الاسبوع السابع، ليس له أي هيئة من الشكل الانساني، أو أي صفة واضحة. طبعا هو على مستوى الجينات، هو انساني ومقدر، وكل خلية من هذه الخلايا مقدر لها عمرها، ومقدر لها أين ستسير، هذه خلية، ثم

هذه خلية، هي كلها من طبقة واحدة، كلها أحيانا تكون من طبقة اكتودرمية، بهذه الصور المتتابعة يخلق هذا الانسان العجيب، وتنوعه، وتشكله التشكيل العجيب. صورة عجيبة جدا، لهذا الطفل ، بدايات العين هنا، الصورة التي بعدها جهاز واضح جدا، الاطراف هنا تتضح، الشكل الانساني في الاسبوع الحادي عشر، هذه شبكية العين لم تتكون بعد، لكن هذا الجنين يعطي الشكل الانساني، ومع هذا فحجم الجنين لا يزيد عن ثلاثة أرباع أوقية يعني يساوي عشرين جراما مثل رسالة عادية بالظرف. هذه صورة أخرى عن تأثيرات المواد التي تتناولها الحامل في أثناء الحمل، وتأثير الكحول، يؤدي الى تشوهة وتخلف عقلي. في هذا الجنين، كتأثير الضوء والاشعة وتأثير الكحول على الأطفال الاجنة، تكون مشوهة تشوهات خلقية، وتخلف عقلي، وعيوب خلقية في القلب نفسي الشيء بالنسبة للام المدخنة، تؤثر على الجنين، بل لو كانت الام لا تدخن والاب يدخن، ممكن ان يكون هناك تأثير للتدخين على الجنين، وتكون هناك عيوب خلقية في القلب. لهذا نصيحتنا للآباء ألا يدخنوا والى الامهات الا يدخن .

هذه صورة تأثيرات لمواد مسرطنة، ضد السرطان، تعطي احيانا، الأم، يكون عندها سرطان فيؤدي الى تشوهات خلقية شديدة جدا، هناك قصة دواء عقاري مهدىء مثل الفاليوم، وقالوا انه خالٍ من أي أعراض، وجلب نفس المشاكل، وسحب العقار. بل أفلست الشركة التي أنتجت العقار، نفس الصورة تشوهات خلقية رهيبة جدا نتيجة تعرض للاشعة بكمية كبيرة، وهذه أهمية الظلمة في تكوين الجنين. الصورة التي تليها هناك مجموعة من الاخطار لمواد كيماوية تعرض للاشعة، وطبعا الامراض الجينية مجموعة كلها تؤثر على الجنين، شرب الخمور ، التدخين. هذا طفل ما يسمى دوان دون سندرو أو المغولية، لان العين على شكل عيون أهل المغول. نسبة الولادة في المغولية أو مرض التخلف العقلي، هذا واحد من كل ألف ولادة. في سن ٢٥ اذا حصلت الولادة وتأخر الزواج، ونحن الان نتجه الى تأخير سن الزواج ونحارب الزواج المبكر، لانهم في الغرب يحاربون الزواج المبكر. كلما تأخر الزواج كلما ازدادت نسبة ولادة المتخلفين عقليا، ولهذا فالدعوة الى تأخير سن الزواج دعوة تصادم الطب وتصادم العلم وتؤدي الى انتشار الأمراض الجينية، والى ولادة المتخلفين عقليا .

ستعود الى نقطة أخرى، وهي حكاية جنس الجنين، لان هذا السؤال يرد كثيرا من

بعض الاخوة. يقولون الله سبحانه وتعالى يقول (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت) الاطباء الآن يعلمون جنس الجنين، يعلمون ما في الارحام. الجواب سهل لان جنس الجنين يقدر على مراحل متعددة على مستوى الجينات على الكروموسومات ألم يك نطفة من مني يمنى. وفي الآية الثانية انه خلق الزوجين الذكر والانثى . اذا تُمنى يعني X أو Y هذا المستوى الاول، المستوى الثاني طبعا هذا لا أحد يعرفه، المستوى الثاني مستوى الغدد التناسلية، يعني هناك غدة تناسلية تتكون، إما أن تتحول الى مبيض أو تكون خصية، متى يعلم ذلك؟ لو سقط جنين في اليوم الأربعين، وشرّح هذا الجنين، وقد حدث هذا بالفعل، ومع هذا ما استطاع أساطين علم التشريح ان يعرفوا، هل هذا الجنين ذكر أم أنثى من تشريح الخصية، لكن ممكن معرفته من دراسة الكروموسومات، أما من تشريح الغدة التناسلية فلا يمكن ذلك والعجيب ان الرسول، صلى الله عليه وسلم. في الحديث الذي رواه حذيفة بن اسيد وأخرجه الامام مسلم، اذا مر بالنطفة ٤٢ ليلة، بعث الله ملكا فخلقها وصورها وخلق جلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى، فيعلم بعلم الله سبحانه وتعالى صورة لتكوين الكروموسومات، وأصبحنا نعرف ان هذه خلية ذكر في وجود كروموسوم Y ، هذا على مستوى الكروموسوم، سنرى الصورة التي بعدها على مستوى الغدة التناسلية ، سنرى الفرق وسنرى صدق هذا الحديث العجيب الذي رواه الامام مسلم، هذه خلية من جسم الانسان توضح لك . هذه خلية ذكر عادية، هذه من الفم فيها XX، هذه خلية انثى هذه خلية فيها 3X يعني زيادة في الانوثة XX يعني انثى، وهذه خلية ذكر عليها كروموسوم Y طبعا القضية ستكون معقدة حتى على مستوى الكروموسومات، لانه ممكن يكون فيها X٢ وواحد Y ، وهذه يسمونها حالة كلين ملتر. يعني اريد ان اوضح لكم ان معرفة جنس الجنين ليس بالسهولة حتى على مستوى الكروموسومات، وليس بالسهولة حتى على مستوى الصبغيات يغلط فيها الطبيب، ويكون فيها اشكالات متعددة، ممكن يكون مجموعة X٢ أو ثلاثة X وواحد Y فعل هذا ذكر. هل هذا انثى طبعا له شكل انثى وله اجزاء من صفات الذكر، هذه صورة لجنين اسقط في يوم ٤٢ لا يمكن تمييزه، بعد هذا أي واحد في كلية الطب يقول لك ان فيه جينات منوية وخصية وفيه مبيض وفيه ـبيضات اذا سقط قبل ٤٢ يوما لا يستطيع أحد التمييز.

وهذه صورة من كتاب مورفي علم الاجنة الحديث صدر في عام ١٩٨٢ ، وهو يتفق تماما مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، انه لا يعلم جنس الجنين على مستوى الغدد الجينية الا بعد يوم ٤٢ يوما. هذه صورة توضح جنس الجنين انه ذكر، الصورة الاخرى صورة طفلة لا تزال في بطن امها، وهي طبعا انثى، الشكل الخارجي للاعضاء التناسلية الخارجية تكون في الاسبوع الثاني عشر، ولا يمكن رؤيتها الا ما بعد الاسبوع السادس عشر، والفحوصات التي تجري لمعرفة جنس الجنين لا تجري عادة الا بعد الاسبوع الـ١٦، وسواء كان هذا بالموجات فوق الصوتية أو بغيرها، فمعرفة جنس الجنين الخارجي والاعضاء التناسلية الخارجية ممكن الى حد ما، بواسطة الموجات فوق الصوتية. وممكن بواسطة سحب السائل الاميوسي، وذلك بعد الاسبوع السادس عشر. هذه توضح نزول الخصية أو المبيض ، تتكون ما بين الصلب والترائب «فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب» لكن الماء الدافق يتكون في الخصيتين، فالخصية نفسها تتكون بين الصلب والترائب بين الاضلاع، يتكون في منطقة الكلية، ثم تنزل الخصية الى أسفل في الشهر السابع من الحمل، ويخرج من البطن ما بين الشهر الثامن وأحيانا الى التاسع، فهذه أيضا دلالة للآية الكريمة «فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق» طبعا صفات الماء الدافق صفات عجيبة جدا. هذه توضح الجنين، ومشكلة جنس الجنين، هذا الجنين ولد والاب والام أسمياه (أمين) وبعد ذلك جاء الاطباء وقالوا: هذا ليس قضيباً ، هذا بظر كبير، وهذا ليس كيس الصفن، ولا توجد هناك خصيتان انما هذه الام كانت تستعمل عقار البرجوستون، لانها كانت مهددة بخطر الاجهاض، فاستخدم الاطباء لها هذا العقار، الى ان تكون شكل الجنين الخارجي وشكل الاعضاء التناسلية الخارجية، حتى بعد الولادة، شكل ذكر. وسمي أمين وبعدما أجروا العملية سموه (أمينة). تحول أمين إلى أمينة وصارت قضية في الصحافة. والصحافة كتبت عنها طبعا. هذا تمثل هنا نفس القصة نتيجة هرمونات موجودة داخل الجنين نفسه من الغدة الكظرية. الغدة الكظرية أحيانا تفرز هرمونات ذكورة، نتيجة ورم أو التهاب في الجنين فتبدو الاعضاء التناسلية الخارجية مثل الذكر ، اذن هناك مشكلات حتى على مستوى الجنين، وهناك ما يسمونها الخنثى الكاذبة، ويوجد خنثى حقيقية، ويوجد مسائل معقدة جدا حتى بعد ان يكون الشخص سويا أمامنا. شخص لا يستطيع الاطباء

معرفة هل هو ذكر أم أنثى ، ويحتاجون الى فحوصات معقدة ومراكز متقدمة جدا كي يحددوا هل هو ذكر أم أنثى . وفي بعض الاحيان يكون الجنس الكروموسومي ذكراً، والشكل الجسمي أنثى، وشكل جميل جدا، صورة امرأة عارية جميلة جداً، ومع هذا نجد ان كروموسوماتها ذكرية وهي متزوجة ، وذهبت لانها لا تنجب، فاكتشفوا انها ليست انثى، على الاطلاق، هي ذكر، وخصيتها موجودة في المنطقة العلوية، وعملوا عملية وشالوا الخصية لانها ممكن تتحول الى سرطان. هذه امرأة كاملة طبعا، ما أخبروها انها ذكر ، لأن هذا يسبب مشكلة لانها انثى ومتزوجة، لكن اخبروها انها لا يمكن ان تنجب .

هذه صورة عجيبة للجنين بعد ان يمر بمراحل الخلق المختلفة، نطفة علقة مضغة يبتدىء التشكيل والتسوية والخلق الآخر. ونضج الروح، وتبتدىء علامات الشخصية، هناك كتابة موجودة على جبين المولود ، الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول: ثم يكتب ما بين عينيه حتى النكبة ينكبها . قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : (كتاب القدر) يكتب ما بين عينية جميع ما سيحدث لهذا المولود. وأيضا ورد في حديث آخر انه يكتب في صحيفته. فقال يجمع بينهما ان الكتابة قد تقع في الصحيفة وقد تقع في جبين المولود. وفي المثل العامي المصري «اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين» هذه لمحة من الكتابة الموجودة على جبين المولود. وهي تشبه الكتابة الموجودة على بصمات الاصابع. ومعلوم انه لا يوجد اثنان يتشابهان في بصمات الاصابع لان بصمات الاصابع هذه بصمات اصابع شخص بالغ، في الوقت الذي تكتب فيه بصمات الاصابع وعلامات الشخصية أيضا، تكون كتابات على جبين المولود في نفس الوقت .

يتكون المخ الذي فيه التفكير والارادة، وهذه كلها بين الاسبوع ١٦ و٢٠ تتكون في هذه المرحلة كل هذه الاشياء، هذه الكتابة تغطى بطبقة دهنية. وابتدأ هذا الجنين يتحرك، ويحاول أن يستشف ما هو مكتوب على هذا الجبين.. ولكن أنىٰ أن يستشف، وقد غطاه الله سبحانه وتعالى، حتى لا يتلصص عليه أي انسان، ولا يعرف أي انسان مصيره. لاحظ ـ العيون مقفلة وكذلك الاذن تقفل في الشهر الثالث، ولا تفتح الا في الشهر السابع. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره) من يعلم ان هناك شقا للسمع والبصر؟ علم هذا سنة ١٩٧٠ ، والرسول وهو ساجد يقول

(سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين) الصورة هذه توضح الجنين وهو يمسك بالحبل السري الذي يربطه بالام، تغذيه وتدفع عنه كل الشرور، تعطيه من دمها تعطيه الحديد، ولو أصبحت تعاني من فقر الدم، تعطيه الكالسيوم ولو أصيبت بلين العظام، تعطيه كل ما في جسمها، الأم كلها عطاء. المرأة كلها عطاء فهل يبرها هذا الانسان، نحن نختصر مرحلة الامومة .. الامومة مرحلة لا يمكن ان يوازيها أي مركز من مراكز الانسان، سواء كان ملكا، سواء كان فيلسوفا عبقريا، كل المراحل يتصاغر أمام الامومة، ولهذا قال الرسول : (الجنة تحت أقدام الامهات) يتصاغر أعظم انسان ولابد ان ينزل تحت اقدامها اذا أراد الجنة. ولهذا أوصانا الرسول بالام، وقال للرجل الذي سأله: من أحق الناس ببري يا رسول الله؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك. اذن مرحلة الامومة، ومركز الامومه لا يمكن ان يباريه أي مركز، هذا الطفل وهو لا يزال في هذه الغلالة الرقيقة، يمص أصابعه، لماذا؟ لكي يستعد لمص الثدي، الله سبحانه وتعالى، الذي خلق كل شيء هداه الى الوظيفة التي قدر لها، فهدى يعني قدر كل شيء وهداه الى وظيفته الطبيعية التي سيؤديها، سواء كان جنينا سواء كان خلية، سواء كان ميكروبا، هذه مراحل النمو للجنين، مراحل مختلفة، مرحلة بعد مرحلة، وخلق بعد خلق، وفي الاسبوع ١٦ تتضح بصورة واضحة مراحل خلق الانسان. حيث يتكون دماغ الانسان بصورة واسعة، يعني فصًي المخ يتكونان، ومن الاسبوع ١٦ الى ٢٠ يكون أقصى نمو للدماغ، وبعد هذا لا تنمو أي خلايا عصبية حتى الموت، ولا توجد أي خلية عصبية .


وتفكير الانسان، وارادة الانسان، وتطلعات الانسان، وآمال الانسان، وأحلام الانسان كلها مرتبطة بهذا المخ الذي يتكون ما بين الاسبوع ١٦ و٢٠. والذي يدل عليه، حديث عبدالله بن مسعود الذي أخرجه البخاري ومسلم والذي يقول: ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة . ثم يكون علقه، مثل ذلك، ثم يكون مثل ذلك مضغة. هذه لحظة الولادة عند خروج المولود، يبدأ بالصراخ وينتهي بالصراخ، وهو يئن ويتوجع ويصرخ في هذه اللحظات، لكن حياته تعب ونكد (لقد خلقنا الانسان في كبد) وهناك منذ أول لحظة يكابد، ولابد من المشقة في الحياة، ولكن هناك من يكابد للشر، وهناك من يكابد للخير (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من

دساها) الحياة الدنيا لابد أن يكون فيها كبد. لابد ان يكون فيها مشقة، ولو ولد الانسان وفي فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، لابد ان تأتيه المشقة، ويأتيه التعب، لكن هناك من يكدح للنار، وهناك من يكدح للجنة. والله يوفقنا واياكم الى ما يحب ويرضاه ..

أشرف على إعداد الكتاب وإخراجه

محمد علي فضل سليمان

الادارة الثقافية


وزارة الإعلام والثقافة
الإدارة الثقافية